

New York University



31142028244492



Elmer Holmes
Bobst Library

New York
University





Lewis, Bernard B

NOV 22 1954

121-Arab fi-al-tārīkh

العرب في التاريخ

تأليف

برنارد لويس

استاذ تاريخ الشرقين الأدنى والوسط

في جامعة لندن

تقريب

محمود يوسف زايد

أحد مدته في التاريخ الإسلامي
في جامعة بيروت الأميركية

نبه أمين فارس

رئيس الدراسات العربية
في جامعة بيروت الأميركية

دار العلم للملايين

بيروت

١٩٥٤

2304 015

DS

223

L42

1954

OCT 22 2008

هذا الكتاب ترجمة لكتاب

The Arabs In History

تأليف

BERNARD LEWIS

Professor of The History of The Near And
Middle East In The University of London

وقد تفضل المؤلف فأذن للمعربين بنقله الى العربية .

الطبعة الاولى

آذار ، ١٩٥٤

« عرض عام للتاريخ العربي حتى العصر الحاضر ،
موزون يستحق القراءة . »

٥٠٠ ر . م . ب

كلمة المعربين

كنا نشعر بحاجة القارئ العربي إلى كتاب يعرض في إيجاز ووضوح تاريخ العرب المدون ، ويخلو مما يثقل في العادة كتب التاريخ من تفاصيل وسنين وحواشي ، ويبرز خصائص كل دور من أدوار تاريخ العرب . ولهذا وقع اختيارنا على كتاب « العرب في التاريخ » « The Arabs in History » تأليف الأستاذ برنارد لويس . فهو بحث علمي موجز في تاريخ العرب يقف عند الأحداث الهامة فيتناولها في أسلوب علمي دقيق بالنقد والتحليل والتفسير دون الالتفات إلى التفاصيل .

ولم نضف إلى الكتاب إلا تعليقات يسيرة ، وبعض الايضاحات التي اقتضاها إيجاز الاصل ، وقد أشرنا إلى هذه الاضافات . ووضعنا الايضاحات بين معققات كبيرة .

ولا بد لنا من شكر حضرة المؤلف على تفضله بالاذن لنا بنقل كتابه إلى العربية ، وعلى معاونته لنا في إيجاد بعض النصوص التي أوردناها في كتابه والتي اقتبسها من المصادر العربية الأولية . ونرجو أن نكون قد قدمنا بهذا العمل بعض ما علينا من واجب نحو قراء العربية والله من وراء القصد .

المعربان

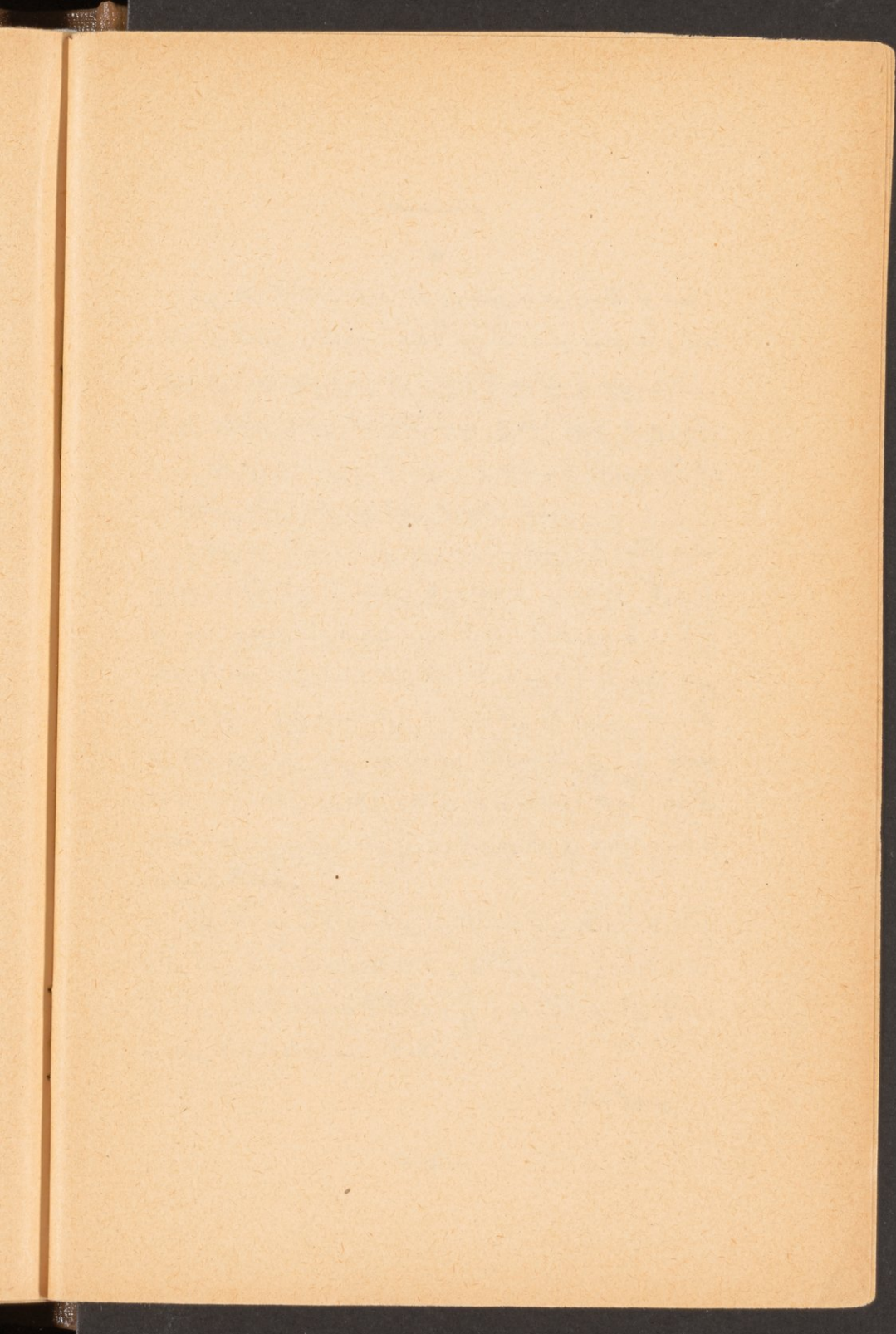
تصدير

ليس هذا الكتاب تاريخاً للعرب بقدر ما هو رسالة أو مبحث يقصد الى التعليل والتفسير . فبدلاً من أن أحشر موضوعاً واسعاً كهذا في لائحة عظيمة من التواريخ والأحداث ، حاولت أن أغربل وأحخص بعض القضايا الأساسية في هذا المضمار ، من مثل مركز العرب في التاريخ الانساني ، وحقيقة أصلهم ومآثرهم ، والخصائص البارزة التي تميز تطورهم خلال العصور . وليس من اليسور ، بل ليس من المستحسن ، في أمثال هذه المباحث ، أن نشير الى مصدر كل واقعة نمر بها أو كل رأي نعتمده . وعلماء المشرقيات سيدر كون ، لأول وهلة ، كم أنا مدين لأساطين الدراسات التاريخية الاسلامية ، الأحياء منهم والأموات . وفي ما بقي ، لا يسعني إلا أن أعبر عن عظيم ديني لمن سبقني إلى تدريس التاريخ الشرقي (في جامعة لندن) ولأساتذتي وزملائي وطلابي الذين ساعدوا جميعاً ، بطرق مختلفة ، على تكوين نظرتي إلى التاريخ العربي كما استجلوها الصفحات التالية .

وإني لاوجه شكري الخاص الى الاستاذ جب H. A. R. Gibb

والدكتور هايديت U. Heydt ، والدكتور رايس D. S. Rice لقراءتهم وتقديمهم مخطوطة الكتاب ، كما أوجه شكري الى الآنسة بردجس لاعادتها فهرست الاعلام .

برنارد لوبسي



مقدمة

من هو العربي؟ من المعروف أن تحديد المصطلحات الجغرافية البشرية من الأمور الصعبة، وليس تحديد لفظ «العربي» من أسهلها. هناك حد ممكن، ولكننا نطرحه جانباً في الحال. فالعرب قد يكونون أمة، ولكنهم ليسوا بعد جنسية بالمعنى القانوني. فالرجل الذي يدعو نفسه عربياً قد يُنعت في وثيقة سفره بأنه ذو جنسية سورية أو لبنانية، فلسطينية أو مصرية، عراقية أو سعودية عربية، ولكن لا يُنعت بأنه عربي. وهناك دول عربية بل وجامعة دول عربية. ولكن ليس ثمة بعد دولة عربية واحدة يكون العرب كلهم مواطنين فيها.

بيد أنه إذا لم يكن للعروبة مفهوم قانوني فذلك لا يقلل من حقيقة وجودها. فاعتزاز العربي بعرويته، وشعوره بالروابط التي تربطه إلى غيره من العرب، قداماء أو معاصرين، ليس أقل متانة. فهل العامل الموحد إذاً عامل لغة - وهل العربي هو من يتكلم العربية لغة أصيلة له؟ هذا الجواب مقنع عند النظرة الأولى، ولكن ثمة صعوبات. فهل اليهودي العراقي أو اليمني الناطق

نعت
to describe
quantity
وثيقة

بالعربية ، وهل النصراني المصري أو اللبناني الناطق بالعربية عربي؟
 قد يظفر الباحث بأجوبة مختلفة بين هؤلاء الناس أنفسهم وبين
 جيرانهم المسلمين . بل هل المسلم المصري الناطق بالعربية عربي ؟
 إن كثرة منهم يعتبرون أنفسهم كذلك . غير أن هذا لا
 ينطبق على جميعهم . ولا يزال لفظ «العربي» يستعمل في عامية مصر
 والعراق ليميز البدوي المقيم في الصحارى المجاورة من السكان
 الاصليين . وتستعمل بعض الطبقات ، تعبيراً غليظاً هو «الناطق
 بالعربية» تمييزاً للذين يتكلمون العربية لا غير من الذين هم عرب
 أقصاح . وقد حدد اجتماع لزعماء من العرب ، منذ سنوات عدة ،
 العربي بهذه الكلمات : **كل من يعيش في بلادنا ويتكلم لغتنا ،**
وينشأ على ثقافتنا ، ويعتز بأجدادنا ، فهو منا . ولتقارن بهذا الحد
 حداً مأخوذاً من مرجع أوروبي كفؤ هو جب الاستاذ بجامعة
 أكسفورد اذ يقول : « ان العرب هم الذين يعتبرون رسالة محمد
 وذكرى الدولة العربية نقطة الارتكاز في التاريخ ، والذين
 بالاضافة الى ذلك يرون اللغة العربية وتراثها الثقافي ملكهم
 المشترك . » وكلا التعريفين كما هو بين ليس لغوياً ، لان كلا
 منها يضيف مقوماً ثقافياً ، وأحدهما على الاقل يضيف مقوماً
 دينياً . وكلاهما ينبغي ان يفسر تاريخياً . اذ لا يرتجى فهم
 الاصطلاح منذ استعماله البدائي المحدود في الازمنة القديمة حتى معناه
 الواسع اليوم ، وإن يكن غير واضح الحدود تماماً ، إلا من
 خلال تاريخ الشعوب التي تسمى عربية . وكما سنرى فان دلالة كلمة
 «عربي» كانت تتغير باستمرار خلال هذه المدة الطويلة . واذا

كان هذا التغيير بطيئاً معقداً واسعاً، فسرى أن الاصطلاح يمكن استعماله في معان عدة مختلفة في الوقت عينه ، وأن حداً عاماً متفقاً عليه لفاهيمه نادراً ما كان ممكناً .

وأصل كلمة « عربي » ما يزال غامضاً على الرغم من أن علماء اللغة قد قدموا تفسيرات تختلف جودةً وقبولاً . فبعضهم يرى أن الكلمة مشتقة من جذر أو أصل سامي بمعنى « الغرب » أطلقه أول ما أطلقه سكان ما بين النهرين على الشعوب الواقعة إلى غرب وادي الفرات . وهذا الاشتقاق عرضة لشك يقوم على أساس لغوي خالص . وقد يُعترض بأن العرب أنفسهم كانوا يستعملونه ، وأنه لا ينتظر أن ينعت قوم أنفسهم بكلمة تدل على موقعهم بالاضافة الى غيرهم . وأجدي من هذا المحاولة التي تربط الكلمة بمفهوم البداوة . فربطها بعضهم بالكلمة العبرية « عرابا » أي الارض السوداء او الحرة ؛ وربطها غيرهم بالكلمة العربية « عيرب » أي الحياة غير المنظمة خلافاً لحياة الجماعات المستقرة المنظمة التي يرفضها البدوي ويحتقرها ، وربطها آخرون بالاصل « عابار » أي ينتقل أو يمر ، وهو الأصل الذي يحتمل ان تكون كلمة عبري مشتقة منه . وقد تولد ارتباط المعنى بالبداوة من أن العرب انفسهم ، على ما يظهر ، استعملوا الكلمة منذ زمن قديم ليميزوا البدوي من سكان المدن والقرى الناطقين بالعربية . بل وما يزالون يفعلون ذلك ، الى حد ما ، حتى يومنا هذا . والاشتقاق العربي المأثور الذي يشتق الاسم من فعل « أعرب » ومعناه « أبان او أفصح » يكاد يكون بالضبط قلباً للتطور التاريخي .

وأقدم ذكر وصلنا عن بلاد العرب والعرب هو الوارد في
الاصحاح العاشر من سفر التكوين حيث يرد ذكر كثير من
شعوب شبه الجزيرة وديارها بالاسم . ولكن كلمة عربي لا ترد في
هذا النص ، وتظهر لأول مرة في نقش آشوري بتاريخ ٨٤٣ ق. م
يسجل فيه الملك شمانصر الثالث كيف أحبطت الجيوش الاشورية
مؤامرة أمراء صغار ثأرين اسم أحدهم « جندبُ العريبي » الذي
أمدَّ جيوش المتحالفين بألف بعير . ومنذ ذلك الحين تتكرر
الإشارة الى « العريبي » و « العرب » و « العُرب » ، في النقوش
الاشورية والبابلية . فهذه النقوش تسجل استلام الجزية من الحكام
الـ « عريبي » ، وتحتوي على جمال وأشياء اخرى تدل على أصل
صحراوي . وتورد أحياناً أبناء حملات عسكرية داخل بلاد
الـ « عريبي » . ويصحب بعض النقوش المتأخرة رسوم للعريبي وجمالهـم .
ومن الجلي ان هذه الحملات على العريبي لم تكن حروب فتح ، بل
كانت حملات تأديبية ، الغاية منها أن ترد البدو الخارجين عن
الطاعة الى واجبهـم كأتباع للأشوريين . وكانوا يقومون على
خدمة الهدف العام من تأمين التخوم الاشورية وخطوط
المواصلات . والعريبي المذكورون في النقوش قوم رحل يعيشون
في شمال بلاد العرب في البادية بين الشام وبلاد العرب على وجه
الاحتمال ، ولا يشملون أهل الحضارة المستقرة المزدهرة في جنوب
غرب بلاد العرب الذين تشير اليهـم السجلات الاشورية إشارة
منفصلة . ويمكن أن نعتبرهـم العرب المذكورين في أسفار العهد
القديم المتأخرة . وحوالى ٥٣٠ ق. م . يبدأ لفظ « عرابايا » يظهر

في الوثائق الفارسية المسماة .

وأقدم إشارة كلاسيكية هي عند ايسخلوس الذي يذكر في « بروميتيوس » بلاد العرب Arabia على أنها بلاد نائية يأتي منها المحاربون بروماح دقيقة النصال . وربما كان ماجوس آرابوس Magos Arabos الذي يرد ذكره في رواية « الفرس » على أنه احد قواد جيش أحشويروش ، عربياً كذلك . وفي الكتابات اليونانية نجد لأول مرة اسم بلاد العرب Arabia مطلقاً على المكان ، ومبنيّاً قياساً على كلمة ايطاليا الخ . فهيرودتس ومعظم كتاب اليونان واللاتين الاخرين من بعده يطلقون لفظي « بلاد العرب » و«عربي» على شبه الجزيرة كلها وعلى سكانها بما فيهم العرب الجنوبيون ، بل وصحراء مصر الشرقية بين النيل والبحر الاحمر . واللفظ في هذا الحين وعلى صورته هذه يبدو أنه يطلق على جميع المناطق الصحراوية في الشرقين الأدنى والاوسط التي تسكنها شعوب ناطقة باللغات السامية . وفي الادب اليوناني ، كذلك ، يشيع لأول مرة لفظ « سراسن » (١) . وتظهر هذه الكلمة أول الامر في النقوش القديمة ، ويبدو انها اسم قبيلة صحراوية واحدة في منطقة سيناء . وتستعمل في الادب اليوناني واللاتيني والتلمودي لتدل على الرحل عامة ، وأطلقت فيما بعد في بيزنطة والغرب في العصور الوسطى على الشعوب الاسلامية كافة .

ويرد أول استعمال عربي للكلمة في النقوش العربية الجنوبية

(١) « من سراكينو » اليونانية . وقد تعود هذه الكلمة الى أصل عربي

(المعربان)

هو « شرقي » .

التقدمة والتي هي من آثار الحضارة الزاهرة ، التي أقامها في اليمن
الفرع الجنوبي من الشعوب العربية ، والتي يرجع تاريخها الى
القرون الاخيرة قبل المسيح والقرون المسيحية الاولى . وتعني
كلمة « عربي » في هذه النقوش « البدوي » ، وغالباً ما تعني
« المعير » . وتطلق على الرجل تمييزاً لهم من الحضرة . وتورد كلمة
عربي في الشمال ، أول ما تورد ، في نقش النارة الذي يرجع الى
أوائل القرن الرابع ، وهذا النقش من أقدم الوثائق الباقية في
اللغة العربية الشمالية التي أصبحت فيما بعد العربية الفصحى . ويسجل
هذا النقش المكتوب بلغة عربية ، لكن بخط نبطي آرامي ، وفاة
امرى القيس « ملك العرب كلهم » وأعماله في ألفاظ توحى بأن
السيادة التي يدعيها لم تكن تتعدى مضارب البدو في شمال الجزيرة
العربية ووسطها .

ولم يصلنا شيء ثابت عن استعمال الكلمة في وسط جزيرة العرب
وشمالها إلا عند ظهور الاسلام في اوائل القرن السابع . فالعرب
عند محمد وأهل زمنه هم بدو الصحراء . ويورد لفظ « الأعراب »
في القرآن بهذا المعنى دون غيره ، ولا يورد أبداً ليبدل على الحضرة
من أهل مكة والمدينة وغيرهما من المدن . ومن الناحية الأخرى
تسمى لغة هذه المدن ولغة القرآن نفسه عربية . وهنا نجد جذور
الرأي الذي ساد فيما بعد ، وهو أن أصح صور العربية هي عربية
البدوي الذي حفظ بأمانة أوفى من غيره ، الأسلوب العربي
الاصلي في الحياة واللغة .

وقد نشرت موجات الفتوح العظيمة ، التي تلت وفاة الرسول وإقامة الخلافة من قبل خلفائه لأمامة الجماعة الاسلامية الحديثة ، اسم العرب على قارات آسيا وافريقية وأوروبا الثلاث ، ووضعته على رأس حقبة حيوية ، وان لم تكن طويلة ، من تاريخ الفكر والجدد الانسانيين . فقد أسس شعوب بلاد العرب الناطقون بالعربية ، البدوي منهم والحضري على حد سواء ، دولة واسعة تمتد من أواسط آسيا الى الأطلنطي . ووجد العرب أنفسهم وسط خليط من الشعوب يختلف عنصراً ولغةً ودينياً ، فكوّنوا بينهم أقلية حاكمة من الفاتحين والسادة ، الاسلام دينهم القومي وشعارهم في الحرب ، والدولة الجديدة غنيمتهم . وأصبحت الفروق الجغرافية البشرية بين قبيلة وقبيلة ، كما أصبحت الفروق الاجتماعية بين الحضرة والبدو ، مدة من الزمن ، أقل أهمية من الفرق بين سادة الدولة الجديدة وبين الشعوب المتباينة التي قهرها . وخلال هذه الفترة الأولى من التاريخ الاسلامي ، عندما كان الاسلام ديناً عربياً خالصاً والخلافة دولة عربية ، صار لفظ « العربي » يطلق عن من يتكلمون العربية ، وينتسبون نسباً صحيحاً الى قبيلة عربية ، وولدوا أو ولد أسلافهم في بلاد العرب . وكان لفظ « العربي » كافياً لتمييز العرب من مجموعة الفرس والسوريين والمصريين وغيرهم الذين أدخلتهم الفتوح العظيمة في الحكم العربي كما كان يميزهم كعنصر حاكم من غيرهم من المقيمين خارج دار الاسلام . ومعاجم اللغة العربية الفصحى الأولى تعطي صيغتين لكلمة عربي ، وهما عرب وأعراب . وتجبرنا ان الثانية

تعني « بدوي » على حين كانت الأولى تستعمل في المعنى الأوسع
 المبين آنفاً . وهذا التفريق ، ان صحّ - وكثير مما في المعاجم
 الأولى لا يصدق الا في المعاجم - لا بد انه يعود الى هذه الحقبة .
 وليس من دليل عليه قبل ذلك . ويبدو انه لم يعمر طويلاً .
 وقد أخذت الخلافة منذ القرن الثامن تتحول تدريجياً من دولة
 عربية الى دولة اسلامية . وكان الانتساب الى هذه الطبقة الحاكمة
 تقرره العقيدة لا النسب . وإذا أخذت اعداد متزايدة من الشعوب
 المقهورة تدخل في الاسلام ، لم يعد هذا الدين المعتقد القومي او
 القبلي للعرب الفاتحين ، بل اكتسب الصفة العالمية التي لا يزال
 يحتفظ بها منذ ذلك الحين . فان تطور الحياة الاقتصادية ، وانقطاع
 حروب الفتح التي كانت تمثل النشاط الرئيسي المثمر عند العرب ،
 أوجدا طبقة حاكمة من الاداريين والتجار مختلفة الجنس واللسان ،
 الامر الذي قضى على الارستقراطية العربية العسكرية التي خلقتها
 الفتوح . وقد انعكس هذا التغيير في نظام الحكومة والقائمين عليها .
 وبقيت اللغة العربية اللغة الرسمية الوحيدة واللغة الأولى في
 الادارة والتجارة والثقافة . وكانت حضارة الخلافة الغنية المنوعة ،
 التي أنتجها رجال من جميع الشعوب والعقائد ، عربية في لسانها ،
 بل وعربية في طابعها . وقد اعترض بعضهم على مظاهر هذه
 الحضارة المختلفة بأنها « عربية » بناءً على ان ما أثر أولئك المتحدرين
 من أصل عربي في « الطب العربي » و« الفلسفة العربية » ضئيلة
 بالنسبة الى ما أثر غيرهم . بل إن استعمال كلمة « مسلم » كان
 كذلك موضع نقد عند بعضهم ، حيث ان كثيرين من بُناة هذه

الحضارة كانوا نصارى او يهوداً . ولهذا اقترح آخرون استعمال لفظ « اسلامي » لانه يقوم على مفهوم ثقافي لا مفهوم ديني او قومي خالص ، ولكن المقومات العربية الصحيحة لحضارة الخلافة اعظم مما قد يبدو من مجرد النظر في اصول مبدعها العنصرية . ولاستعمال لفظ « عربي » ما يوره شريطة ان يحدد فرق واضح بين مفاهيمه الثقافية ومفاهيمه الجغرافية البشرية . ونقطة اخرى مهمة وهي ان حضارة الخلافة العربية بمفهومها الواسع في وعي العرب الجماعي اليوم هي تراثهم المشترك ، والعامل المكون لحياتهم الثقافية .

وفي الوقت نفسه كان مدلول كلمة « عرب » البشري يتغير ايضاً . فقد صاحب انتشار اللغة العربية انتشار الاسلام بين الشعوب المغلوبة . وقد زاد هذا التطور سرعة توطن اعداد من العرب في الأمصار ، كما زاد فيه ، منذ القرن العاشر فما بعد ، ظهور عنصر حاكم جديد وهو الاتراك . فخضع لهم الجميع ، ولم يعد ثمة أهمية للتفريق بين أبناء الفاتحين العرب وبين اهل البلاد المستعمرين . وفي جميع الامصار تقريباً الواقعة غرب بلاد فارس ، ماتت لغات اهل البلاد القديمة ، واصبحت اللغة العربية لغة التخاطب الرئيسية . ومنذ العصور العباسية المتأخرة وما بعدها ارتدت كلمة العرب الى مدلولها القديم من بدو او رحل ، واصبحت في الحقيقة مصطلحاً اجتماعياً قبل ان تكون مصطلحاً جغرافياً بشرياً . وتستعمل في كثير من تواريخ الحروب الصليبية الغربية لتدل على البدو فقط ، في حين

يسمى مجموع السكان المسلمين في الشرق الأدنى « سراسن » .
وبما لا شك فيه ان تاسو يوردها بهذا المعنى في القرن السادس عشر
حين يقول :

وعرب آخرون فيما بعد ، يكدون باستمرار
ومن المؤكد انهم ليسوا من اهل القرار .

(تاسو ، القدس المحررة ١٧ : ٢١)

ويستعمل ابن خلدون ، المؤرخ العربي من علماء القرن الرابع
عشر ، والذي كان هو نفسه حضرياً من سلالة عربية ، الكلمة
- عادة - بهذا المعنى .

وكان الأساس الأوّل في تصنيف الناس في هذه الاوقات
دينيّاً . فالأقليات الدينية المختلفة كانت تنتظم في جماعات دينية
سياسية لكل منها رؤساؤها وقوانينها . وكانت الغالبية تؤلفها
« أمه الاسلام » التي كان أفرادها يرون أنفسهم في الدرجة
الأولى مسلمين . وعندما كانت الضرورة تقضي بالتوسع في
التصنيف كان هذا يحدث على أساس اقليمي - كمصري وسامي
وعراقي ، او اجتماعي - كمصري وريفي وبدوي . واقتصرت
كلمة « العرب » على هؤلاء الأخيرين . وقد استبقى اللفظ قليلاً
جداً من معناه الجغرافي البشري ، حتى إننا نجدده يطلق في بعض
الأحيان على غير العرب من البدو والاكراد او التركمان . وعندما
كانت الطبقة الاجتماعية البارزة في « أمه الاسلام » تركية

في الدرجة الاولى - كما كان الحال في الشرق الادنى قروناً عديدة - نجد اصطلاح « أبناء العرب » أو « أولاد العرب » يُطلق أحياناً على الحضّر وأهل الريف الناطقين بالعربية تمييزاً لهم من الطبقة التركية الحاكمة من جهة ، ومن الرحل أو العرب الاصليين من جهة أخرى .

ولا تزال هذه الحالة باقية في اللغة العربية العامية لم تتغير في حقيقتها حتى يومنا هذا ، على الرغم من أن أناساً آخرين حلوا محل الأتراك كطبقة حاكمة . ولكن تغييراً بعيد الاهمية والدلالة قد حدث بين المثقفين في البلاد الناطقة باللغة العربية . فإن انتشار النشاط والنفوذ الاوروبيين في هذه البلاد انتشاراً سريعاً جلب فكرة « الامة » الاوروبية على أنها مجموعة من الناس لها موطن مشترك ، ولغة مشتركة ، وشخصية مشتركة ، وأهداف سياسية مشتركة . وقد حكمت الدولة العثمانية معظم الشعوب الناطقة بالعربية في الشرقين الادنى والوسط منذ سنة ١٥١٧ م . وقد ترتب على الاثر الذي أحدثته هذه الفكرة في شعب كان على أبواب تحول اجتماعي عنيف بسبب دخول الاستعمار الغربي ، أن ظهرت بواكير بعث عربي وحركة عربية قومية تهدف الى خلق دولة أو دول مستقلة . وقد بدأت الحركة في الشام . ويبدو أن زعماءها كانوا يفكرون في حدود تلك البلاد فقط . وسرعان ما امتدت الى العراق ، وأقامت في السنوات الاخيرة علاقات متينة مع الحركات القومية المحلية في مصر ، بل وفي أقطار شمالي إفريقيا الناطقة باللغة العربية . والعرب عند القائلين بنظريات القومية

العربية أمة بالمعنى الاوروي ، تضم ، في حدود معينة ، جميع الذين يتكلمون العربية ويعتزون بذكري المجد العربي الماضي . وتختلف الآراء في هذه الحدود : فبعضهم يرى أنها تضم الاقطار الجنوبية من غربي آسيا الناطقة بالعربية فحسب ، ويضيف غيرهم مصر ، على الرغم من أن كثيرين من المصريين الذين يتصورون قوميتهم في حدود مصرية خالصة يخالفون هذا الرأي . ويدخل كثيرون في هذه الحدود جميع الاقطار الناطقة بالعربية من مر اكش الى حدود فارس وتركيا . ولم يعد الحاجز الاجتماعي بين الحضر والبدو ذا قيمة من وجهة النظر هذه على الرغم من بقائه في الاستعمال العامي لكلمة عرب بمعنى « بدو » . اما الحاجز الديني في مجتمع حكمته العقيدة الثيوقراطية طويلاً فإن اطراحه جانباً ليس سهلاً . اما أولئك الذين يتكلمون العربية وفي الوقت نفسه لا يقبلون العقيدة العربية ، وبالتالي لا يقبلون الكثير من الحضارة التي نشأت في احضانها ، فلا يزال كثيرون من العرب ينكرون عليهم عربيتهم ، مع أن بعض دعاة العروبة يعترفون لهم بها .

وخلاصة القول اذاً اننا نلتقي بلفظ «عربي» لأول مرة في القرن التاسع ق.م . نعتاً لبدو الصحراء في بلاد العرب الشمالية ، وقد بقيت مستعملة بهذا المعنى عدة قرون بين سكان البلاد المجاورة المستقرين . وقد اتسع مدلولها لأول مرة في الاستعمال اليوناني والروماني ليمتد على شبه الجزيرة كلها ، وتشمل سكان الواحات المتحضرين وحضارة الجنوب المتقدمة نسبياً . اما في بلاد العرب نفسها فيبدو انها كانت لا تزال مقصورة على البدو ، على الرغم من

ان اللغة المشتركة بين سكان البلاد من حضر وبدو كانت تسمى « العربية ». وبعد الفتوح الاسلامية ، وخلال فترة الدولة العربية ، كانت تميز طبقة الفاتحين ذوي النسب العربي الحاكمة الناطقة بالعربية من مجموع الشعوب المقهورة . ولما تحولت الدولة العربية الى دولة اسلامية متشابكة الاجناس ، أصبحت تعني - في الاستعمال الخارجي دون الداخلي على الاصح - ثقافة تلك الدولة المتنوعة التي انتجها رجال من عناصر وأديان كثيرة لكن باللغة العربية ، وخضعت للذوق والتقاليد العربية ومع تمازج العرب الفاتحين والشعوب المقهورة المستعربة ، وخضوعهم جميعاً لعناصر حاكمة أخرى ، جعلت تفقد بالتدريج مفهومها القومي ، وصارت مصطلحاً اجتماعياً يطلق فقط على البدو الذين حافظوا بأمانة اكثر من غيرهم على الأسلوب العربي الأصلي في الحياة واللغة . وكان سكان المدن المتحضرة الناطقون بالعربية يعتبرون عادة مسلمين فقط ، وأحياناً « أبناء عرب » أو « اولاد عرب » تمييزاً لهم من المسلمين الناطقين بلغات أخرى . وبينما بقيت جميع هذه الاستعمالات المختلفة الى يومنا هذا دارجة في قرائن مختلفة ، ولد استعمال جديد تحت تأثير الغرب ، واصبح في السنوات الخمسين الأخيرة يتزايد اهمية ، وهو الاستعمال الذي يعتبر الشعوب الناطقة بالعربية امة او مجموعة من الأمم الشقيقة بالمفهوم الأوروبي ، توحيدها بلاد مشتركة ولغة مشتركة وثقافة مشتركة وتشوّف مشترك الى الاستقلال السياسي .

ومن الأيسر أن ندقق في انتشار العروبة من حيث الرقعة في يومنا هذا . فالبلاد الناطقة بالعربية تقع في مجموعات ثلاث : آسيا

الجنوبية الغربية ومصر وشمال افريقية . وأكبر بلد عربي في
المجموعة الأولى هو جزيرة العرب نفسها . وتمثل المملكة السعودية
العربية واليمن الجزء الأكبر منها . ونظام الحكم القائم فيها هو
النظام المشيخي في الاغلب . وما يزال اقتصاد المملكة العربية
السعودية قائماً ، في الدرجة الأولى ، على الرعي والترحل . وجنوب
بلاد العرب وجنوبها الشرقي واقعان تحت درجات مختلفة من الحكم
البريطاني . والى الشمال تقع بلاد الهلال الخصيب التي كانت حتى
عام ١٩١٨ م من ولايات الدولة العثمانية . وتقوم الآن فيها دول
العراق وسورية ولبنان وشرقي الاردن وفلسطين . وفي هذه البلاد
كان سير التعرّب أبعد ما يكون مدى . وكان التعلّق بالشخصية
العربية أقوى ما يكون . وتقع مصر في اصق آسيا العربية في
الزاوية الشمالية الشرقية من افريقية ، وهي أغنى الدول الناطقة
بالعربية وأرقاها ، وأكثرها تجانساً ، وأعرقها في القومية السياسية
كما أنها ذات كيان مستقل في الازمنة الحديثة . ولا تزال أقطار
شمال افريقية الاربعة ، وهي ليبيا وتونس والجزائر ومراكش ،
تحت الحكم الاوروبي . والثلاث الاخيرة منها تحت صور
مختلفة من السيادة الفرنسية . والسكان في معظمها خليط :
قسم عربي وقسم بربري تتخللها جماعات أوروبية ذات شأن
في تونس ، وفي الجزائر بنوع خاص . وقد تأثرت هذه البلاد
اكثر ما تأثرت بالتغلغل الاوروبي الاقتصادي والثقافي
والسياسي . وتأثرت اقل التأثير بالنهضة العربية . وفي السنوات
الاخيرة اخذت الحكومات القومية في شمال افريقية تتزايد نشاطاً

وقوة . وبيدنا لا تزال اهدافها محلية في الدرجة الاولى ، الا ان امتداد النفوذ العربي الثقافي من الشرق الادنى ، وفي تونس خاصة ، ينتج الآن شعوراً اقوى بالقرابة مع العرب المشرقيين . والى جانب هذه الاقطار تعيش جماعات عربية في الولايات البريطانية والفرنسية في افريقية الاستوائية بين اغلبية من الزنوج . وتعيش اقلية عربية صغيرة في تركيا وبلاد الفرس . ويقدر مجموع الشعوب الناطقة بالعربية في آسيا وافريقية تقديراً متبايناً بين اربعين وخمسين مليوناً ، يعيش منهم اكثر من ستة عشر مليوناً في مصر ، واكثر من اثني عشر مليوناً في اقاليم افريقية الشمالية . وبين هذه الاقطار جميعها شيء كثير مشترك . فجميعها تتأخم الصحراء والمترزع ، وواجهت منذ اقدم الازمنة الى اليوم المشكلة القائمة أبداً من عدوان البدو المستمر عليها .

ومصر والعراق اللذان هما من أعظم هذه البلاد اهمية ، عبارة عن اودية تسقيها الانهار العظيمة ، وطرق عالمية للتجارة ، ومقر حكومات مركزية منذ اقدم العصور . وتكاد هذه البلاد جميعها تكون بلاد ريف لها نظم اجتماعية وطبقات حاكمة متشابهة في اساسها ، على الرغم من ان تغير الاوضاع الخارجية بل والحقائق الاجتماعية ، عندما تتعرض كل منها على حدة للتأثير الاوروي ، يتم في اوقات مختلفة ، وأساليب متباينة ، وأقدار متفاوتة . وقد دخلت هذه البلاد كلها - ما عدا بلاد العرب نفسها - بفضل الفتوح العظيمة في حظيرة العرب والاسلام . وورثت جميعها (١) يبلغ عدد سكان مصر اليوم نحواً من عشرين مليوناً . [المربران]

التراث العظيم نفسه في اللغة والدين والحضارة . غير ان اللغة تتميز
بفروق محلية كبيرة ، وكذلك الأمر في الدين (١) واللغة والتقاليد
الاجتماعية . وبامتزاج العرب بالحضارات المحلية المختلفة ، وبعدهم
عن بلادهم وانفصالهم مدة طويلة عنها ، ظهرت صبغات محلية قوية
من التقاليد المشتركة يصحبها احياناً ، كما هي الحال في مصر ،
شعور محلي بالشخصية القومية قديم قدم الزمن . والى جانب
الشعوب المغلوبة ، هنا وهناك ، جماعات رفضت لغة الفاتحين او
دينهم او كليهما ، وظلت بين العرب : كالأكراد في العراق ،
والبربر في شمال افريقية ، والموارنة في لبنان ، والاقباط في
مصر . وظهرت في الاسلام نفسه فرق جديدة نشأت في بعض
الاحيان بتأثير الاديان السابقة ، وأعقب الشيعية واليزيديين في
العراق ، والدروز في سورية ولبنان ، والزيديين والاسماعيلية في
اليمن . وقد جلب العصر الحديث ، بتعريضه البلاد العربية
لتطورات متباينة ، عوامل جديدة في تمزيق الوحدة تعود الى
وجود مستويات اجتماعية متباينة والى مصالح إقليمية وسلامية
كذلك . لكن التطورات الحديثة تقوي ايضاً من عوامل الوحدة
كالنمو السريع في المواصلات الحديثة التي تقرب بين أجزاء العالم
العربي المختلفة ، وتيسر احتكاك بعضها ببعض اكثر من ذي قبل ،
وكانتشار التعليم والقراءة الذي يوفر مجالاً أوسع لمقدرة اللغة
المشتركة والذكريات المشتركة على ان تكون قوة توحد بين هذه
الشعوب . وأوضح من هذا كله تماسك هذه البلاد الجديد في مقاومة

(١) هكذا في الأصل (المعربان) .

الغرب الزاحف عليها ، وفي معالجة المشاكل التي يفرضها .
تبقى مسألة أخيرة ينبغي ان نبحثها في هذه الملاحظات التمهيدية .
فالكاتب الاوروبي عن التاريخ الاسلامي يجهد نفسه في ظل عجز
خاص : فهو حين يكتب بلغة غربية يستعمل بالضرورة المصطلحات
الغربية . وهذه المصطلحات الغربية قائمة على كليات غريبة من
الفكر والتحليل مشتقة في الدرجة الاولى من التاريخ الغربي .
وتطبيقها على احوال مجتمع آخر ، كونه مؤثرات مبيّنة ، ويتبع
اساليب حياتية مبيّنة ، ليس في أحسن صورهِ إلا من قبيل القياس
والمقابلة ، وربما كان مدعاة الى الالتباس الحَظير . ولناخذُ مثلاً
على ذلك الأزواج التالية من الكلمات : كالكنيسة والدولة ،
والروحي والزمني ، والكهنوتي والعلماني . مثل هذه الكلمات لا
معادل حقيقياً لها في اللغة العربية ، بل هي مصطلحات استحدثت
لترجمة الافكار الحديثة . ذلك أن التقسيم الثنائي الذي تعبر عنه لم
يكن معروفاً في المجتمع الاسلامي في العصور الوسطى ، ولم يفصح
عنه العقل الاسلامي في تلك العصور . فالجماعة الاسلامية كانت
كنيسة ودولة في آن واحد ، وكانت كلتاهما متشابكة تشابكاً لا
يمكن معه تمييزهما ، وكان رئيس الجماعة الاعلى ، وهو الخليفة ،
رئيساً دنيوياً ودينياً في الوقت عينه . واصطلاح « الاقطاع » في
معناه الدقيق يشير الى ذلك الطراز من المجتمع الذي وجد في
غرب اوروبا بين انهيار الامبراطورية الرومانية وبداية النظام
الحديث . فاستعماله في مناطق أخرى وفترات اخرى ، ما لم يحدد
بعناية في قرائنه الجديدة ، لا بد وأن يخلق فكرة ان المجتمع الذي

ينعت به مطابق تمام المطابقة ، أو على مشابه ، للمجتمع الاقطاعي في غرب أوروبا . ولكن ليس ثمة مجتمعان مماثلان بالضبط . وعلى الرغم من ان النظام الاجتماعي في الاسلام قد يظهر فيه ، في فترات معينة ، عدد من وجوه الشبه الهامة بينه وبين اقطاع غرب أوروبا ، الا ان هذا لا يبور مجال ، المطابقة التامة التي تُفهم ضمناً من استعمال هذا الاصطلاح دون تحديد . فأمثال هذه الكلمات : « الدين » « والدولة » « والسيادة » « والديمقراطية » تدل على اشياء مخالفة تماماً في القرينة الاسلامية ، بل وتختلف في المعنى من مكان الى آخر في أوروبا نفسها . الا ان استعمال هذه الكلمات لا مفر منه عند الكتابة بالانجليزية ، بل وعند الكتابة باللغات الحديثة في الشرق ، التي تأثرت قرابة قرن بأساليب الغرب في التفكير والتصنيف . وفي الصفحات التالية يجب ان تُفهم هذه الاصطلاحات في جميع الاحوال بالمفهوم الاسلامي ، وينبغي ألا تؤخذ على انها توجب درجة عظمى من الشبه مع نظيراتها من النظم الغربية اكثر مما هو مقرر لها في حقيقتها .

الفصل الاول

بلاد العرب قبل الاسلام

«وحي من جهة برية البحر . كزوابع في الجنوب
عاصفة يأتي من البرية من أرض مخوفة»
(أشعيا ٢١ - ١)

تكوّن شبه جزيرة العرب مستطيلاً واسعاً تبلغ مساحته ما يقرب من مليون وربع مليون من الاميال المربعة . ويحدها من الشمال سلسلة من البلاد تعرف في التاريخ بامم الهلال الحُصيب - في ما بين النهرين وسورية وفلسطين - وتحومها الصحراوية . ويحدها من الشرق والجنوب الخليج الفارسي والمحيط الهندي ، ومن الغرب البحر الاحمر ، والاجزاء الجنوبية الغربية ، وهي اليمن ، وتتألف من أرض جبلية تسقيها المياه ، الامر الذي يسر لها منذ زمن قديم أن تقوم فيها الزراعة ، وأن تنمو وتزدهر فيها حضارات مستقرة راقية نسبياً . وتتألف بقية البلاد من نجد وصحارى جافة مجذبة إلا حيث يتفق أن توجد فيها واحة ، أو حيث تقطعها بعض القوافل والطرق التجارية . وقد كان السكان

رعاة ورحلاً في الدرجة الاولى ، يعيشون على قطعانهم وعلى غزو
شعوب الواحات والاقاليم المجاورة المفلوحة. وصحارى بلاد العرب
على انواع مختلفة : أهمها ، على تصنيف العرب ، هي النفود ، وهي
من رملات ضخمة متقلة تشكل رقعة يتغير شكل وجهها
باستمرار . وأما الحماد ، فهي أرض اكثر صلابة نوعاً ما في المناطق
القريبة من الشام والعراق. وأما النجود ، فتكون التربة فيها ، على
الاغلب ، اكثر تماسكاً ، وييسر سقوط المطر غير المنتظم فيها ظهور
نباتات تنبت فجأة ، وتموت سريعاً . وهناك أخيراً الصحراء الجنوبية
الشرقية الواسعة التي لا يمكن اختراقها . والمواصلات بين هذه
المناطق محدودة وصعبة ، وتسلك في الغالب الأودية ، ولهذا نجد
الاتصال بين سكان مختلف أنحاء بلاد العرب قليلاً جداً .

وقد جرى العرب على تقسيم وسط شبه الجزيرة وشمالها الى
ثلاث مناطق : اولها تهامة ، وهي كلمة سامية تعني الارض
المنخفضة ، وتطلق على السهول المتموجة الواقعة على البحر الاحمر
وعلى المرتفعات المشرفة عليه . والى الشرق منها تقوم المنطقة
الثانية ، وهي الحجاز ، ومعناها الحاجز ، وقد أطلق هذا الاسم
فقط في الاصل على السلسلة الجبلية التي تفصل السهل الساحلي عن
هضبة نجد ، ولكنه فيما بعد اتسع بحيث اصبحت يشمل قسماً كبيراً
من السهل الساحلي نفسه . وتقع الى شرق الحجاز هضبة نجد
الداخلية العظيمة ، ويتألف معظمها من صحراء النفود .

كانت بلاد العرب منذ أزمنة سحيقة تؤلف منطقة مرور بين
بلاد البحر الابيض المتوسط والشرق الاقصى . وكان تاريخها ،

الى حد كبير ، رهناً بتقلب الأحوال على التجارة بين الشرق والغرب . وقد كانت المواصلات في داخل بلاد العرب وعبر بلاد العرب خاضعة لتقسيمات شبه الجزيرة العربية إلى خطوط واضحة المعالم . وأولى هذه هي طريق الحجاز ، وتسير من مواليء البحر الاحمر ومراكز التخوم في فلسطين وشرق الاردن الى الجانب الداخلي من سلسلة جبال البحر الاحمر الساحلية ، ومن ثم الى اليمن . وكانت هذه الطريق ، في اوقات مختلفة ، طريق القوافل بين إمبراطورية الاسكندر وخلفائه في الشرق الأدنى ، وبلاد آسيا القصوى . وصارت ايضاً طريق سكة حديد الحجاز . وهناك طريق أخرى تنفذ من وادي الدواسر الذي يجري بين أقصى بلاد اليمن الشمالية الشرقية ووسط بلاد العرب حيث تتصل بطريق أخرى هي وادي الرمة ، الى جنوب ما بين النهرين . وكان هذا هو واسطة الاتصال الرئيسية في الازمنة القديمة بين اليمن وحضارة آشور وبابل . وأخيراً يصل وادي السرحان ووسط بلاد العرب بجنوب الشام الشرقي عبر واحات الجوف .

والى أن نستطيع التنقيب عن التاريخ في بلاد العرب كما نقبنا في مصر وفلسطين وما بين النهرين ، ستبقى القرون الاولى من تاريخ بلاد العرب غامضة . ولا بد للباحث من ان يتلمس طريقه في ذلك الميدان بين ركام الفروض التي بنيت نصف بناء ، او نقضت نصف نقض ، والتي لا يستطيع المؤرخ ، بما عنده من معرفة ضئيلة بالحقائق ، أن يكملها او أن يدكها ويسويها بالأرض . ولعل أشهر هذه الفروض نظرية ونكلر كايثاني . وسميت بهذا الاسم

نسبة الى اكبر مؤيديها . وبناء على هذه النظرية كانت بلاد العرب
في الاصل بلادَ خِصبٍ عظيم ، وكانت الموطنَ الأول للشعوب
السامية . ومع مرآلاف السنين جعل يصيبها جفاف مستمر في
الثروة ومجاري المياه ، وامتداد الصحراء على حساب الارض
المنزرعة . وقد ادى انخفاض انتاج الجزيرة ، وزيادة عدد
السكان ، الى سلسلة من ازمات الازدحام ، فنتج عن هذا قيام
دورات متكررة من غارة شعوب شبه الجزيرة السامية على البلاد
المجاورة . وهذه الازمات هي التي حملت « السوريين » والآراميين
والكنعانيين (بما فيهم الفينيقيون والebraيون) ، وأخيراً العرب
انفسهم ، الى الهلال الخصب . فعرب التاريخ هم إذاً المتخلفون في
الجزيرة بعد هذه الغزوات التاريخية العظيمة . وعلى الرغم من أن
الجزيرة لم تُمسح مسحاً جيولوجياً تاماً بعد ، فقد برزت الى النور
بعض الشواهد التي تؤيد هذه النظرية في شكل مجاري المياه جافة ،
ودلائل أخرى على خِصبٍ ماض . ولكن ليس ثمة دليل على ان
عملية الجفاف هذه حدثت بعد بدء الحياة الانسانية في شبه الجزيرة ،
بل ولا أنها حدثت بسرعة من شأنها ان تؤثر مباشرة في سير
الامور الانسانية . وهناك أيضاً من البيئة اللغوية ما يؤيد النظرية
نفسها ، وهذه البيئة هي ان اللغة العربية رغم كونها احدث اللغات
السامية ظهوراً كأداة ادبية ثقافية ، الا انها مع ذلك اقدمها من
نواح عدة من حيث تركيبها الصرفي والنحوي ، ولذلك فهي اقربها
الى اللسان السامي الاصيل . وهناك فرض آخر ادلى به العالم
الايطالي إجناتسيو جويدي الذي يؤثر ان يكون جنوب ما بين

سومري

برهان

النهرين الموطن الأصلي للساميين. ويشير الى انه بينما نجد في اللغات السامية كلمات مشتركة عن البحر والنهر، لا نجد فيها كلمات مشتركة للجبل والتل. وقد قال علماء آخرون بافريقية وأرمينية.

والاخبار المتناقضة بين العرب تقسم الشعب العربي الى فرعين رئيسيين: الشمالي والجنوبي. وهذا التمييز يجد صدى له في الإصحاح العاشر من سفر التكوين حيث يرد ذكر قرعين متميزين يتصل نسبهما بسام، وهما شعوب جنوب غربي بلاد العرب، وشعوب وسطها وشمالها. والاخيرة منها اقرب الى العبرانيين. والقيمة الجغرافية البشرية لهذا التمييز غير معروفة بالكلية، وربما بقيت كذلك. وهي تبدو في التاريخ اول ما تبدو في مصطلحات لغوية وثقافية. فاللغة العربية الجنوبية تختلف عن اللغة العربية الشمالية التي تطورت آخر الأمر الى اللغة العربية الفصحى. فهي تكتب بأبجدية مباينة نعرفها من النقوش ولها صلة بالحبشية التي أنتجها في واقع الامر في الحبشة مستعمرون من جنوب بلاد العرب، أقاموا أول مراكز الحضارة الاثيوبية. وفرق ثان مهم وهو أن عرب الجنوب كانوا شعباً مستقراً.

وسير الحوادث الاولى القديمة في التاريخ العربي الجنوبي لا يزال غامضاً. ومن اقدم الممالك التي تذكر في السجلات سبأ، وربما كانت هي عينها سبأ المذكورة في الكتاب المقدس، والتي اقامت ملكتها علاقات مع الملك سليمان. وربما كانت سبأ قائمة منذ القرن العاشر قبل الميلاد. وهناك إشارات عارضة اليها في القرن الثامن، وشواهد صريحة على اكتمال نموها في القرن السادس

قبل الميلاد . فحوالى عام ٧٥٠ قبل الميلاد بنى أحد ملوك سبأ
سدّ مارب الشهير ، الذي نظّم ، مدة طويلة ، حياة المملكة
الزراعية . وكانت الصلات التجارية قائمة مع السواحل الافريقية
المقابلة ، وربما مع بلاد أبعد من ذلك . ويظهر ان السبأيين
نشروا استعمارهم فوق رقعة كبيرة من افريقية . وأقاموا مملكة
الحبشة التي أخذ اسمها من حبشت ، وهم شعب عربي من جنوب
عربي الجزيرة .

ومنذ ان وصلت فتوح الاسكندر عالم البحر المتوسط
بالشرق الاقصى تجدد أخباراً متزايدة في المصادر اليونانية تشهد
باهتمام متزايد ببلاد العرب الجنوبية . فقد أرسل بطلمة مصر سفناً
في البحر الاحمر ترداد سواحل بلاد العرب ، وطرق التجارة الى
الهند . وقد التزم خلفاؤهم في الشرق الادنى هذا الاهتمام . وعند
نهاية القرن الخامس للميلاد كانت مملكة سبأ ، قد أوغلت
في الاضمحلال .

وتشير المصادر الاسلامية والنصرانية الى انها وقعت تحت
سلطان الحميريين ، وهم شعب عربي جنوبي آخر . وقد اعتنق آخر
ملوك الحميريين (ذو نواس) اليهودية . ورداً على اضطهاد البيزنطيين
لليهود اتخذ اجراءات تأديبية ضد النصارى المقيمين في جنوب بلاد
العرب . وقد أدى هذا بدوره الى مضاعفات في بيزنطة والحبشة
التي كانت قد أصبحت نصرانية . وهياً هذا الاضطهاد أيضاً للحبشة
الحاقز والفرصة معاً للانتقام للنصارى المضطهدين وللإستيلاء على
مفتاح التجارة الهندية . وقد قضت الغزوة الحبشية الناجحة ،

يؤيدها النصارى المحليون ، على المملكة السبئية . ولم يدم الحكم
الجبشي في اليمن طويلاً . ففي عام ٥٧٥ غزت حملة من فارس
البلاد ، وأنزلتها إلى ولاية فارسية دون صعوبة كبيرة . وقد
كان الحكم الفارسي أيضاً عابراً . إذ كانت آثاره قد عفت إلا
قليلاً عند الفتح الاسلامي .

كان أساس المجتمع في جنوب بلاد العرب الزراعة . وتعكس
النقوش ، بما فيها من إشارات متكررة الى السدود والقنوات ،
ومشاكل الحدود ، وملكية الأراضي ، درجةً من التقدم عالية .
وكان عرب الجنوب ينتجون الى جانب الحبوب « المر » والبخور
وغيرهما من الأفاويه ونباتات الطيب . وكانت هذه الاخيرة أهم
صادراتهم . وكثيراً ما كان يُظن أن التوابل التي كان يستوردها
التجار العرب من الخارج ويتاجرون بها هي توابل عربية أصيلة .
ولذلك أكسبت هذه التجارة ذلك الجزء من البلاد شهرته
الاسطورية بأنه بلد ثروة وخيرات . فسميت في العالم القديم بلاد
العرب السعيدة . ويتردد ذكر توابل بلاد العرب كثيراً في أدب
العرب - من الكنوز العربية عند هوراس ، الى عطور بلاد
العرب عند شكسبير ، والسواحل المليئة بالتوابل من بلاد العرب
السعيدة عند ملستن .

وكان النظام السياسي لبلاد العرب الجنوبية ملكياً ،
ويبدو أنه أقيم على أساس قومي من تعاقب الابناء بعد الآباء
✓ تعاقباً منتظماً . ولم تكن للملوك صفة إلهية كما كان
لهم في غيرها من بلاد الشرق . وقد كان يحسد من سلطانهم ، في

بعض الفترات على الأقل ، مجالس الاعيان . وصار يحد منه في تاريخ متأخر نوع من الاقطاع يحكم فيه سادة محليون ، من قلاعهم ، أتباعهم وفلاحهم . وكان دين بلاد العرب الجنوبية متعدد الالهة . وهو في حملته ، وإن لم يكن في تفصيله ، شبيه بأديان الشعوب السامية الاخرى . وكانت المعابد مراكز هامة للحياة العامة ، ولها ثروات عظيمة يشرف على إدارتها الكاهن الاعلى . وكانت محاصيل التوابل نفسها تعتبر مقدسة . فكان ثلثها يحفظ للالهة ، أي للكهنة . ورغم أن الكتابة كانت معروفة ، وأن نقوشاً كثيرة وصلت الينا فليس هناك للكتب أو الادب من أثر .

وعندما نتحول من بلاد العرب الجنوبية إلى الوسطى والشمالية نجد وضعاً يختلف عن الوضع السابق تمام الاختلاف ، قائماً على معلومات أقل بكثير من المعلومات التي وصلتنا من الجنوب . فقد سبق أن رأينا أن المصادر الآشورية والكتاب المقدس والمصادر الفارسية تشير إشارات عارضة إلى الشعوب البدوية في الوسط والشمال . ويظهر أن العرب الجنوبيين أيضاً قد نشروا استعمارهم إلى حد محدود في الشمال ، وربما كان ذلك بقصد التجارة . واول ما لدينا من أخبار مفصلة يرجع تاريخها إلى الفترة الكلاسيكية ، عندما أنتج تغلغل المؤثرات الهلينستية من سورية ، واستغلال طريق التجارة العربية الغربية استغلالاً دورياً ، سلسلة من دول التخوم شبه المتحضرة في مستنقعات بادية الشام وبادية العرب الشمالية .

وهذه الدول ، على الرغم من أنها عربية في أصلها ، كانت واقعة بشكل قوي تحت تأثير الثقافة الآرامية المتأثرة بالهلينستية .

وكانت تصطنع بصفة عامة ، اللغة الآرامية في نقوشها . وتتكشف لنا شخصيتهم العربية عن طريق أسماء اعلامهم فقط . وكانت اول دولهم ، ولعلها أعظمها ، دولة الانباط التي حكمت ، في طور اوجها ، رقعة تمتد من خليج العقبة الى البحر الميت شمالاً وتشمل كثيراً من شمال الحجاز . وأول ملك نعرفه من النقوش هو أريetas (الحارث) وذلك في عام ١٦٩ ق . م . وكانت قصبتهما البتراء الواقعة في المملكة الاردنية حالياً . وقد قامت مملكة الانباط بصلاتها الاولى مع روما في عام ٦٥ قبل الميلاد عندما زار بومبي البتراء . وقد اقام الرومان علاقات ودية مع المملكة العربية التي كانت بمثابة دولة حاجزة بين بلاد الشرق الروماني المستقرة وبين الصحراء التي لا يمكن اخضاعها . وفي عام ٢٥ - ٢٤ ق . م . اتخذت دولة الانباط قاعدة لحملة إيلوس جالوس . وهذه الحملة التي أرسلها اوغسطس لغزو اليمن كانت المحاولة الرومانية الاولى والوحيدة للتغلغل في بلاد العرب . وكان الحافز اليها السيطرة على المنفذ الجنوبي لطريق التجارة الى الهند . وقد اجر ايلوس جالوس من ميناء نبطي على البحر الاحمر ، ونجح في النزول الى اليمن والتغلغل بعيداً في الداخل ؛ ولكن الحملة باءت بفشل ذريع ، وانتهت بانسحاب روماني مخزٍ .

وفي اثناء القرن الاول ب . م . ساءت العلاقات الرومانية النبطية . وفي عام ١٠٥ ق . م . جعل تراجان شمال بلاد الانباط ولاية عرفت بفلسطين الثالثة . ويمكن ان نشير اسارة عابرة الى ان عرب ولايات التخوم الرومانية قدموا للامبراطورية الرومانية

امبراطوراً واحداً على الاقل هو فيليب الذي حكم من ٢٤٤ -
 ٢٤٩ ب.م. وقد شهدت الفترة التي تلت موته مباشرة ظهور ثاني
 دول التخوم العربية ذات الصبغة الآرامية في جنوب شرقي سورية.
 وهذه هي دولة تدمر ، التي أُقيمت في بادية الشام لتكون كذلك
 نقطة البداية في طريق التجارة الغربية . وكان أول حكامها
 اوديناثوس (أذينة) الذي كافأه الامبراطور جالينوس
 عام ٢٦٥ ب.م. بأن اعترف به ملكاً لقاء ما قدمه من مساعدات
 في الحرب الرومانية الفارسية . وبعد موته خلفته امرأته زونيبا
 المشهورة ، وفي العربية زينب ، التي ادعت لنفسها مدة طويلة ملكة
 القسم الاعظم من الشرق الادنى . ونادت بابنها المعروف في المصادر
 الكلاسيكية باثينودوروس ، ولعلها ترجمة يونانية للاسم العربي «وهاب
 اللات) ، قيصرأ أوغسطساً (أي قيصرأ عظيماً) . واخيراً استشير
 الامبراطور أوريليان للعمل فاحتل تدمر في سنة ٢٧٣ ب.م. وأخضع
 المملكة ، وأرسل زونيبا الى روما في سلاسل من الذهب لتمثل في
 موكب نصر روماني . وهاتان الدولتان ، رغم بريق مجدهما القصير في
 احداث التاريخ الروماني ، كانتا امرين عارضين ، تنقصهما متانة
 الاساس والتاسك اللذان عرفا في الممالك العربية الجنوبية . وقامت
 في الدرجة الاولى على شعوب بدوية متنقلة أو شبه بدوية . وقد
 استمدتا أهميتهما من موقعهما على طرق التجارة التي تمتد من روما
 عبر بلاد العرب الغربية الى الشرق الاقصى ، ومن عملهما كولايتين
 حاجزتين ، أو إمارتي حدود تؤديان الجزية وتخلصان الرومان من
 المهمة الصعبة الباهظة ، وهي إقامة مراكز دفاع عسكرية على

حدود الصحراء .

وأقل من هذا ما يعرف عن دولتين عربيتين ازدهرتا في الداخل في الحقبة الهلينستية ، وهما دولتا لحيان وثمود . وكتاتهما تُعرف في الدرجة الاولى من نقوش بلغتهما ، ومن إشارات قليلة في القرآن الى الثانية منهما . ويظهر انهما كانتا مدة من الزمن في قبضة الانباط ، ثم استقلتا فيما بعد .

ويبدو ان طرق التجارة قد تحولت في وقت ما في القرن الرابع من بلاد العرب الغربية الى سبل اخرى خلال مصر والبحر الاحمر وخلال وادي الفرات والخليج الفارسي . وكانت الفترة بين القرنين الرابع والسادس فترة انحطاط وتأخر . ففي الجنوب العربي ، كما رأينا ، انحلت حضارات اليمن ووقعت تحت الحكم الاجنبي . وتعزو اخبار العرب القومية الماثورة 'فقدان الازدهار وهجرات قبائل الجنوب الى الشمال الى حادثة وحيدة بارزة ، هي انهيار سد مأرب وما عقبه من خراب . اما في الشمال فقد وقعت دول التخوم ، التي ازدهرت فيما مضى ، تحت الحكم الامبراطوري المباشر ، او ارتدت الى الفوضى البدوية . وفي القسم الاعظم من شبه الجزيرة تضاءلت او اختفت المدن التي كانت موجودة ، وانتشرت البداوة في كل مكان على حساب التجارة والزراعة .

والصفة الظاهرة في سكان وسط بلاد العرب وشمالها في هذه الفترة الحرجة التي سبقت ظهور الاسلام مباشرة هي القبلية البدوية . فالوحدة الاجتماعية في المجتمع البدوي هي الجماعة لا الفرد . وكانت للفرد حقوق وعليه واجبات من حيث هو عضو في جماعة

فحسب . وكان يحفظ على القبيلة او الجماعة تماسكها ضرورة الدفاع عن النفس ضد مصاعب الحياة الصحراوية وأخطارها ، وتربط بين افرادها صلة الدم والنسب من الذكور، التي هي الرابطة الاجتماعية الاساسية . وكان معاش القبيلة يعتمد على ماشيتها وإبلها ، وعلى الاغارة على البلاد المستقرة المجاورة وعلى مهاجمة القوافل التي كانت تجرؤ على اجتياز بلاد العرب . وكانت بضائع البلاد المستقرة تنسرب الى قبائل اندخل عن طريق القبائل القريبة من الحدود نتيجة لسلسلة من الغزوات المتبادلة . ولم تكن القبيلة عادة تقرر ملكية خاصة للأرض ولكنها تمارس حقوقاً جماعية في المراعي والمياه الخ . وهناك شواهد على ان المواشي كانت احياناً ملكاً جماعياً للقبيلة . وكانت الممتلكات المنقولة وحدها موضوعاً للملكية الشخصية .

وكان تنظيم القبيلة السياسي فطرياً . فكان رئيسها هو السيد او الشيخ ، وهو رئيس منتخب قلما كان اكثر من أول بين اكفاء . وكان يتبع رأي القبيلة اكثر مما كان يوجهه . ولم يكن في مقدوره أن يفرض واجباً او يُنزل عقوبة . فالحقوق والالتزامات كانت تربط الانسان الى الأسر المنفردة داخل القبيلة ، ولكن لا إلى احدٍ خارجها . وكان عمل حكومة الشيخ التحكيم لا الامر . فلم يكن في يده سلطات اجبارية . ولم تكن مفاهيم السلطان والمملك والعقوبات العامة الخ مفهومة في المجتمع العربي البدوي . وكان شيخ القبيلة ينتخب من بين افراد عائلة واحدة كأنما هي بيت مشيخة ، وتعرف بأهل البيت . وكان يُسدي له المشورة

نخبة من الشيوخ تعرف بالمجلس ، ويتكون من رؤوس الاسر
ومثلي عشائر القبيلة . وكان المجلس اللسان الناطق بالرأي العام .
ويظهر أنه كان هناك تمييز بين العشائر التي كانت تعتبر أكرم
البيوتات ، وبين باقي العشائر .

وكانت حياة القبيلة خاضعة في تنظيمها للسنة ، أي سنة السلف ،
التي كان سلطانها يستند الى احترام الناس عامة للعرف . وكان
ضمانها الوحيد هو الرأي العام . وكان المجلس القبلي رمزها المنظور
وأدائها الوحيدة . وكان الضابط الاجتماعي الرئيسي للفوضى السائدة عادة
هو الثأر للدم الذي يفرض على اقرباء القتيل واجب الاخذ بثأره
من القاتل او من أحد افراد قبيلته .

وكان دين البدو نوعاً من عبادة الارواح المتعددة ، ويتصل
بوثنية الشعوب السامية القديمة . ويرجع أصل الكائنات التي كانوا
يعبدونها الى سكان الاماكن المنعزلة واوليائها الذين كانوا يعيشون
في الاشجار والينابيع وفي الحجارة المقدسة خاصة . وكان هناك
بعض الآلهة بالمعنى الصحيح ممن يتجاوزون في سلطانهم حدود
العبادات القبلية الخالصة . وكان أعظم ثلاثة فيهم مناة والعزى
واللات . وقد ذكر هيرودتس هذا الاخير منها . وكانت
هذه الآلهة الثلاثة بدورها خاضعة لآله أعلى يسمى عادة الله . ولم
يكن لدين القبائل كهنوت حقيقي . وكانت القبائل الرحل تحمل
آهتها معها في جبة حمراء كأنها نوع من « ثابوت العهد » الى القتال .
ولم يكن دينهم شخصياً بل جماعياً . فعقيدة القبيلة كانت تتركز
حول إله القبيلة ، ويرمز اليه عادة بحجر ، واحياناً باشياء اخرى .

وكانت تحميه اسرة المشيخة التي كانت بذلك تكتسب نوعاً من الامتياز الديني . وكان الاله والعبادة قوام الشخصية القبلية العقائدي والتعبير الوحيد لمفهوم وحدة القبيلة وتماسكها . وكان التمسك بعبادة القبيلة دليلاً على الولاء السياسي ؛ اما الارتداد عنها فكان بمثابة الخيانة .

ولم يكن يشذ عن هذا النوع البدوي من الحياة الا الواحة حيث كانت جماعات صغيرة مستقرة تشكل تنظيمًا سياسياً فطرياً ، وحيث كانت الاسرة البارزة تسيطر على السكان ، وتقيم بالتالي نوعاً من الملكية الصغيرة . وكان حاكم الواحة احياناً يدعي حداثاً مهماً من السيادة على القبائل المجاورة ، وربما كانت الواحة ايضاً تنال السيطرة على واحدة مجاورة فتقيم دولة صحراوية قصيرة الاجل . ولا حاجة بنا الى ذكر أي مثال على هذا النوع غير كندة ، وذلك لأن نشأتها وتوسعها كانا من عدة وجوه كأنها ارهاص بتوسع الاسلام فيما بعد . وقد ازدهرت دولة كندة في أواخر القرن الخامس واوائل القرن السادس وذلك في شمال بلاد العرب . وعلى الرغم من انها كانت قوية في البداية ، بل إنها امتدت الى اراضي الدويلات المتاخمة لها ، فقد انهارت حاجتها الى قوة خلقية والى تماسك داخلي ، وبسبب فشلها في اختراق الحواجز التي شيدتها امبراطوريتا البيزنطيين والفرس ، اللتان كانتا اذ ذلك اقوى نسبياً مما كانتا عليه بعد بضعة عقود من السنين حينما واجهتا انقراض الاسلام عليهما . وتوكت كندة أثراً قوياً خلد في الشعر العربي .

فقد كان لقبائل جزيرة العرب منذ القرن السادس لغة شعرية
مشتركة متفق على فصاحتها وصيغة شعرية مستقلتان عن باقي اللهجات
وتجمعان القبائل العربية على سنة واحدة وثقافة واحدة تنقل بالتلقين
من جيل الى جيل . وهذه اللغة المشتركة والادب المشترك يدينان
بكثير مما فيها من قوة دافعة وتطور الى ماثر كندة واخبارها التي
كانت أول عمل خطير مشترك قامت به قبائل وسط الجزيرة
وشمالها . وبلغت هذه اللغة في القرن السادس أوج اكتمال
فصاحتها الماثورة .

وقد أسس البدو الذين تحضروا في اماكن متفرقة قرى يغلب
أن تكون أكثر تقدماً في مجتمعاتها . وأهم هذه القرى مكة في
الحجاز . وكانت كل عشيرة في القرية ما يزال لها مجلسها وحجرها
المقدس (نصب) . ولكن اتحاد هذه العشائر ، الذي كانت
تتكون منه القرية ، كان يتجلى في مظهره الحارجي في مجموعة من
الاصنام موضوعة في معبد مركزي واحد مع رمز مشترك . وكان
البناء المكعب الذي يعرف بالكعبة رمزاً من هذا النوع على
الوحدة في مكة . وحل محل المجلس القبلي البسيط في مكة
مجلس يعرف باسم الملاء ينتقى اعضاؤه من مجالس العشائر ، وقد
أضعف من سلطة الشيخ المحدودة القائمة على التواضي ، وحل محلها
الى حد كبير ، نوع من استبداد الأسر الحاكمة .

وعلى الرغم من رجعية هذا الدور كانت جزيرة العرب لا تزال
غير معزولة تماماً عن العالم المتحضر . ولكنها كانت على الاصح تقع
على أطرافه . فقد كانت الثقافة الفارسية والبيزنطية ، مادية وأدبية ،

تفد من مسارب مختلفة يتصل معظمها بطرق التجارة عبّر بلاد
العرب . وكان أحدها هو قيام مستعمرات أجنبية في شبه الجزيرة
نفسها . فقد أنشئ عدد من الدساكر اليهودية والنصرانية في اجزاء
مختلفة من الجزيرة العربية قامت بنشر الثقافة الآرامية والهلينية .
وكان المركز النصراني الرئيسي في جنوب بلاد العرب ونجران
حيث قامت حياة سياسية متقدمة نسبياً . وقد كان اليهود والعرب
المتهودون منتشرين في كل مكان من الجزيرة ، وخاصة في يثرب
التي سميت فيما بعد « المدينة » . وكان هؤلاء على الاغلب زراعاً
وصناعاً ، وما زال اصلهم غير ثابت . وقد افترضت نظريات
مختلفة حول اصلهم .

ومسرب آخر من مسارب الحضارة كان عن طريق الدول
المتاخمة . فالحاجة نفسها التي كانت قد جعلت الرومان يشجعون
قيام الدولتين النبطية والتدمرية ، دفعت الامبراطوريتين البيزنطية
والفارسية الى ان تسمحا بقيام دويلات عربية على تخوم الجزيرة في
الشام والعراق . وكانت دولتا غسان والحيرة نصرانيتين ، والاولى
منها كانت من القائلين بالطبيعة الواحدة (مونوفيزيتية) ، والثانية
نسطورية . وكان في كليهما صيغة من الثقافة الآرامية والهلينية
تسرب بعضها الى الداخل . وأوائل امر غسان غامضة لا تعرف
إلا من الروايات العربية . اما التاريخ الثابت فيبدأ في سنة ٥٢٩
ميلادية حين جعل جوستينيان الحارث الرابع (اريتاس في المصادر
اليونانية) فيلارخا Philarch (نائب ملك) ، وبطريقاً ، وذلك
بعد أن هزم العرب المواليين للفرس . وقد استقر الغساسنة في

الاراضي الواقعة على نهر اليرموك واعترف بهم بيزنطة ، وإن لم تكن هي التي اقامت دولتهم . وفي عشية ظهور الاسلام اوقف هرقل المساعدة المالية التي كانت بيزنطة ما تزال تدفعها للغساسنة ، وهو إجراء اقتصادي اتخذ بعد الحرب الفارسية المفضية . وعلى هذا فقد وجد المسلمون الفاتحون غسان في حالة من النعمة على بيزنطة وعدم الولاء لها . وكانت إمارة الحيرة العربية تقوم على تحوم العراق الخاضع للفرس ، وهي دولة تابعة لأباطرة فارس الساسانيين وكانت تستقل وتصر على حقوقها حين تضعف الدولة الفارسية ، وتصبح تابعة لها حين تقوى تلك الدولة . وكان عملهم في الامبراطورية عمل الغساسنة عينه في الامبراطورية البيزنطية . وكان عرب الحيرة عادة يخدمون في الحروب الفارسية ضد بيزنطة كقوات مساعدة رديفة . وبلغ استيلائهم اوجه في عهد المنذر الثالث عدو الحارث الغساني ومعاصره . وكانت الحيرة تعتبر دائماً في الروايات العربية جزءاً اساسياً من المجتمع العربي وعلى اتصال مباشر بباقي أنحاء بلاد العرب . وعلى الرغم من انها كانت تابعة للفرس فقد استمدت ثقافتها بصفة رئيسية من الغرب ، من حضارة الشام النصرانية والهلينستية . وكانت في بادىء الامر وثنية ، ولكنها تحولت الى النصرانية على مذهب نسطوروس الذي جلبه الاسرى . . وقد قضى الامبراطور الفارسي كسرى الثاني على أسرة لخم الحاكمة بعد ثورة قامت بها ضده ، وارسل حاكماً فارسياً ليحكم مستتراً وراء حاكم عربي ليس له من السلطان الا الاسم .

وفي سنة ٦٠٤ م هزم العرب النازحون من شبه الجزيرة الى

هذه المنطقة الفرس ، وبذلك قضوا على دولة الحيرة وعلى توسع فارس في شمال شرق بلاد العرب .

وكان الحكم الاجنبي المباشر مصدراً آخر لتأثير اجنبي محدود . فقد كان حكم الاحباش والفرس القصير الأمد في اليمن وولايات فارس وبيزنطة في تخوم بلاد العرب الشمالية مسارب عرف العرب بواسطتها بعض الشيء عن فنون الحرب ، التي كانت آنذاك اكثر تقدماً مما عندهم ، وتسربت عن طريقها بعض المؤثرات المادية والثقافية .

ويمكننا ان نشاهد رجوع هذه الحوافز الخارجية عند العرب في عدد من النواحي . فمن الناحية المادية أخذ العرب السلاح وتعلموا استعماله ، كما اقتبسوا مبادئ التنظيم العسكري وتدبير الخطط الحربية . وفي ولايات التخوم في الشمال كانت القوات العربية الاحتياطية تتمول وتمرن على مقياس واسع . وقد أخذ العرب بالطريقة نفسها المنسوجات والطعام والخمر ، وربما أخذوا كذلك فن الكتابة . ومن الناحية العقلية حملت اديان الشرق الاوسط ، بما فيها من آراء توحيدية ومثل أخلاقية ، صبغة من الثقافة والآداب الى العرب وهيأت المهاد الاساسي لنجاح رسالة النبي فيما بعد . واقصر هذا الرجوع في الدرجة الاولى على بعض المناطق لاسيما على الحضر في جنوب بلاد العرب وفي الحجاز .

وعلى الرغم من انتشار البدو وكثرة عددهم ، فقد كان الذين يشكلون تاريخ بلاد العرب الحقيقي هم العناصر الحضرية ، ولا سيما اولئك الذين كانوا يعيشون ويعملون على خطوط التجارة عبر بلاد

العرب . وكان تحول هذه الطرق المتتابع هو الذي يقرر التغييرات والانقلابات في التاريخ العربي . ففي النصف الثاني من القرن السادس حدث تغيير عظيم الدلالة بعيد الاثر .

ذلك أن الطريق من الفرات إلى الخليج الفارسي ، التي كانت إلى ذلك الحين الطريق التجارية المفضلة بين البحر المتوسط والشرق الاقصى ، أصبحت صعبة بسبب الحروب المتواصلة بين الدولتين البيزنطية والفارسية ، والمنازعات السياسية ، وحوارز المكوس والفوضى الشاملة نتيجة للنزاع المستمر . وكانت مصر كذلك في حالة من الاضطراب ، ولم تعد تهيم طريقاً أخرى غير وادي النيل والبحر الاحمر . ولذلك تحول التجار مرة ثانية إلى الطريق الصعبة التي كانت مع ذلك اكثر هدوءاً . وتسير هذه الطريق عبر غرب بلاد العرب إلى اليمن التي كانت السفن الهندية تصل إلى مواسمها . أما مملكتنا تدمر والانباط في الشمال ، اللتان كانت عمرانهما السابق يرجع إلى تجمع مثل هذه الاسباب ، فكانتا قد انقرضتا منذ زمن طويل . ولذا اعتمدت مكة هذه الفرصة المؤاتية . واوائل تاريخ مكة غامضة . وإذا كنا نرضى ، كما ارتأى بعضهم ، ان نجعلها هي ما كورابا التي ذكرها الجغرافي اليوناني بطليموس ، فمن المحتمل انها أنشئت لتكون محطة على طريق توأبل بلاد العرب الجنوبية إلى الشمال . وهي قائمة في موقع حسن على تقاطع خطوط المواصلات نحو الجنوب إلى اليمن ، ونحو الشمال إلى البحر الابيض المتوسط ، ونحو الشرق إلى الخليج الفارسي ونحو الغرب إلى ميناء جدة على البحر الاحمر وزقاق البحر إلى

افريقية . وكان يسكن مكة قبل الاسلام بزمن قبيلة قريش
العربية الشمالية التي سرعان ما تحولت الى جماعة تجارية ذات شأن .
وكان لقريش عهود تجارية مع السلطات البيزنطية والحبشية وسلطات
التخوم الفارسية . وكانت تتعامل بتجارة واسعة . وكانت ترسل
قوافل تجارية عظيمة مرتين في السنة الى الشمال والى الجنوب .
وكانت هذه القوافل عمليات تعاونية تنظمها نقابات مكية من
التجار وأصحاب رؤوس الاموال . وكانت ترسل قوافل صغرى
في اوقات اخرى من السنة . وهناك بعض الشواهد على تجارة في
البحر مع افريقية . وكان في جوار مكة عدد من الاسواق
اهمها جميعاً سوق عكاظ . وكانت هذه الاسواق تشكل جزءاً
من حياة مكة التجارية ، وتساعد على مد نفوذ القرية ومقامها بين
البدو المحيطين بها . وكان سكان مكة خليطاً . وكان العنصر
المركزي الحاكم المعروف « بقريش البطاح » يتكون من الطبقة
السرية من التجار ورجال الأعمال والمرابين ورجال القوافل ، وهم
القائمون على تجارة النخل وصادتها الحقيقيون . وكان يليهم « قريش
الظواهر » ، وهم سكان يتألفون من رجال قوافل أقل شأناً ،
وأقرب عهداً بالتحضر ، وأهون مكانة ؛ ثم يليهم آخر الأمر طبقة
عاملة من الاعراب والبدو . وكان في خارج مكة « عرب قريش »
وهم القبائل البدوية التابعة لمكة .

وقد وُفق لامنس حين وصف حكومة مكة بأنها كانت
جمهورية تجارية تحكمها نقابة من رجال الاعمال الاثرياء . ولكن
ينبغي ألا نضلنا العبارة بحيث نفكر بالنظم الجمهورية المنظمة على

المثال الغربي . فتريش لم تكن قد انتقلت من البداوة إلا منذ عهد قريب . وكان مثلها الاعلى ما يزال بدوياً ، وهو حد أعلى من الحرية الفردية ، وحد أدنى من السلطة العامة . وكان يقوم على تنفيذ ما عندهم من السلطة العامة المأ وهو نظير حضري للمجلس القبلي ، يتكون من الاعيان ورؤوس الاسر ، وكان هؤلاء ينتخبون بالنسبة لثروتهم ومكانتهم . وكان سلطانه خلقياً واقناعياً في الدرجة الاولى . وبقي تكتمل التجار الطبقي الاساس الحقيقي لوحدتهم . وقد بدا التكتل واضحاً في مقاومتهم للنبي . وقد هيأت الخبرة والعقلية التجاريتان لبرجاسية (بورجوازية) مكة القدرة على التعاون والتنظيم وضبط النفس التي كانت نادرة بين العرب ، والتي كانت ذات أهمية فريدة في إدارة الامبراطورية الواسعة التي وقعت تحت حكمهم فيما بعد . وفي هذا الوسط ولد محمد نبي الاسلام .

الفصل الثاني

محمد وظهور الاسلام

« وكذلك أوحينا اليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى
ومن حولها، وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه. فريق في الجنة
وفريق في السعير. » (الشورى : ٧)

ينبه رينان في مقال له عن محمد وأصول الاسلام الى ان الاسلام،
خلافاً لغيره من الاديان التي كانت نشأتها محاطة بالغموض ، ولد
في وضوح نور التاريخ . « فيجذوره ليست خفية في باطن الارض ،
وحياة مؤسسه معروفة عندنا معرفة حياة المصلحين في القرن
السادس عشر ». وعندما نبه رينان الى هذا كان يشير الى المادة الواسعة
التي تهيئها كتب « السيرة » ، وهي تاريخ حياة الرسول الاسلامية
الماثورة . وعندما وضعت المشاكل ، الناشئة عن حكم امبراطورية
واسعة ، العربَ وجهاً لوجه امام جميع الصعوبات التي لم تنشأ قط
خلال حياة النبي أقر المبدأ بان القرآن ، وهو كلام الله ، ليس
وحده الحجة التي تهدي الناس سواء السبيل ، بل كذلك اقوال
النبي وافعاله خلال حياته كلها . ودواوين هذه الاقوال والاعمال

محفوظة في مجموعة من الحديث ، وكل حديث منها متصل بسند
 من الثقات بصيغة « حدثنا فلان عن ... أنه سمع عن ... الذي
 سمع النبي يقول » : وبعد اجيال قليلة من موت النبي نشأت
 مجموعة ضخمة من الحديث تتناول كل ناحية من حياته وافكاره .
 وقد يبدو الحديث عند النظرة الاولى ، بما فيه من تعداد
 دقيق لرواته الثقات الذين يرفعون دائماً الى رواية شاهد عيان ،
 مرجعاً موثقاً كأحسن ما يأمل الانسان . ولكن ثمة صعوبات .
 فجمع الحديث وتدوينه لم يحدث الا بعد جيلين او ثلاثة من وفاة
 النبي . وفي تلك المدة كانت دوافع وضع الاحاديث وفرص
 ترويضها تكاد تكون لا حد لها . فأولاً ، يكفي مجرد مرور الزمن
 وعجز الذاكرة البشرية وحدهما لان يلقيا ظلالاً من الشك على
 بيئة تنقل مشافهة مدة تزيد على ائمة عام . ولكن كانت
 ثمة دوافع للتحرير المتعمد . فقد كانت الفترة التي
 تلت وفاة النبي فترة تطور شامل عميق في الجماعة الاسلامية .
 إذ دخل الاسلام خلالها عن طريق الشعوب المغلوبة ضروب لا
 عداد لها من المفاهيم والمشاكل الاجتماعية والسياسية والشرعية
 والدينية الجديدة ، فنسب كثير من الآراء والحلول التي نشأت
 عن ذلك الى النبي عن طريق الاحاديث الموضوعة . وكانت هذه
 الفترة كذلك فترة نزاع داخلي عنيف بين الأفراد والأسر
 والاحزاب والفرق داخل الجماعة الاسلامية نفسها . ولم يكن
 كل واحد منهم يجد طريقة يسند بها قضيته خيراً من ان يضع
 احاديث ينسبها الى النبي ، ويقول برأي موافق لهواه . ويكفي

على ذلك مثال واحد : فمكّانة أسر مكة وأهميتها بالنسبة الى بعضها بعضاً في أثناء حياة النبي شوّدت في الحديث تشويهاً لا يُدرك معه شيء ، وذلك بسبب منافسات أحقادهم زمن تدوين الحديث .

وقد أدرك المسلمون ، منذ زمن متقدم ، كم من الاحاديث كان مكذوباً . فاقاموا علم الجرح والتعديل ، ليميزوا الاحاديث الصحيحة من الاحاديث التي صنعها كذب الاتقياء وغير الاتقياء . وكان النقد المأثور عندهم يعمل في فحص سلسلة السند ، فيجرحون بعض رجال السند لأنهم متهمون بالهوى في رأيهم ، او لانه لم يكن ليُعقل أنهم سمعوا الاحاديث او نقلوا الخبر الذي حدث . وقد بين النقاد المحدثون عدداً من النقائص الهامة في هذه الطريقة . فأولاً ، من السهل وضع سلسلة سندٍ سهلة وضع الحديث نفسه . وثانياً ، فان الطعن في بعض الرواة بمجرد قول الثقات يعني غلبة قول ثقة بعينه واتخاذ مقياساً للحكم على غيره . وقد قام النقد الحديث على إخضاع نص الاحاديث نفسها للتحليل التاريخي والنفسي . فقد أظهر نقد كابتاني ولانمس الدقيق ، والعارض احياناً ، ان كل الحديث المدون ، الذي تشكّل 'سيرة' النبي قسماً منه ، يجب أن يُؤخذ بالحذر والتحفظ ، وأن يوزن كل حديث بمفرده ، وأن يُختبر قبل أن يُقبل ويوثق .

أما المصدر الذي لا تُشبهه فيه عن حياة النبي فهو القرآن نفسه ، وهو مجموعة الاقوال التي بلاعها الله . ومن القرآن ومن المعلومات

المحدودة الميسورة من مصادر غيره ، يمكننا ان نجمع ترجمة لمحمد ، وإن تكن غير مفصلة كحياته في الحديث وعند السابقين من الكتاب الاوروبيين الذين تأثروه ، إلا انها كافية لأن تبرز اهم ما في سيرته من دلالة .

ولا يُعرف إلا القليل عن نسب محمد وأوائل حياته ، بل إن هذا القليل قد أخذ يتناقص شيئاً فشيئاً كلما تقدم البحث الاوروي واثار شبهة بعد أخرى حول المادة المضمنة في الاخبار الاسلامية . ويبدو أن النبي ولد في مكة بين ٥٧٠ - ٥٨٠ ميلادية في بيت بني هاشم ، وهو بيت مشهور من بيوتات قريش ، وإن لم يكن أحد افراد الأوليغاركية الحاكمة . وقد نشأ محمد نفسه يتيماً في احوال فقيرة ، وكان ذلك على ما يرجح في كنف جده . وقد نال الثروة والمكانة عندما تزوج من خديجة ، وهي ارملة تاجر غني ، تكبر محمداً بعدة سنوات . ونجد صدى هذه الاحداث في الآيات القرآنية التالية : ألم يجدك يتيماً فأوى ، ووجدك ضالاً فهدى ، ووجدك عائلاً فأغنى (سورة ٩٣ الضحى ٦ - ٨) . أما أنه اشتغل بالتجارة فهو أمر محتمل وإن لم يكن اكيداً . وقد كانت مكة مدينة يتم فيها تبادل التجارة . وترداد التشابيه والمجازات والعبارات التجارية في القرآن يوحي بأنه كانت للنبي خبرة تجارية . أما الاخبار التي تنبئ عن رحلات تجارية الى البلاد المجاورة ، فقدعو الى التحفظ . إذ من الثابت أن ثمة بيئته ضئيلة في اقوال محمد تنبئ بمعرفته لتلك البلاد . وتثير المشكلة الحرجة حول ما سبق له من روحانية كثيراً من نقاط التساؤل . فمن البين انه كان في ظل المؤثرات اليهودية والنصرانية .

ويؤيد هذا فكرة التوحيد والوحي نفسها والعناصرُ الكثيرة التي
تعود الى الكتاب المقدس . ولكن محمداً لم يسبق له ان قرأ
الكتاب المقدس . وتقول الاخبار الاسلامية انه كان لا يقرأ ولا
يكتب . وقد يكون الامر هكذا وقد لا يكون . ولكن
روايته لقصص الكتاب المقدس توحى بأن معرفته به كانت عن
طريق غير مباشر ، وربما كانت عن طريق التجار والرحالة اليهود
والنصارى الذين كانت اخبارهم متأثرة بالمؤثرات المدراسية
والابوكرافية . وتشير الاخبار الى قوم يسمون بالحنفاء ، وهم
مكيون وثنيون لم يقنعوا بعبادة الاصنام السائدة بين قومهم ،
ومجشوا عن صورة من الدين اطهر ، ولكنهم كانوا غير راغبين
في اعتناق اليهودية او النصرانية ، وقد يكون من الصحيح ان
نبحث بينهم عن اصول محمد الروحية . وقد جاءت الدعوة محمداً
حين كان يقرب من سنه الموفية اربعين . وسواء كان ذلك قمة
لتطور طويل ، أم كان انفجاراً مفاجئاً كما يوحي بذلك القرآن
والاحاديث والاخبار ، فالامر ليس ثابتاً ، رغم ان الاخبار
منها اشبه بالصحة . وقد اعتبر اهل مكة دعوته الاولى غير
ضارة ، فلم يقاوموه ، ولعله في ذلك الطور لم تكن عنده فكرة
انشاء دين جديد ، بل كان ينبغي ان يأتي للعرب بوحي كالذي
أرسل من قبل لغيرهم من الشعوب بلغاتهم . وسور القرآن
المكية دينية في الدرجة الاولى ، وتتناول في المقام الاول
وحدانية الله وسفّه عبادة الاصنام وقرب موعد عقاب الله
وثوابه . وقد لقي أول الأمر نصرة ضئيلة جاءت في الدرجة

الاولى من العناصر المستضعفة . وكان من اول من آمن به زوجته خديجة وابن عمه علي الذي صار فيما بعد الخليفة الرابع . ولما اشتد محمد في هجومه ، وهاجم بصراحه دين مكة القائم ، اشتدت المقاومة له ولاتباعه بين العناصر الحاكمة . وقد حاول عالم من القرن التاسع عشر ان يصور النزاع بين الجماعة الاسلامية الوليدة وبين الاقلية المكية الحاكمة على انه نزاع طبقي ، يمثل محمد فيه ذوي الحقوق المهضومة ونقمتهم على الاقلية البرجاسية الحاكمة . وعلى الرغم من ان هذا الرأي يبالغ في مظهر من مظاهر دعوة محمد بحيث يفسد بقيتها ، إلا ان فيه هذا المقدار من الحق : وهو أن التأييد الذي لقيه اول الامر كان مستمداً من الطبقات الفقيرة ، وان معارضة اهل مكة كانت في اصلها اقتصادية الى حد كبير ، وأنها كانت قائمة على اعتبارين : أولهما وأهمهما الخوف من ان يؤدي إبطال الدين القديم وإبطال مقام حرمة مكة الى حرمانها من مكانتها الفريدة المرجلة كمرکز للحج وقضاء المصالح . وثانيهما المعارضة في دعاوى شخص لم يكن هو نفسه من احد بيوت السادة . وإذا كانت المعارضة اقتصادية في اسبابها ، إلا انها ابرزت نفسها سياسياً اكثر منها دينياً ، وانتهت أخيراً بأن دفعت محمداً نفسه الى العمل السياسي . وتتميز الفترة الاخيرة من إقامته في مكة باضطهاد المسلمين ، الذي وإن يكن أقل عنفاً مما توحى به الاخبار ، إلا أنه كان على الرغم من ذلك من الاهمية بحيث أدى الى هجرة عدد من المؤمنين الى الحبشة . وعلى الرغم من الاضطهاد مضى الاسلام ، كما كانت تسمى الاستجابة للدين الجديد ، يكسب

أتباعاً جديداً . ومن أبرزهم مكانة ابو بكر ، وعمر وهو من بطن بني عدي . وكان لسرعة عمر في الفصل في الامور والعمل فضل كبير على الجماعة المناضلة . ومنهم عثمان من بني أمية ، إحدى الاسر الحاكمة ، وهو الوحيد ذو الخطر الذي أسلم من بين الطبقة الحاكمة . وقد دفع الفشل في إحراز تقدم ذي شأن ضد مقاومة أهل مكة محمداً الى ان يطلب النصرة في مكان آخر

ولم يكن نصيب محاولته في طلب النصرة من الطوائف غير الفشل . فقبل دعوة أهل المدينة له الى مدينتهم . وكان يسكن المدينة الواقعة على بعد حوالي ٢٨٠ ميلاً شمال شرقي مكة في الاصل قبائل يهودية من الشمال ، ولا سيما بنو النضير وبنو قريظة . وقد اجتذب خصب المدينة النسبي جماعات من العرب الوثنيين جاءت كموالٍ لليهود في البداية ، ولكنها نجحت آخر الامر في السيادة على المدينة . والمدينة ، او يثرب كما كانت تعرف قبل الاسلام ، لم يكن لها شكل من اشكال الحكومة الثابتة . وكان يتنازعها حفدة القبيلتين العربيةتين المتشاحتين وهما الأوس والخزرج .

وكان اليهود يحفظون توازناً في القوى قلقاً . وكانوا يشغلون بالدرجة الاولى في الزراعة والحرف اليدوية مما جعلهم فوق العرب اقتصادياً وسياسياً . ولهذا السبب كانوا مكروهين من قبل العرب . وسنرى أنه حالما توصل العرب الى الوحدة بفضل جهود محمد هاجموا اليهود وقضوا عليهم آخر الامر .

وكانت هجرة محمد من مكة الى المدينة نقطة تحول . واختارتها الاجيال التالية بحق نقطة البداية في التقويم الاسلامي . ولم تقم

قريش بمحاولة جدية لمنعها ، ورحل محمد عندما طاب له الرحيل .
وكان قد أوعز الى أتباعه ، دون ان يأمرهم ، ان يرحلوا ، حتى كان
هو آخر من بقي في مكة . وبعض ما هدف اليه من وراء تأخيرها
هذا هو وصوله إلى المدينة على رأس جماعة معينة ذات وضع معروف
لا وحيداً وطريداً مضطهداً . وكان اهل المدينة قد دعوه بصفته
رجلاً تحل فيه روح ذات قوة خارقة ، ويستطيع ان ينفعهم كحكم ،
وان يفصل في خلافاتهم الداخلية اكثر من دعوتهم له بصفته
رسول الله . ولم يكن الاسلام اول الامر ذا نفع لهم كدين جديد
بقدر ما كان نافعا لهم كمنهج يمكن ان يهيء لهم الامن والنظام .
وكانوا ، خلافاً لاهل مكة ، لا مصلحة ثابتة لهم في الوثنية ، ولا
مانع عندهم من قبول الناحية الدينية في الاسلام شريطة ان تسد
حاجتهم السياسية والاجتماعية اما دخول اهل المدينة في الدين
دخولاً كاملاً فلم يحدث إلا بعد زمن متأخر كثيراً . وقد كان
هناك خلاف في الرأي بين أهل المدينة منذ البداية على مسألة دعوة
هذا الحكم الغريب (اي النبي) الى المدينة . ويعرف الذين أيدوا
محمداً ، في الاخبار ، بالانصار ، والذين عارضوه بالمنافقين . اما
الصفة الدينية لهذا الخلاف في الرأي فعكس للتوتب التاريخي من
فعل المؤرخين المتأخرين .

سبقت الهجرة مفاوضات طويلة . وقد حدثت في ١٦ تموز من
عام ٦٢٢ م ، وهي أول تاريخ ثابت في الاسلام . وتعين هذه
السنة نقطة تحول وثورة في رسالة محمد . في مكة كان مواطناً
مغموراً ، أما في المدينة فقد أصبح رئيس جماعة . وفي مكة كان عليه

ان يقصر نفسه على مقاومة النظام القائم قليلاً او كثيراً ، اما في
المدينة فكان هو الحاكم . وفي مكة كان يدعو الى الاسلام ، اما في
المدينة فقد أصبح قادراً على أن ينفذ تعاليم الاسلام . وقد أثر
التغيير بالضرورة في شخصيته وشخصية الاسلام وتعاليمه وأعماله .
وفي المدينة ايضاً تنتقل الاخبار المدونة من الاسطورة الى التاريخ .
جابه حكم محمد في المدينة منذ البداية صعوبات خطيرة . فقد
كان مناصروه المخلصون له اخلاصاً شديداً قليلي العدد ، ويتألفون
من المهاجرين ، وهم أولئك المكيون الذين رافقوه ، ومن الانصار
المدينيين الذين ناصروه ضد معارضة المناهقين الفعالة . وعلى الرغم
من ان هذه المعارضة كانت سياسية في الدرجة الاولى ، فقد ظل
أصحابها شديدين في مقاومتهم الى أن دفعتهم المنافع المموسة التي
جلبها لهم الاسلام فيما بعد الى الرضى عن العقيدة الجديدة . وكان
محمد قد أمل ان يجد ترحاباً وُدياً بين اليهود الذين كان دينهم
وكتبتهم ، كما ظن هو ، ستجعلهم يتقبلون دعواه بتأييد وفهم
اكثر من غيرهم . ومن اجل استرضائهم ، ادخل في دينه عدداً من
شعائهم وبينها صوم التكفير واستقبال بيت المقدس في الصلاة .
ولكن اليهود ، على كل حال ، رفضوا مزاعم النبي الأُمي ،
وعارضوه في الامور الدينية التي كان أشد ما يكون
تأثراً بحساسيتها . ولكنهم فشلوا في مقاومتهم له بسبب
تفكيرهم الداخلي وعدم تألفهم لاهل المدينة على وجه
العموم . ولما أدرك محمد أنه لن ينال مناصرة من هذه الجهة ،
ترك فيما بعد الشعائر اليهودية التي كان قد اتخذها ، واستبدل مكة

بالقدس قبلة للصلاة ، وأضفى على عقيدته طابعاً عربياً قومياً أشد دقة والتزاماً .

ومنذ وصوله الى المدينة كانت له قوة سياسية كافية تمنعه وتمنع أتباعه من معارضة شديدة كمعارضة قريش . ولما كان يدرك أن العقائد الدينية التي كانت هدفه الحقيقي كانت في حاجة إلى مناصرة هيئة سياسية ، أخذ يعمل سياسياً . واستطاع بلباقة سياسية أن يحوّل قوته السياسية الى سلطة دينية . وقد أبقى لنا المؤرخون العرب وثيقة لا يزال أصل معظمها موضع شك ، تبين لنا نواة دستور الجماعة المدنية الأولى . ويقول مؤرخ سيرته : « وكتب رسول الله (صلمه) كتاباً بين المهاجرين والانصار وادع فيه يهود ، وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم واشترط عليهم وشرط لهم (١) . وليس هذا الكتاب معاهدة بالمعنى الاوروي بل تصريحاً من جانب واحد . وكان الغرض منها عملياً وإدارياً صرفاً ، وبين طبع النبي الحذر الحريص وُنظمت العلاقات بين المهاجرين المكين وقبائل المدينة ، وبين هذين الفريقين وبين اليهود والجماعة التي أقامتها هذه الوثيقة ، وهي الامة ، كانت تطوراً للقريية الجاهلية صحبته تغييرات حيوية . وكانت خطوة أولى نحو الحكم الاستبدادي الاسلامي فيما بعد . وقد أقرت أيضاً النظام والعادات القبلية . وذلك ان كل قبيلة احتفظت بالتزاماتها وحقوقها نحو الغرباء . أما في داخل الامة فان هذه الحقوق كلها اندثرت . وكانت النزاعات تعرض على النبي

(١) ابن هشام ، تحرير وسننقد (غوتنجن ، ١٨٦٠) ص ٣٤١

للفصل فيها . ولم يُستثن من هذا إلا قريش استثناءً خاصاً . وكان لا يجوز لفريق بمقتضاها ان يعقد صاحباً منفصلاً مع قوم أعراب . وكان المعتدون على الامة يعتبرون خارجين على الجماعة .

وقد زادت الامة في العادات الاجتماعية التي كانت سائدة في بلاد العرب قبل الاسلام ، ولم تبطلها . وكانت أفكارها حول هذا الموضوع لا تعدو نطاق البناء القبلي : احتفظت بنفس الاحكام [السارية قبل الاسلام] في مسائل الملكية والزواج والصلوات بين أفراد القبيلة الواحدة . ومن الطريف أن نلاحظ ان دستور النبي العربي الاول هذا شمل تقريباً جميع العلاقات المدنية والسياسية ، ليس بين المواطنين انفسهم فحسب ، بل بينهم وبين غيرهم أيضاً .

ومع هذا فقد حدثت تغييرات هامة : أولها هو أن العقيدة حلت محل الدم كرابطة اجتماعية . وقبل الاسلام كان إله القبيلة وطقوسها الدينية هما علامات القومية ، وكان الكفر بهما دلالةً على الخيانة الوطنية . وكان من شأن هذا التغيير اذا وضع موضع التنفيذ أن يُخمد المنازعات الدموية في صفوف الامة ، وأن يقوي من وحدتها الداخلية بالجوء الى التحكيم . وحدث تغيير آخر لا يقل اهمية عن سابقه ، ألا وهو التصور الجديد للسلطة . لقد أصبح شيخ الامة ، اي محمد ، يرأس المؤمنين ، لا بتخويله سلطة معلقة بشروط ومتوقفة على موافقة القبيلة ، وبمنوحة عن غير طلب خاطر ، ويمكن تجريده منها في اي لحظة ، بل أصبح يرأسهم استناداً الى امتياز ديني مطلق . ذلك ان مصدر السلطة تحول من الرأي العام

إلى الله الذي خولها محمدًا رسوله المصطفى .

وهكذا أصبح للأمم طابع مزدوج . فبينما كانت جهازاً سياسياً من ناحية ، اي نوعاً من قبيلة جديدة ، محمد شيخها ويتألف أفرادها من مسلمين وغير مسلمين ، كان لها في الوقت ذاته معنى ديني أساسي فقد كانت جماعة دينية ، اي ثيوقراطية . إلا ان الاهداف السياسية والدينية لم تتضح مطلقاً في ذهن محمد واذهان معاصريه وضوحاً يجعل من الممكن تمييزها . وقد كانت هذه الثنائية أصيلة في المجتمع الاسلامي الذي كانت امة محمد نواته . كما ان حدوثها في ذلك الوقت وذلك المكان كان امراً حتمياً لا بد منه . فالديانة في المجتمع العربي البدائي كان يعبر عنها ، كما كانت تنظم ، بطريقة سياسية لعدم وجود شكل آخر للتعبير عنها وتنظيمها . وبالعكس كانت الديانة وحدها هي التي تعد اساس أي حكومة عند العرب الذين كان كل تصور للسلطة السياسية غريباً عنهم .

ولما كان المهاجرون معدمين من الناحية الاقتصادية ولا يرغبون في ان يعتمدوا كلياً على المدينيين ، فقد تحولوا الى المهنة الوحيدة الباقية وهي السطو . وقد عبر الكتّاب الاوروبيون عن استيائهم البالغ ، وهم محقون في ذلك ، حين رأوا رسول الله يقود المسلمين في غارات على قوافل التجار من اجل الحصول على الغنيمة . الا انه - طبقاً لظروف ذلك الزمن ، وطبقاً لمبادئ العرب الاخلاقية - كان السطو مهنة طبيعية وشرعية . وقيام الرسول بمثل ذلك العمل لا يلحق به اي عار . وحققت غارات المسلمين على التجار المكيين غرضين : اولهما

أنها ساعدت في فرض حصار على مكة ، لم يكن من المستطاع إخضاعها الا عن طريقه . وثانيهما انها ساعدت في إثناء قوة المدينيين وثروتهم ونفوذهم . وفي آذار من سنة ٦٢٤ م ، فاجأ ثلاثئة مسلم ، بقيادة محمد ، قافلةً مكية في بدر . وفاز الغزاة بأسلاب وإفرة ، ومجد القرآن اعمالهم التي كانت تنفيذاً لارادة الله . وساعدت معركة بدر في تثبيت المجتمع الاسلامي ، كما كانت نقطة البداية لنوع جديد من الوحي . فمنذ ذلك الوقت اصبحت الآيات تختلف جد الاختلاف عن الآيات المكية . تناولت الآيات الجديدة مشاكل الحكم العملية ، وتوزيع الغنائم وما شاكل ذلك . وقد جعل نصر بدر من الممكن قيام رد فعل ضد اليهود ، وبالتالي ضد النصارى الذين اتهموا الآن بتحريف كتبهم المقدسة لكي يخفوا النبوءات التي تبشر بظهور محمد . واخذ الاسلام نفسه يتطور . فقد بدأ محمد ينشر ديناً جديداً بصفته خاتم النبيين . واصبح الدين الجديد عربياً بكل ما في الكلمة من معنى . واذا اصبحت الكعبة مكاناً للعبادة فقد صار فتحها واجباً دينياً .

وفي آذار من سنة ٦٢٥ م قامت قريش بحملة ضد محمد ، لدرء خطر المدينيين المتفاقم على القوافل ، وهزمت المسلمين على سفوح أحد ... ولما شعر اهل قريش انهم ليسوا من القوة بحيث يواصلون هجومهم حتى المدينة عادوا الى مكة . ولم يعان المسلمون - نتيجةً لمعركة أحد - هزيمة حقيقية ، بل هاجموا وطرودوا قسماً من القبائل اليهودية القاطنة في المدينة كما حدث سابقاً بعد معركة بدر . ولكن قريشاً لم تلتق السلاح بعد ، ففي

ربيع ٦٢٧ م زحف جيش من قريش يبلغ عشرة آلاف مقاتل على المدينة وحاصرها . وكانت فكرة حفر خندق حول المدينة (وقد اقترحها - طبقاً للرواية العربية - مسلم فارسي) كافيةً لاجتياح فنون الحصار القرشية . وبعد اربعين يوماً انسحب جيش قريش . وتلاه هذا النصر استئصال يهود بني قريظة .

وفي اوائل ربيع سنة ٦٢٨ م شعر محمد بأنه قادر على الهجوم على مكة . وفي طريقه اليها اتضح له ان محاولته هذه سابقة لاوانها . وعلى هذا تغير هدف الحملة من هجوم الى حج سامي . واستقبل قادة المسلمين مفاوضي مكة في مكان يدعى الحديبية على حدود المنطقة الحرام حول مكة حيث كان القتال - طبقاً للعرف الجاهلي - محرماً في فترات معينة من السنة . وتمخضت المفاوضات عن عقد هدنة لمدة عشر سنين ، أصبح للمسلمين بموجبها الحق في أن يحجوا الى مكة في السنة التالية ، وان يكثروا فيها ثلاثة أيام .

وقامت معارضة بين بعض المسلمين المتحمسين في وجه هذه النتيجة غير الحاسمة . ووجهت هذه المعارضة الى واحة خيبر اليهودية . وكان نصر المسلمين في خيبر هو أول احتكاك بين الدولة الاسلامية وشعب مقهور غير مسلم ، كما كان اساس المعاملة في العلاقات المستقبلية من ذلك النوع . واتفق على أن يحتفظ اليهود بأراضيهم لقاء جزية قدرها نصف حاصلاتهم . وفي السنة التالية قام محمد ومثارات من اتباعه بالهجرة الى مكة ، حيث جلبت سمعة الدين الجديد وقوته المتزايدتان اتباعاً جدداً له ، كان بينهم عمرو بن العاص وخالد بن الوليد اللذان قدّر لهما أن يتوما بدور هام في الفتوح الاسلامية

المقبلة . وأخيراً ، وفي كانون الثاني (يناير) من سنة ٦٣٢ م
أُتخذَ قتلُ مسلمٍ على يد أحد كفار قريش ، بسبب ما يبدو أنه
خلاف شخصي ، ذريعةً لإعلان الهجوم النهائي على مكة وفتحها .
وبفتح مكة ودخول قريش في الاسلام انتهت تقريباً رسالة
محمد التي حملها طيلة حياته . ولم يبقَ بأيِّ نشاطٍ خطيرٍ في السنة التي
بقيت من حياته بعد ذلك الفتح . وأبرزُ مظاهر السنة الاخيرة من
حياته هو رد فعل القبائل البدوية تجاه المجتمع الجديد في المدينة .
وفي علاقاته بتلك القبائل واجهَ محمدُ ظروفاً لم تكن في صالحه ،
اذ كان النظام الذي قدمه لهم غريباً عنهم من كل وجه . فقد
تطلّب منهم التضحية مجبهم الشديد لاستقلالهم الشخصي وبجزء هام
من عرفهم الاخلاقي الراسخ عندهم ، وتقاليدهم الموروثة عن
أجدادهم . ومما يشهد بمقدرة الرسول السياسية فهمه لتلك الصعاب
وتغلبه عليها إلى حد كبير . أما هدفه الحقيقي والنهائي ، وهو
إدخال البدو في الاسلام فلم يتحقق تماماً . وحتى في زمننا هذا
يَشْكُ أصحاب القول الفصل في اسلام البدو . وكان هدفه المباشر
والخارجي من وراء دبلوماسيته بعد الهجرة هو بسط نفوذه للقضاء
على نفوذ قريش . ونجح في هذا بتجنبه إقحام نفسه في
المشاحنات القبلية ، وبقتصر اهتمامه في الشؤون السياسية
والعسكرية على علاقاته بالقبائل ، تاركاً الدخول في الاسلام
للأفراد . وكانت شروط الاتفاقات التي تمت بين محمد والقبائل
متشابهةً على الدوام : كانت القبيلة عادةً تعترف بسيادة المدينة
وتتعهد بالابتعاد عن مهاجمة المسلمين وحلفائهم وبدفع الزكاة -
أي الضريبة الاسلامية الدينية - وفي بعض الحالات كان عليها أن

تقبل مبعوثي المدينة . وأما القبائل البعيدة فكان محمد يعاملها على قدم المساواة ، شريطة أن تلتزم حيادها التام الودّي .
وعقب فتح مكة قامت بين القبائل البعيدة حركة موالية للمسلمين ذات طبيعة متحزبة وسياسية خالصة . وكانت تلك الحركة شاهداً على قوة الأمة ونفوذها . واتخذت شكل « سفارات » وقّدت من نفسها على المدينة ، وتعرف في التاريخ الاسلامي باسم « الوفود » . وقدمت تلك الوفود خضوعاً من الناحية السياسية كما فهم محمد ، مع انه استغل هذه الفرصة للدعوة الى الدين . وكان الاتفاق الذي عقده اتفاقاً شخصياً وسياسياً مع حاكم المدينة . ومثل هذا الاتفاق - طبقاً لما تعارف عليه العرب - ينتهي آلياً بوفاة الرسول . وكان بين القبائل الاكثر بعداً والواقعة تحت تأثير حضارات سورية وفارس ، والتي كانت من البعد بحيث لا تدرك مدى قدرة المسلمين على الحرب ولا تستجيب لهم للسبب نفسه ، أقليات تأثرت بالدين الجديد . وكانت الوفود تمثل هذه الاقليات ، لا القبائل كلها .

وفي ٨ حزيران (يونيه) سنة ٦٣٢ م توفي الرسول بعد مرض قصير ، وذلك بعد ان أنجز الشيء الكثير . فقد هيا للقبائل الوثنية القاطنة في غرب الجزيرة ديناً جديداً يقف ، بسبب قوله مبدأ التوحيد وبسبب ما يشتمل عليه من مبادئ خلقية ، في مستوى ارفع من الوثنية التي حل محلها . وقد زود الدين الجديد بكتاب منزل ، اصبح ، في القرون التي تلت ، المرشد لملايين كثيرة من المسلمين في الفكر والسلوك ، بل فعل أكثر من ذلك : فقد اسس ايضاً مجتمعاً ودولة

حسنة التنظيم جيدة العدة جعلتها قوتها وشخصيتها العامل المسيطر في جزيرة العرب .

اذن ما هي دلالة حياة النبي النهائية ؟ نادراً ما يتبادر هذا السؤال الى ذهن المسلم . فمحمد في نظر اتباعه خاتم الرسل واعظمهم . بُعث ليبلغ الجنس البشري كلمة الله . وحياته ونجاحه ، عندهم ، رؤسما من قبل ، وتحتم حدودها ، وعلى هذا فليسوا موضع بحث . وقد كسا خيال المسلمين الورعين الذين جاؤوا فيما بعد شخصية الرسول الغامضة بنسيج أسطوري غني متعدد الالوان من الحرافات والاساطير والمعجزات ، غير عالمين بأنهم يسلبونه واحدة من اهم صفاته الجذابة حين يُقللون من قيمته الانسانية التاريخية الحقيقية .

وقد اوجد الغرب كذلك أساطيره عن محمد وشخصيته — من الاخطاء غير المعقولة والتهجمات الجدلية البذيئة والطعن الساخر في القرون الوسطى ، حتى شخصية محمد العلمانية التي صورها فولتير . فقد بدأت هذه « التشنيعات » القروسطية بتصوير النبي كشیطان من الشياطين او إله دجال يُعبد عبادة عربدة في ثلوث غير مقدس ، وانتهت الى تصويره رئيس الهرطقة الذي وضعه دانتي في موضع لا يصعب تمييزه ، عقاباً له على كونه ناشراً للوشايات والفضائح والشقاق . واخيراً ، بعد عصر الاصلاح ، صُوّر النبي كدجال خبيث اثناني .

(١) نحب ان ننبه الى ان القصد من ترك هذه الفقرة على حالها هو اطلاع القارئ العربي على الفكرة التي كونها الغربيون عن الرسول في العصور الوسطى . ولا تستحق محتوياتها الرد ، فليست الا من قبيل التهجم البذيء . [المربران]

وهناك اسطورة ذاعت في الغرب خلال القرون الوسطى تصور النبي
كردينالاً طموحاً مغلوباً على امره ، اقدم ، على اثر فشله في
الفوز بكرسي البابوية ، على ادعاء النبوة . ولا تزال آثار التعصب
الديني الغربي ظاهرة في مؤلفات عددٍ من العلماء المعاصرين ومستترة
في الغالب وراء الحواشي المرصوفة في الابحاث العلمية .

اما المؤرخ الحديث فلن يصدق بسهولة ان حركة مهمة كهذه
يمكن ان تقوم على اكتاف دجال اناني ؛ ولن يرضى كذلك بتفسير
يعتمد ما فوق الطبيعة فحسب ، سواء كان اعتماده على مصدر إلهي
او شيطاني . بل سينهج المؤرخ الحديث نهج جيبون فيحاول
- بتواضع لائق - ان يتعرف ، لا الى الاسباب الاولية ، بل
الى الاسباب الثانوية التي ادت الى انتشار الدين انتشاراً واسعاً .
فان النبي لم يخلق حركة جديدة بقدر ما بعث تيارات كانت
موجودة لدى العرب في ايامه ، ووجهها هو توجيهها جديداً

ويوضح لنا الانطلاق الجديد الذي عقب وفاة النبي ، بدل
الانهيار الشامل الذي كان يتوقع حدوثه ، ان سيرة النبي كانت
استجابة لحاجة سياسية واجتماعية ملحة . وكان تطلُّع العرب نحو
الوحدة قد وجد تعبيراً اولياً اصيب بالفشل وذلك في قيام
امبراطورية كندة التي لم تعمر طويلاً .

وقد ادت حاجة العرب الى شكل اسمي من اشكال الدين
الى انتشار اليهودية والنصرانية ، والى ما هو اهم منها ، وهو قيام
الحنفاء العرب في الجزيرة نفسها . وحتى في حياة الرسول نفسه
قام بين القبائل في انحاء الجزيرة عدد من ادعوا النبوة . وكان عملهم

هذا تقليداً للرسول من ناحية ، ونتيجةً لتطور ديني مشابه من
ناحية أخرى .

لقد أيقظ محمد القوي الكامنة المتطلعة الى بعث وتوسع
قوميين عربيين ووجهها توجيهاً جديداً . أما إقامه فقد ترك
الآخرين .

الفصل الثالث

عصر الفتوح

« وقد رأيت حين هبت رحيمهم ، وأشرقت دولتهم بالدعوة ، وانتشرت دعوتهم بالملّة ، وعزت ملتهم بالنبوة ، وغلبت نبوتهم بالشرعية ، ورسخت شريعتهم بالخلافة ، ونضرت خلافتهم بالسياسة الدينية والدينيوية ... » (ابو حيان التوحيدي : الامتاع والمؤانسة) .

كان الشرق الاوسط والادنى في أوائل القرن السابع تتقاسمه امبراطوريتان عظيمتان متنافستان ، وهما الامبراطورية البيزنطية والامبراطورية الفارسية . وتاريخ القرون الثلاثة السابقة ، في أكثره ، سجل للحروب التي دارت بينها . وكانت الامبراطورية البيزنطية بعاصمتها العظيمة ، وهي القسطنطينية ، إغريقية مسيحية في ثقافتها وديانتها ، كما كانت لا تزال الى حد بعيد رومانية في إدارتها . وكانت أهم دعائم سلطانها هي هضبة الاناضول العظيمة التي كانت عندئذ هليقية راسخة الهلينية أو تكاد . وإلى جنوب هذه الهضبة كانت تقع ولايتا سورية ومصر حيث كان السلطان البيزنطي مهدداً من نواحٍ عدة : كان بين سكانها - وهم آراميون في الاولى واقباط في الثانية - وبين الاغريق يون شاسع من ناحية العنصر ، ومن ناحية الثقافة كذلك ، ولكن الى درجة أقل .

والسخط على الحكم البيزنطي وعلى الضرائب الباهظة التي فرضها على هؤلاء السكان يبدو جلياً في قيام الكنائس المونوفيزيتية التي كانت في صراع مستمر ضد مذهب الامبراطورية الرسمي . وفي فلسطين قاسى اليهود ، وكانوا لا يزالون يؤلفون عنصراً له خطره ^١ ، ان لم يكونوا في ذلك الحين هم اغلبية السكان ، من ظلم البيزنطيين حتى اكثر من المسيحيين الهراطقة . وعلى هذا فلم يضرروا لاسيادهم الاقل الحب . وكان بين الامبراطوريتين الفارسية الساسانية والبيزنطية شبه عام كبير . فقلب الامبراطورية الفارسية ايضاً كان عبارة عن هضبة - وهي هضبة ايران - يسكنها شعب يتكلم لغة هندية اوروبية ، ويحكم ولاية العراق السامية التي مُنحت الحكم الذاتي على ان تخضع في الامور الاخرى لفارس ، والتي كان اهلها متدمرين من الناحية الدينية . وكانت ثقافة فارس الساسانية آسيوية كما كانت في الواقع مظهراً لرد الفعل ضد الهلينستية الذي تسبب في سقوط الفرتين . وكانت ديانة الحكومة زرادشتية . وكان بناء الامبراطورية الساسانية الداخلي اقل توطداً من بناء الامبراطورية البيزنطية . وبينما اقام تنظيم الثغور الحربية في الاناضول للامبراطورية البيزنطية اساساً اقتصادياً وعسكرياً ثابتاً ، كانت الامبراطورية الفارسية عند نهاية القرن السادس قد خرجت من فترة عمارة بالفتن الداخلية ، تحطم خلالها البناء الاقطاعي القديم ، وقام مكانه حكم عسكري استبدادي استخدم جيشاً من المرتقة .

(١) من الامور المقررة ان اليهود بعد حصار تيطس للقدس في سنة ٧٠ ق.م وتشتت اليهود عندئذ وبعد ذلك بسنوات قلائل اصبحوا عنصراً ضئيل الاثر من كل ناحية .
[المعربان]

لا ان النظام الجديد كان بعيداً عن الاستقرار . ونتيجة لاسباب
التذمر عند الشعب نشأت سلسلة من المرطقات الدينية الخطرة
هددت وحدة الامبراطورية الدينية ، وبالتالي وحدتها السياسية ايضاً .
وبين سنتي ٦٠٢ و ٦٢٨ نشبت آخر حرب من سلسلة الحروب
التي اندلعت نيرانها بين الفرس والبيزنطيين ، وانتهت بهزيمة الفرس ،
ولكنها تركت كليهما منهكاً ضعيفاً في وجه الخطر غير المتوقع
الذي كان على وشك الهبوب من صحراء بلاد العرب .

وواجهت وفاة محمد المجتمع الاسلامي الناشئ بأزمة ذات
طابع دستوري . ذلك أن الرسول لم يترك نصاً على كيفية الخلافة ،
كما انه لم ينشئ مجلساً على نمط المجلس القبلي الذي كان في مقدوره
[لو وجد] ان يتسلم السلطة خلال فترة الانتقال الحرجة . ولم
يسمح طابع السلطة « الفريدة » الشاملة التي اتخذها النبي ، كمبرهنة
وحيدة لمشيئة الله ، ان يعين شريكاً او حتى خليفة له في حياته .
ودعوى الشيعة بأن الرسول قد جعل علياً زوج ابنته فاطمة
خليفة له ، ليست الا من قبيل التزوير التام .

وكان تصور الخلافة الشرعية غريباً على العرب في ذلك الزمن ،
ومن المحتمل انه حتى لو ترك محمد ابناً لما اختلف مجرى الحوادث .
ويؤيد وجهة النظر هذه مصير موسى من قبل . ولم يكن لما جرى
عليه العرب من حصر المشيخة في عائلة واحدة سوى اعتبار ضئيل .
وعلى كل حال فان مطالب الأصحار ، مثل أبي بكر أو علي ، لم
يكن لها غير تأثير بسيط في مجتمع يبيح تعدد الزوجات . وكانت
أمام العرب سابقة وحيدة ترشدتهم سواء السبيل وهي انتخاب شيخ

جديد للقبيلة . وأراد أهل المدينة ان يكون الخليفة من الخزرج ،
وبهذا كشفوا مصادفةً عن ضعف في اسلامهم .

وواجه الأزمة [الناشئة عن وفاة النبي] بحزم ثلاثة رجال ،
وهم ابو بكر وعمر وابو عبيدة الذين قلبوا الحكومة ، وفرضوا
أبا بكر على المجتمع خليفةً وحيداً للرسول . ولما ووجه الانصار
والمكيون في اليوم التالي بالامر الواقع ، تقبلوه مرغين ، واعطي
ابو بكر لقب « خليفة » . وكان انتخابه بداية نظام الخلافة العظيم
في التاريخ . ولم تكن لدى ناخبه اي فكرة عن واجبات هذه
الوظيفة وتطورها فيما بعد . اما عندئذ ، فلم يقوموا بأية محاولة
لتحديد واجباته وسلطاته . ولم يشترطوا عليه عند تعيينه سوى
الابقاء على تراث الرسول سالماً .

وتختلف السلطة التي مارسها ابو بكر منذ البداية عن سلطات شيخ
القبيلة عند العرب من عدة وجوه هامة . فقد اصبح رئيساً لمنطقة
لا يجتمع فقط ؛ وصار يتمتع بسلطات تنفيذية ، واصبح تحت
إمرته جيش . ولما كان الوضع الذي تلا انتخابه خليفةً يتطلب القيام
بعمل سياسي وعسكري ، فقد اتخذ لنفسه سلطة سياسية وعسكرية
اصبحت على مر الزمن قسماً أساسياً من وظيفة الخليفة . وبعد
سنتين ، عندما توفي ابو بكر ، اصبح عمر ، الذي كان القوة
الداخلة وراء العرش ، خليفة بالتعيين . ولم يلق تعيينه معارضة
جديدة .

وكان اول ما ينبغي على الحاكم الجديد ان يفعله ، هو القيام بعمل
عسكري تجاه الحركة التي قامت بين القبائل والتي تعرف في الاخبار

« بالردة ». وهذه الكلمة ، التي تعني الالحاد والتي يوردها المؤرخون المتأخرون الذين ينظرون الى الامور من خلال منظورهم الديني ، تمثل في الواقع تشويهاً لأهمية الحوادث التي جرت بالفعل . فمع ان هذه القبائل رفضت الاعتراف بخلافة أبي بكر ، الا أن رفضها هذا لم يكن ، في واقع الامر ، رجوع جماعة مسلمة الى وثنتها الاولى ، بل كان إنهاءً بسيطاً وآلياً لاتفاق سياسي توفي أحد الطرفين القائم عليه . وكانت أقرب القبائل الى المدينة قد اسلمت ، وصح إسلامها . ومصالحها أيضاً كانت متحدة مع مصالح المسلمين إلى حد حال دون تسجيل تاريخها على انفصال . أما بالنسبة الى باقي القبائل ، فقد أتت وفاة محمد على ما كان يربطها بالمدينة واستودت حرية العمل . فقد شعرت أنه لا يربطها شيء بانتخاب ابي بكر ، ذلك الانتخاب الذي لم تشترك فيه . فأوقفت في الحال دفع الجزية ، وما تلازمها به المعاهدات من تعهدات . ولكي يعيد أبو بكر للمدينة سيادتها كان عليه أن يعقد معاهدات جديدة . وفي الوقت الذي تقبلت فيه بعض القبائل القريبة هذه المعاهدات رفضتها القبائل البعيدة . واضطر ابو بكر الى إخضاعهم بقوة السلاح تمهيداً لادخالهم في الاسلام .

وتحولت حروب الردة ، التي كان هدفها في البداية إعادة الناس الى حظيرة الاسلام ، الى حرب فتوح تجاوزت اخيراً حدود الجزيرة العربية ، وتغلغلت فيما وراءها . وكان الفتحان ، اي فتح الجزيرة وفتح الولايات المجاورة لها مثل العراق وسورية ومصر ، متشابهين ومتداخلين لا متتابعين . وكان من الجائز ألا تقهر قبائل

بلاد العرب لو لم تهيب هذه الفتوح في الشمال حلاً جذاباً لمشاكل بلاد العرب الداخلية والاقتصادية . ولم تكن أولى الحملات التي وجهت الى الشمال سوى غارات غرضها النهب لا الفتح . وعقب ذلك ، وعندما كشف العرب ضعف اعدائهم ، قاموا بالفتح . وكانت سيطرة المدينة منذ البداية ضعيفة ومقتصرة على توجيه السياسة العامة . وأدت صعوبة المواصلات في ذلك الزمن الى ترك الامور كلها ومعظم الاعمال التي لا مجال فيها لاستشارة الخليفة ، في ايدي القادة والحكام ، وذلك لئتمكنوا من الفصل فيها في الحال .

وأحد الشخصيات البارزة في الفتوح العربية هو خالد بن الوليد ، قائد ابي بكر الاول . فبعد ان انجز أوامر الخليفة اليه ، فأعاد الحالة الى ما كانت عليه عند وفاة النبي ، قرر بمفرده الخطوة التالية التي تقضي بتنفيذ برنامج توسعي حربي . وكانت معركة عقرباء التي جرت سنة ٦٣٣ في شرق نجد أول الفتوح الاسلامية . وقد اثبت النصر الذي احرزه العرب فيها مقدرة حكومة المدينة ، وأفضلية الخضوع لها . ومن ثم وُجّهت سلسلة من الحملات الى جميع الجهات .

وكانت بين المدينة وسورية عدة قبائل عربية تميل الى النصرانية وتشكل حاجزاً يقف في وجه اي تقدم من الصحراء . ومع ان المصادر لا تتطرق الى ذكر هؤلاء فلا بد أنهم قاموا بدور [في حركة الفتح] . ولا يسع المرء الا ان يفرض ان قطع هرقل للمنحة المفروضة لهم سابقاً من قبل الدولة البيزنطية ، دفعهم

الى اتحاد جانب العرب الفاتحين . وفي سنة ٦٣٣ م وجه أبو بكر
نداء الى المتطوعة للقيام بحملة الى سورية .
وأرسل عدة جيوش متفرقة الى فلسطين وسورية . وهزم
العرب جيشاً بيزنطياً صغيراً في السنة التالية ، وقاموا بعدد من
الغارات البسيطة في جنوب فلسطين ، ولكنهم تراجعوا الى الصحراء
في انتظار المدد من المدينة . وقد حدث هذا بينما كان هرقل يحشد
الجيوش . وفي ذلك الوقت وصل خالد فجأة من العراق سالماً
طريق الفرات ثم تدمر ، وظهر امام دمشق في نيسان سنة ٦٣٤ م
وبعد ان نهبها انسحب وانضم الى القادة الآخرين في الجنوب . وفي
هذه الاثناء وصل البيزنطيون الى القدس . ولكنهم هُزموا على يد
جيش عربي موحد في واقعة اجنادين . وبعد سلسلة من الهزائم
البيزنطية الاخرى ، وبعد حصار دام ستة اشهر ، افتتح العرب
دمشق . ففرقوا في الحال في انحاء فلسطين ، بينما اتجه خالد الى
الشمال . وفي هذه الاثناء اعد هرقل جيشاً غالبية من الأرمن ،
تسانده فرق من الحيلةُ جمعت من بين العرب الخاضعين له . وعندما
فوجيء العرب بجيوش تفوقهم كثيراً في العدد ، انسحبوا من
دمشق ، واحتشدوا على اليرموك حيث ألحقوا بالبيزنطيين في تموز
(يولييه) سنة ٦٣٦ م هزيمة ساحقة وضعت تحت رحمتهم سورية
وفلسطين كلها ما عدا قلعتين بيزنطيتين حصينتين ، وهما قيسارية
والقدس . وحالما تم فتح سورية عزل خالد وحل محله ابو عبيدة ،
الرجل الاداري الذي اخذ مكان خالد العسكري . وفي سنة ٦٣٧ م
زار عمر سورية ووضع خطوط الحكم الرئيسية .

جاء اقتراح غزو العراق في الاصل من شيوخ القبائل العربية القاطنة في تخوم جزيرة العرب. فحين وجد هؤلاء انفسهم محصورين بين المسلمين في الجنوب والفرس في الشمال رأوا ان الطريق الوحيدة لخروجهم من هذا المأزق هي قبول الاسلام ، واتخاذ جانب المسلمين لمهاجمة فارس . وفي سنة ٦٣٣ م غزا خالد الخيرة بجيش صغير جمع معظمه محلياً ، وأدى نجاح الغزوة غير المتوقع الى محاولات أخرى انتهت بهزيمة العرب هزيمة ساحقة سنة ٦٣٤ م [في موقعة الجسر] على يد جيش فارسي تحت قيادة الامبراطور يزيدجرد وفي الحال نظم العرب هجوماً جديداً . وفي صيف سنة ٦٣٧ م هزمت قوة عربية قليلة العدد عشرين ألف فارسي هزيمة حاسمة في القادسية . وتابع العرب نصرهم باحتلال المدائن ، عاصمة فارس ، ثم احتلوا العراق بأكمله . وهزمت قوة فارسية حشدت على عجل في جلولاء ، واندفعت الجيوش العربية الى الشمال محترفة سورية والعراق ، والتقت فيما بين النهرين ، وأكملت فتح الهلال الخصيب .

وبدأ غزو مصر ، طبقاً للرواية العربية ، بدون رضا الخليفة ، وذلك بسبب استياء عمرو بن العاص من إهمال [الخليفة] له في سورية . وكانت حالة البلاد في مصر تساعد على الفتح شأنها في سورية والعراق . فقد كان الاقباط شديدي التذمر من حكم الاغريق ، كما كانوا على استعداد لمعاونة الغزاة . ووصل عمرو في ١٢ كانون الاول (ديسمبر) سنة ٦٣٩ م مدينة العريش ، الواقعة على حدود مصر ، على رأس جيش يتألف من ثلاثة آلاف فارس يمني . فاحتلها

بسهولة ، الأمر الذي شجعه على التحول من الغزو الى الفتح . وبعد ان احتل بلوزيوم (التي تدعى الآن الفرما) زحف على حصن بابليون البيزنطي قرب موقع القاهرة الحالي . وحين تلقى من المدينة مدداً يتألف من خمسة آلاف جندي هزم البيزنطيين بسهولة في تموز (يوليو) سنة ٦٤٠ ميلادية . وفي السنة التالية استسلمت المدينة ، ولم يبق للبيزنطيين في مصر إلا مدينة واحدة وهي الاسكندرية . وبعد حصار دام سنة واحدة لهذه المدينة عقدت معاهدة بين عمرو بن العاص وبطريق الاقباط سلمت المدينة بموجبها للعرب ، وانسحبت حاميتها البيزنطية . ولم تُصب محاولة بحرية قام بها البيزنطيون في سنة ٦٤٥ لاستعادة المدينة الا نجاحاً مؤقتاً . الا ان هذه الحملة انتهت في السنة التالية بالفشل .

وتقول قصة شائعة في الكتب إنه بعد ان احتل العرب الاسكندرية امر الخليفة مجرق مكتبة المدينة مستنداً الى المنطق التالي : « واما الكتب التي ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنه غنى ، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة اليها ، فتقدم بإعدامها » . إلا ان البحث الحديث بين ان القصة لا أساس لها مطلقاً . ولا تشير اية تواريخ ، حتى المسيحية منها ، اي اشارة الى هذه القصة التي ذكرت أول مرة في القرن الثالث عشر . وعلى اي حال ، فان مكتبة السيرايوم العظيمة كانت قد أُلقت اثناء الفتن الداخلية التي نشبت في المدينة قبل مجيء العرب .

وكان دخول العرب في البلاد الجبلية غير السامية الواقعة الى

شمال الهلال الحبيب وشرقه أكثرَ بطئاً وأشدَّ صعوبة . إذ استمرت المقاومة في الهضبة الفارسية عدة سنين . ولم يتم فتح خراسان في شرقي فارس إلا خلال حكم معاوية . وثبتت ان المصاعب القائمة في الأناضول لا يمكن التغلب عليها . ولا تزال سفوح طوروس الحدّ الاقصى للسان العربي من ناحية الشمال .

وكان يقرر استراتيجية العرب في حروبهم العظيمة انتفاعهم من الصحراء التي استخدموها على أسس شديدة الشبه باستخدام الدول الاستعمارية المعاصرة للبحر : كانت الصحراء معروفة لديهم ومسخرة لانتقالاتهم دون اعدائهم . وكان في استطاعتهم استخدامها كوسيلة لنقل المؤن والامدادات . وكانت عند الضرورة ملاذاً أميناً لهم في حالة تدهورهم . ولم يكن من قبيل الصدف أن أقام العرب قواعدهم الرئيسية في مدن تقوم على أطراف الصحارى والسهول . وكانوا يستخدمون المدن القائمة مثل دمشق ، حين يكون موقعها ملائماً لهم ، كما كانوا يؤسسون ، اذا اقتضى الأمر ، مدناً جديدة مثل الكوفة والبصرة في العراق ، والفسطاط في مصر ، والقيروان في تونس . وكانت هذه العواصم في الامبراطورية العربية الاولى ، تقوم مقام جبل طارق وسنغافورة اليوم . وبني العرب في هذه المدن أحياءهم وثورهم ، كما انها ظلت المراكز الرئيسية للحكومة طوال العهد الاموي . وقامت هذه المدن - او الامصار كما تعرف في التاريخ العربي - بدور هام في تأسيس النفوذ العربي وتوطيده في البلاد المفتوحة . وبينما كان العرب يشكلون أقليات في الولايات بالاضافة الى مجموع السكان فقد كانوا يشكلون الاكثوية

في الامصار حيث اصبح اللسان العربي أداة تفاهم السكان الرئيسية . وكانت الامصار اسواقاً لمنتجات المقاطعات المجاورة الزراعية ، كما امتد اللسان العربي عن طريقها الى الريف المجاور . وسرعان ما قامت حول كل ثغر مدينة تعج بالصناع وأصحاب الدكاكين والعمال من السكان المتهورين ، الذين كانوا يوفرون للطبقة العربية الحاكمة حاجاتها . وكان يساعد على انتقال السكان من الريف الى المدن الضريبة المعينة المفروضة على الزراع غير المسلمين ، وهبوط اثمان المنتجات الزراعية الذي لا بد من حصوله بسبب توزيع الدخل عيناً وعلى نطاق واسع بين العرب الفاتحين .

وكانت الفتوحات العظيمة في الاساس توسعاً لا للاسلام بل للأمة العربية التي دفعها اشتداد ازدحام السكان في موطنها الاصلي الى ان تبحث عن مخرج في البلاد المجاورة . وهي [اي الفتوحات] واحدة من سلسلة الهجرات التي حملت الساميين مرة اخرى الى الهلال الخصيب وما وراءه . ولم يكن التوسع العربي فجائياً كما قد يبدو عند النظرة الاولى . ونجد انه حين كان السد [سد مأرب] ، الذي كان يمكك العرب في جزيرتهم ، أقوى من أن ينهار مرة واحدة ، كان اشتداد ازدحام السكان يجد مخرجاً جزئياً له في تسرب العناصر العربية الى اراضي التخوم تسرباً منتظماً . وتوجد شواهد كثيرة على تسرب العرب الهام [الى بلاد التخوم] في القرنين السادس والسابع ، وخاصة الى حوض الفرات والى جنوب شرقي سورية . وكان في المدينتين البيزنطيتين ، بصرى وغزة ، اذا اكتفينا بذكرهما ، سكان عرب لهم خطرهم حتى

قبل الفتوح . ولا يُشك في ان الغزاة وجدوا كثيرين من اقربائهم
قد استوطنوا في اقرب البلاد التي افتتحوها .

ويبالغ بعض الكتاب المتقدمين في تقدير الدور الذي قام به
الدين في الفتوح ، كما ان بعض الكتاب المعاصرين لا يقدرونه حق
قدره . وتبدو أهميته في التغيير السيكولوجي الوقي الذي أحدثه
في شعب طبع على سرعة التأثر ، وحدة المزاج ، ولم يعتد الرضوخ
لأي نوع من أنواع النظام . وعلى الرغم من ميله الى الاقتناع
بالحجة ، فانه لم يكن يقبل ان يُؤمر . فولد فيهم الدين ، الى حين
من الزمن ، الثقة بالنفس ، وأسلس قيادهم . وكان الدين اثناء
حروب الفتح رمز الوحدة العربية والنصر . وكانت القوة الدافعة
في الفتوح دنيوية اكثر منها دينية . . وتتضح هذه الحقيقة عند
دراسة شخصيات بارزة بينها رجال من طراز خالد ، ذلك اننا
نجدهم نفعيين لا يولون الدين الا اهتماماً شكلياً .

وباستثناء قلائل ، نجد ان الدور الذي قام به المسلمون الاتقياء
في تشييد الامبراطورية العربية ضئيل .

واورد لنا المؤرخون العرب في القرون التالية تفصيلات منسوبة
عن الادارة التي اوجدها عمر للامبراطورية الجديدة . وعلى كل حال
فقد بين النقد الحديث والوثائق الادارية المعاصرة التي وصلت الينا
من القرن الاول الاسلامي في اوراق البردي المصرية ان هذه
الاخبار ليست الا نموذجاً لما تم في عصر متأخر . وكان الخلفاء
الاولون يعملون في هذا الباب مدفوعين باعتبارات عملية . ولم يشعروا
بحاجة تدفعهم الى تحديد الاصطلاحات والواجبات وصياغة القوانين .

وينبغي ان تقوم دراسة احكامهم على انس من الاحكام البسيطة .
وكانت تقرر سياستهم في الدرجة الاولى ، مصالح الطبقة العربية
الارستقراطية التي تكونت بعد الفتح ، لامصالح الشعوب المقهورة .
وكان سلوك القادة والحكام يشكل تلك السياسة الى حد بعيد .
واحتفظ العرب في بادئ الامر بجهاز الحكم الفارسي والبيزنطي
بوظيفه ، كما احتفظوا بالتقاليد القديم . وحين ادرك عمر ، بعد سنة ٦٤٠ م
بقليل ، الحاجة الى قوانين جديدة ، وضع نظاماً جديداً يمكن بواسطته
وضع الامبراطورية كلها في وصاية الجماعة الاسلامية ، ويكون الخليفة
بوجبه الوصي الوحيد . وكانت للشعوب المغلوبة المختلفة قوانين
وعادات مختلفة . واذ كان العرب قد اقتبسوا النظم القديمة ، فلم
يكن للامبراطورية قانون موحد . فبالنسبة الى سورية ومصر
اضطر عمر الى احترام العرف المحلي لانها فتحتا صلحاً . اما في
العراق الذي فتح عنوة ، فقد كان لعمر حرية في التصرف اكبر
بما كان له في سورية ومصر .

ولم يستول العرب الا على اراضي الدولة وراضي اعداء
الحكومة الجديدة . اما الملاكون الذين خضعوا لها فقد اقرهم
على املاكهم شريطة ان يدفعوا ضرائب معينة . اما الاراضي
المصادرة فقد سُجِلت وأديرت بواسطة الدولة . وسمح للمسلمين
بامتلاك الاراضي خارج بلاد العرب . ومنحت الدولة الكثيرين
منهم اراضي تُعرف باسم « القطائع » . وكانت هذه القطائع من
الاراضي المفتوحة ، كما كانت احياناً من الارض الموات . وفي
حالة منح النوع الثاني كانت الدولة تقدم لمن تقطعهم الارض

مساعدة تكون على شكل اعفاء من الضرائب ، او منح مبالغ مالية لاستصلاحها . وبينما قدم عمر منجاً قليلة من هذا النوع ، قدم خلفاؤه الكثير منها . ولم يكن الملاكون العرب خارج بلاد العرب يدفعون الحراج كاملاً ، فقد أخذوا يدفعون بعد قيام نزاع بسيط ، ضريبة اقل تعرف باسم « العشر » . وما عدا ضريبة دينية بسيطة فرضت على المسلمين ، كانت جميع الضرائب الاخرى بما فيها الجزية والحراج تجمع من الرعايا غير المسلمين . وفي العصور المتأخرة تغير هذان الاصطلاحان [أي الجزية ، والحراج] بحيث أصبحا يدلان على ضريبة الرأس وضريبة الأرض المفروضتين على غير المسلمين . وكان هذان الاصطلاحان في زمن الخلفاء الاوائل متداخلين ، يفهم منها مجموع الضريبة التي يجمعها العرب جملةً من كل منطقة . وعهد الى الموظفين البيزنطيين وغير البيزنطيين تقدير الضريبة وجمعها حسب النظام القديم .

ولم يتدخل الفاتحون في الادارة الداخلية الدينية والمدنية للشعوب المغلوبة الذين أصبح يطلق عليهم اسم « الذميون » ، أي اصحاب الديانات التي اقرها القرآن . ويظهر ان استبدال الحكم العربي بالحكم البيزنطي كان موضع ترحيب الشعوب المغلوبة التي وجدت النور الجديد أخف وطأة من القديم من حيث الضرائب وغيرها . حتى لقد فضل سكان سورية ومصر المسيحيون الحكم الاسلامي على حكم البيزنطيين أصحاب العقيدة الرشيدة . وكتب يهودي عراف عن العصر الاسلامي الأول فجعل ملاكاً يقول لكاهن « لا تخف يا ابن يهوه ، فالحائق ، تبارك اسمه ، لم يُقم

مملكة اسماعيل الا ليخلصكم من هذا الشر (أي بيزنطة) ..
وسوف يبعث لهم القدوس ، تبارك اسمه ، حين يشاء ، نبياً يفتح
لهم البلاد .. وسوف يستعيدونها بأنفسهم » . ويمكننا أن نقارن
بهذه الكلمات كلمات مؤرخ مسيحي سرياني من عصر متأخر حيث
يقول : « ولهذا فلقد خلصنا الاله المنتقم من قبضة الروم على يد
العرب وليس النفع الذي جنيناه من خلاصنا من
قسوة الروم وحقدهم المرير ، بالقليل . » ولم تقف الشعوب
المغلوبة عند قبول الدين ، بل تعدته ، فساعدت
أحياناً بنشاط في تأسيسه . ففي فلسطين قدم السامريون للفاتحين
مساعدة فعالة جعلت هؤلاء يعفونهم من بعض الضرائب .
وتوجد شواهد أخرى كثيرة في التواريخ المتقدمة على مساعدات
محلية يهودية ومسيحية .

وعدم تفريق العرب بين الاسلام والعروبة واضح في موقفهم
تجاه المسلمين الجدد الذين أخذوا يتدافعون من بين الشعوب
المغلوبة الى الدخول في الاسلام . وكانت فكرة وجود مسلمين
من غير العرب غير متوقعة الى حد أنه لم يكن يسمح هؤلاء
بدخول الدين الا اذا أصبحوا موالي او انصاراً لاحد القبائل
العربية . ومع ان الموالي كانوا من الناحية النظرية يقفون على
قدم المساواة مع العرب ، ومُعَفَّين من أكثر الضرائب ، فقد
ظل العرب ينظرون اليهم نظرة استعلاء واستخفاف بهم . وظلوا
مدة طويلة يحرمونهم من المنافع المادية التي اسبغها عليهم الاسلام .
واهم هذه المنافع قبض العطاء والمنح المالية من الديوان ، اي

الدائرة التي انشأها عمر لتوزيع دخل الفتوح بين المحاربين العرب .

وكانت الفرضيات التي قام عليها نظام عمر تتلخص في عدم التفريق بين كلمة عربي وكلمة مسلم وجعلها مرادفين ، والمحافظة على السيادة الدينية التي كان الخليفة يمارس سلطانه عن طريقها . واصبح انهيار هذا النظام حتمياً حين فقدت هذه الفرضيات ما لها من اعتبار .

وقتل الخليفة عمر في ٤ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ٦٤٤ م على يد عبد فارسي . ولما كان قد ادرك خطر الحرب الاهلية التي كانت تهدد الاسلام ، فقد عين وهو على فراش الموت « مجلس الشورى » أو مجلس الناخبين ، ويتألف من اصالح المرشحين للخلافة . واشتروط عمر عليهم ان ينتخبوا من بينهم خليفة آخر للمسلمين . وهناك اخبار متضاربة حول اعمال مجلس الشورى هذا . الا انها تمحضت عن النتيجة المفاجئة وهي اختيار عثمان بن عفان . فقد عرف عثمان بضعفه ، وحتى لقد كان متهماً بالجن ، وهو نقيصة في نظر العربي . وكان انتخابه يمثل انتصار الاولغاركية المكية القديمة التي اظهرت في قبول منافع الديانة الجديدة استعداداً اكبر من ذلك الذي ابدته في قبول النبي نفسه . وكانت هذه الطبقة لا تزال تحتقر اولئك المشردين (اي المهاجرين) الذين اصبحوا يسيطرون على المدينة . وعلى الرغم من جهود ابي بكر وعمر في ربط المكين بقضية الاسلام ، وذلك بتعيينهم في الوظائف العالية - ومن الامثلة على هذا اختيار عمر لمعاوية والياً على سورية - فانهم كانوا

لا يزالون غير راضين ، يسعون الى استعادة سيادتهم التي كانوا
يعتبرونها حقاً من حقوقهم . وكان عثمان مثل معاوية من افراد
اسرة امية ، الاسرة المكية صاحبة الزعامة قبل الاسلام . وعثمان ،
في الواقع ، هو الممثل الوحيد من بين اتباع النبي الاولين لاشراف
مكة ، وله من المكانة ما يؤهله لان يكون مرشحاً للخلافة .
فكان انتخابه نصراً وفرصة مواتية لهم . فلم يفوتوا هذه الفرصة ،
فوقع عثمان في الحال تحت تأثير هذه الاسر المكية البارزة ،
وأعطيت الوظائف العالية في الامبراطورية واحدة بعد اخرى
لأفرادها .

وترتب على ضعف عثمان وتجزئه ان بلغ التذمر ، الذي كان
يعتمل في صدور المحاربين ، منذ زمن ، ذروته . وتغزو الاخبار
العربية الانبيار الذي وقع خلال حكمه الى نقائصه الشخصية .
والحق ان اسبابه تعود الى جذور أبعد غوراً . وينحصر خطأ عثمان
في فشله في تبين هذه الاسباب والسيطرة عليها وعلاجها . فحروب
الفتح التي كانت هي الدافع الاول في التاريخ العربي حتى وفاة عمر
توقفت بعد وفاته . وكانت هجرة الشعب العربي قد بلغت ذروتها
تقريباً ، فتدفقت جماعات عربية كبيرة على البلاد المفتوحة
واستوطنت فيها . وخفت وطأة ازدحام السكان . واعترضت
العرب مرة أخرى حواجز جديدة مانعة مثل هضبة ايران العالية
المعادية لهم ، وهضبة الأناضول في الشرق والشمال . واعترضهم
البحر في الغرب ، وأصبحت حروب الفتح اكثر صعوبة وأشد
بطئاً مما كانت عليه الحال في السابق . وهياً توقف الفتح للقبائل

فرصةً للتفكير في مشاكل السلم. وسرعان ما نشطت نزعات الرحل للتخلص من سيطرة الحكومة المركزية ، فادى ذلك الى انهيار الادارة واندلاع ثورة عامة . وكان من الميسور ، في الواقع ، تبين عناصر المعارضة منذ زمن عمر ، وربما كانت من اسباب وفاته ولكنها برزت بوضوح في زمن عثمان الضعيف .

ولم تكن الثورة عليه دينية او شخصية ، بل كانت ثورة الرحل ضد كل سيطرة مركزية ، ثورةً لا ضد حكومة عثمان ، بل ضد اي حكومة . ذلك ان تصور الرحل للسلطة تصورٌ بدويٌّ ، اي مأموس وشخصي ، يعتبر اطاعة النظام منحة اختيارية يقدمها الفرد . فلما فشل عثمان في فرض هذه الطاعة شعروا انهم احرار في تقديمها او امسакها .

ومع ان الهجوم المسلح على عثمان جاء من مصر ، فقد كانت مركز المعارضة الحقيقية في المدينة نفسها . فهنا كان طلحة والزبير وهما مكيان متذمران ، وعمرو الذي كان مستاءً بسبب تعيين رجل آخر والياً على مصر بدلاً منه ، وعائشة ارملة الرسول ، الذين شكلوا خلايا التآمر والتحزب ضد الخليفة . وربما كان لهم صلح في الاحداث التي ادت الى مقتله . واذ ادرك عمرو وعائشة مصير هذه الاحداث فقد احتاطا للامر . فقاما بعمل من شأنه ان يبرأهما ، وهو مغادرة المدينة في اللحظة الحاسمة . فاتجه احدهما الى بئر السبع ، والآخر الى مكة . اما الدور الذي قام به علي فليس واضحاً . فمع انه كان من المرشحين البارزين للخلافة ، وانه لم ينتخب ثلاث مرات ، فلا يظهر انه تقع عليه مسؤولية مباشرة في

مقتل عثمان ، هذا على الرغم من ان موقفه السلمي وفشله في استخدام نفوذه وشخصيته للحيولة دون وقوع الحادث قد وضع في يد اعدائه سلاحاً فعالاً ضده .

وفي ١٧ تموز (يولييه) سنة ٦٥٦ م . اقتحمت جماعة مسلحة من عرب مصر الثائرين ، الذين كانوا قد جاءوا الى المدينة لتقديم شكواهم ، بيت الخليفة وجرحوه جرحاً مميتاً . ويعين مقتله نقطة فاصلة في تاريخ الاسلام . فقد أقام مصرعه ، على يد المسلمين الثائرين سابقة محزنة ، أضعفت النفوذ الخلفي والديني لمنصب الخلافة الذي كانت تقوم عليه وحدة المسلمين .

ونودي بعلي في الحال خليفة في المدينة . ولكن حتى بعض أولئك الذين نصبوا عثمان العداء ترددوا في الاعتراف به ، لانه وان لم يكن له ضلع في المؤامرة ، فقد كان مديناً الى حد كبير في تسنمه الخلافة الى قتلة عثمان . وكان لا يزال آخرون ، ممن لم يكونوا يحبون عثمان ، لا يرغبون في الاعتراف بالخليفة الجديد . وظهرت في الحال جماعة موالية لعثمان أخذت تطالب بمعاينة المجرمين . ولم يكن في مقدور علي أن يدعن لهم . وعندما ألغى التعيينات التي كان قد أصدرها الخليفة المتوفى ، أوجد لنفسه عدداً كبيراً من الاعداء الجدد . وبدأت المعارضة حين هرع طلحة والزبير وعائشة الى مكة واخذوا ينادون بالحرب وبضرورة الانتقام متناسين الدور الذي قاموا به في الاحداث السابقة . وشرع هذا الثلاث يجمع الجيوش لمحاربة علي . وانتقلوا الى البصرة حيث أملوا في الحصول على مساعدات محلية .

وفي تشرين الاول (أكتوبر) من سنة ٦٥٧ م زحف علي من
المدينة على رأس جيشه . وكانت لهذه الحادثة أهمية مزدوجة : ففي
الدرجة الاولى تعين نهاية المدينة كعاصمة للإمبراطورية
الاسلامية ، وكانت في الدرجة الثانية ، هي المرة الاولى التي قاد فيها
خليفة جيشاً إسلامياً الى حرب أهلية ضد اخوان له في الدين .
توجه علي على رأس جيشه الى الكوفة ودخل المدينة وسط
هتافات السكان ، وذلك بعد ان فاوض الحاكم «المحيد» أبا موسى .
ومن ثم زحف على البصرة ، وهزم قوات الحلف الثلاثي في واقعة
تعرف بـ «واقعة الجمل» ، وسميت بهذا الاسم لأن القتال دار حول
الجمل الذي كانت تركبه عائشة «أم المؤمنين» . وانتهت المعركة
بانتصار علي وقتل طلحة والزبير . اما عائشة فقد أُعيدت الى مكة .
وبعد احتلال قصير الامد للبصرة ، فشل علي خلاله في كسب الشعب
الى جانبه ، عاد الى الكوفة التي اصبحت عاصمته منذ ذلك الحين .
وأصبح الان سيد الامبراطورية الاسلامية ما عدا سورية . ولكن
على الرغم من قوته الظاهرة فقد أضعف من مركزه تفرق القبائل ،
وعدم خضوع مناصريه له ، وتضارب آراء المتدينين والثيوقراطيين
الذين كانوا يؤلفون قسماً كبيراً من اتباعه ، والذين كانوا دوماً
يشكون في حقته في الحكم ، ويتحدون سلطانه . اما معاوية فقد
كان مركزه في سورية راسخاً . كان رئيساً لادارة مركزية هي
الاولى من نوعها في الاسلام في ذلك الوقت . وكان يحكم ولاية
موحدة هادئة ، وتحت إمرته جيش قوي اكتسب ذربةً وتنظيماً
اثنا حروبه مع البيزنطيين . وكان مركزه قوياً ايضاً من الناحية

المعنوية . وكانت شرعية سلطانه لا غبار عليها ، إذ كان قد عينه عمر
 وثبته عثمان آخر خليفة معترف به من قبل الجميع . وكانت مطالبة
 معاوية بالانتقام لقتل عمه عثمان طبقاً لعادة عربية قديمة اقرها القرآن
 نفسه . وفي اوائل النزاع بين علي وخصومه ابدى معاوية حكمة
 بوقوفه على الحيادة . وحتى الآن لم يطالب معاوية بالخلافة ، بل
 اقتصر على مطالبته بمحاكمة القتلة . وكانت النتيجة الطبيعية لمطالبته
 هذه انه طعن في شرعية خلافة علي حين حمله مسؤولية اديبة في
 تجاوزه عن قتلة الخليفة وعدم ملاحقتهم . وكان يساعد معاوية
 عمرو بن العاص الداهية ، وجيوش سورية الموحدة . واول عمل
 صريح قام به معاوية ضد علي هو رفضه بقوة وإصرار التنازل عن
 ولايته للوالي الجديد الذي عينه علي بدلاً منه . فلما اضطر علي إلى
 إخضاعه زحف على رأس جيشه والتقى بالجيوش الشامية ، قرب
 صفين ، المدينة الرومانية الحربة الواقعة على الفرات ، وذلك في
 أيار (مايو) سنة ٦٥٧ م . وسبق القتال كالعادة مفاوضات غير
 مثمرة طلب معاوية خلالها تسليم قتلة عثمان ومعاقبتهم . وربما
 طلب أيضاً تنازل علي وتعيين مجلس شورى جديد لاختيار خليفة
 للمسلمين . وأخيراً وقعت المعركة . وفي ٢٦ تموز (يولييه) أحرزت
 قوات علي النصر . ولما وجد السوريون انفسهم مهزومين قاموا
 بحيلة رفع القرآن على أسنة الرماح ، واخذوا ينادون « الحكم لله » .
 وكانت هذه الدعوة الى التحكيم لا تشير إلا الى النظر في مسألة
 القتلة ، لأنه كان يعسر عليهم ان يجدوا في القرآن هادياً لهم عند النظر في
 مشكلة الخلافة . وأدرك علي الحيلة ، ولكن المتدينين في معسكره

أجبروه على ان يقبل الهدنة . واثق على ان يختار كل فريق حكماً ، كما اشترط على القائدين المتنازعين ، ان يقبلوا نتيجة التحكيم . وعين معاوية عمرو بن العاص ممثلاً له ، وبهذه الوسيلة كسب معاوية نصراً معنوياً . اذ أنزل علي ، في الواقع ، من مركز خليفة حاكم للمسلمين الى مطالب بالخلافة . وتسبب التحكيم في خلق صعوبات أخرى لعلي . فقد ثار عليه جماعة من أتباعه ، ممن لم يرضوا عن هذه الخطوة . واقتضى اخضاعهم نشوب معارك دموية بينه وبينهم . وعرف هؤلاء الذين ثاروا عليه بالحوارج (اي الذين خرجوا على الجماعة) وسيظهرون مرات أخرى فيما بعد في التاريخ الاسلامي .

والتقى الحكمان سنة ٦٥٩ م في « اذرح » . والروايات العربية عن أعمالهما متضاربة الى حد يوقع اليأس في نفس الباحث ، غير انه من الواضح ان ما انتهيا اليه لم يقبله علي ، وربما اشتمل على تنازله . فرفض القرار ، وعادت الحالة الى ما كانت عليه قبل صفين مع اختلاف واحد وهو ان مركز علي تضعف وضعف بسبب قيام الحوارج وانحطاط معنويات أتباعه . وفي الاشهر التالية أصابته خسائر أخرى . اذ استطاع معاوية الاستيلاء على ولاية مصر ، فحرم علياً من مورد غني بالمال والامدادات . وبينما تجنب معاوية الاشتباك في القتال ضد علي أخذ يغير على العراق ويتناوش جندها متجنباً الحسائر .

ويكتنف الغموض أحداث السنة الاخيرة من حياة علي . فمن الجائز أن يكون قد عقد هدنة مع معاوية ، أو أنه كان يعد العدة

لمعركة جديدة ، الا انه قتل في كانون الثاني (يناير) سنة ٦٦١ م
على يد خارجي يدعى ابن ملجم . ووضع الحسن ابنه حداً للصراع
مع معاوية ، فتنازل له عن حقوقه في الخلافة . ونودي بمعاوية في
سورية خليفة وقبلته الامبراطورية كلها ..

الفصل الرابع

الدولة العربية

« قال عمر لسلمان : املك انا ام خليفة ؟
فقال سلمان : ان انت جببت من ارض المساهين
درهماً او اقل او اكثر ووضعت في غير حقه فانت
ملك غير خليفة .
وبكى عمر . »
الطبري ج ٣ ص ٢٧٩ (ط . القاهرة)

واجهت معاوية حين ارتقى الى الخلافة صعوبات عدة : فقد كان سلطان الدولة المركزي قد ضعف ، وضربت فيه الفوضى . ونتج عن انفجار فوضوية البدو ونفورهم من النظام ان ساد الدولة عدم الاستقرار ، ووضعت حاجتها الى الوحدة . وفصم قتل عثمان ، واندلاع الحرب الأهلية التي تلتها ، ونقل العاصمة من المدينة ، عرى الرابطة الدينية التي كانت قد حفظت تماسك الخلافة الأولى . وهزمت الاوليغاركية في مكة ، وساءت سمعتها . وتنهصر المشكلة التي كانت تواجه معاوية في إقامة اساس جديد لوحدة الامبراطورية . وكان الحل الذي اخذ به معاوية يقضي

بتحويل الحكم ، الذي كان من الناحية النظرية دينياً إسلامياً ، الى حكم دنيوي يقوم على سيادة العنصر العربي .
ووجه المؤرخون العرب ، الذين جاءوا بعد الدولة الاموية وكتبوا في ظل أسر خلفت الامويين ، همهم إلى الخط من شأن البيت المخنوع . فامتنعوا عن إطلاق لقب « خلفاء » على معاوية ومن جاء بعده من الحكام . واخذوا بعد زمن علي يتكلمون عن « ملك » معاوية وباقي حكام الامويين ، باستثناء عمر الثاني الورع (٧١٧-٧٢٠) الذي فاز ، دون باقي الامويين بلقب « خليفة » . ولم يستعد حاكم المسلمين لقب « خليفة » الا عند قيام العباسيين في سنة ٧٥٠م . ومع ان لتهمة « النزعة الدنيوية » هذه أساساً من الصحة ، فيجب علينا أن نبالغ في تقديرها . . نعم ، لقد أولى معاوية وخلفاؤه الناحية السياسية والاقتصادية لحكمهم أهمية متزايدة ، إلا ان العامل الديني ، على الرغم من إحلاله المكان الثاني ، كان لا يزال عظيم الاثر . وقد استغله معاوية بمهارة في حملاته المتوالية ضد البيزنطيين ، التي مكنته من ان يبدو حامياً ذمار المسلمين وقائد الحرب المقدسة ، وأن يطالب معظم العرب بأن يمنحوه ولاءهم الديني وان يفوز بكسبه .

وتطلب أمر مركزية الحكم ، الذي كان ضرورياً للابقاء على وحدة الامبراطورية ، القيام بعدد من الخطوات ، أولاها نقل العاصمة الى سورية التي ظلت أهم ولايات الامبراطورية خلال حكم بني أمية . أما عاصمة الامبراطورية الفعلية فكثيراً ما كانت تتغير . واذ كان الأمويون قادة شعب فاتح قام حكمهم على قوة

الصحراء ، فقد بنوا قلاعهم على حدود الصحارى والمناطق البعيدة عن الخطر . ولا تزال المباني التي شادوها وخلفوها لنا شاهداً قياً على سياستهم وثقافتهم . واستقر معاوية في دمشق ، التي بدت ، بفضل موقعها المتوسط وتراثها الاداري والثقافي صالحة لاقامة حكومة فيها ، قادرة على السيطرة على الولايات البعيدة .

وقام الاساس الاخلاقي الجديد، الذي كان سيحل محل الرابطة الدينية القديمة ، على اخلاص الامة العربية لرئيسها الدنيوي . وكانت السلطة التي مارسها معاوية عربية في أساسها . حقاً انها لم تعد دينية . ولكنها لم تكن ملكية حتى الآن . لقد كانت إحياء وتوسيعاً لسلطة « السيد » في النظام السائد قبل الاسلام . ويصف المؤرخ البيزنطي ثيوفانيس معاوية لا كملك أو امبراطور وإنما كمستشار اول (Proto - Symboulos) ووصفه هذا الطبيعة السلطة التي كان يمارسها معاوية في محله . فقد كانت أداة حكمه الاولى هي الشورى او مجلس الشيوخ الذي كان يدعوه الخليفة او الوالي للاجتماع ، والذي كان يتمتع بسلطات استشارية وتنفيذية . وترتبط بهذه المجالس القبلية « الوفود » وهم مندوبون عن القبائل . وكانت هذه المجالس والوفود تؤلف معاً بناء واهياً يعتمد الى حد كبير على إخلاص العرب وموافقتهم للذين كانوا (اي العرب) احراراً في منحها للخليفة او حجبها عنه . ولما كان معاوية يلجأ في حكمه الى الامر ، بل كان ماهراً في تنفيذ ارادته بطريق الاقتناع ، وهي الطريق التي كان يفضلها ، وباستخدام نفوذه وكفاءته الشخصية . وكان يقوم على تنفيذ سلطانه في الولايات ولالة يعينهم هو ، واعظمهم

زيد بن ابيه حاكم العراق (اكثر الولايات قلاقل وأصعبها حكماً)
وحاكم الشرق في الوقت ذاته .

ولم تكن الخلافة الاموية، من ناحية الادارة، حكومة عربية
بقدر ما كانت وريثة للامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية . فقد
أبقى على الجهاز الاداري القديم بموظفيه . واتخذ معاوية احد نصارى
سورية مستشاراً اول له . وكانت مسألة تنظيم وراثه العرش مشكلة
حيوية بالنسبة الى توطيد اركان الامبراطورية . والسوابق الوحيدة
في التاريخ الاسلامي التي كان بإمكان معاوية اتباعها في مسألة تنظيم
وراثة العرش هي الانتخاب او الحرب الاهلية . وبينما كانت
الاولى غير عملية كانت للثانية نقائص واضحة . . . وكان اسلوب
الخلافة بالوراثة غريباً عن تصور العرب ، بحيث كان يتعذر قبوله
في الحال . فاهتدى معاوية بديبلوماسيته المشهورة الى حل وسط
وهو تعيين ابنه يزيد خليفة له . والطريقة التي تم بها تعيين يزيد
تمثل جيداً على الاسلوب الذي كانت تعمل وفقه البرلمانية القبلية .
لقد اتخذ الخليفة ومجلس شورى دمشق قراراً بتعيين يزيد . وحين
تأيد باستشارة القبائل عن طريق وفودها أعلن للملأ . ولجأ معاوية
الى الحجبة والرشوة في إخماد المعارضة اكثر مما لجأ إلى القوة . .

واتسعت الامبراطورية خلال حكم معاوية . فاستولى العرب
في اواسط آسيا على هراة وكابل وبخارى . وتابعوا تقدمهم في
شمال إفريقيا غرباً حتى المحيط الاطلنطي . واستمرت الحرب ضد
البيزنطيين دون انقطاع . وتمكن العرب بسبب وجود أسطول عربي
من إحراز نصرهم الأول العظيم على البيزنطيين في معركة ذات

الصواري سنة ٦٥٥ م ، وذلك ايام كان معاوية والياً على سورية .
وأعظم حادثة عسكرية وقعت خلال حكم معاوية هي هجومه على
القسطنطينية سنة ٦٧٠ م . ومع ان العرب نجحوا في احتلال
موقع جنوب غربي العاصمة البيزنطية عدة سنين ، فقد فشلت الحملة
في النهاية ، وتوقفت عند وفاة معاوية . وحقت الحروب مع
بيزنطة غرضين : أولهما انها ساعدت على تقوية نفوذ معاوية الديني ،
والثانية انها أكسبت جيش سورية العربي مراناً ارقى ، وتنظيماً
احسن ، وخبرة اوسع .

وفي سنة ٦٨٠ م ، لم تصاحب ارتقاء يزيد الى الخلافة أية
قلائل خطيرة . وكان يزيد حاكماً ماهراً قديراً وعلى جانب كبير
من كفاءة ابيه . وكان أيضاً مثل ابيه موضع ذم المؤرخين العرب
الذين جاءوا فيما بعد . ونشأت المصيبة الكبيرة التي نكب بها من
تطور الحوادث في العراق . فقد أدى حكم زياد القاسي وحكم ابنه
عبيد الله الذي لا يقل قسوة الى تهاقم تدمير العراقيين ، وبالتالي
الى قيام حركة موالية للحسين بن علي . وفي سنة ٦٨١ م . قتل
الحسين مع عدد من أهله واتباعه على يد القوات الأموية في واقعة
كربلاء . ولم تكن للحادث أهمية مباشرة كبيرة . ولكن نتائجها
البعيدة كانت هائلة . وساعد الاستشهاد الروائي للمطالب العلوي
بالخلافة على تقوية الفريق المعارض للحكم الأموي الذي كان يركز
الى مطالب آل علي في الخلافة .

وفي سنة ٦٨٣ م توفي يزيد ، وترك وراءه ابناً يافعاً وهو
معاوية الثاني ، فأصبح خليفة بعده . فبدأت فترة

تكتنفها الشدائد ويحوطها الغموض . كما شهدت هذه
 الفترة نشوب نزاع قبلي وخيم واسع النطاق بين العرب انفسهم .
 ولم يحكم خلال الشهور الستة التي تلت وفاة معاوية الثاني أحد ،
 واندلعت اثناءها الحرب الأهلية الثانية في التاريخ الاسلامي .
 فقد قام عبدالله بن الزبير ، وكان ابوه قد حارب ضد علي في
 الحجاز ، وطالب بالخلافة لنفسه ؛ ولكنه أخضع فرصة ، ربما كانت
 ثمينة ، حين رفض بعناد ان يغادر مكة^١ وان يقيم سلطانه في
 سورية . وقام في سورية نفسها صراع سافر بين القبائل العربية
 المتناحرة انتهى بانتصار الامويين على خصومهم في معركة مرج
 راهط سنة ٦٨٤ م . ونودي بمروان (٦٨٤ - ٦٨٥) ، وكان
 ينتمي الى فرع آخر من البيت الاموي ، خليفة . وسيطر مروان
 بالفعل على سورية ومصر . ونجح ، قبل وفاته ، في نقل الخلافة
 الى ابنه عبد الملك (٦٨٥ - ٧٠٥) الذي وقع على كاهله عبء
 اعادة وحدة الامبراطورية ، وسلطان الحكومة ، وخلق
 نظام جديد للحكم يحل محل النظام المتداعي الذي وضعه
 معاوية الاول .

وكانت الحرب الاهلية الثانية اكثر تعقيداً وأشد خطراً من
 سابقتها . فقد أخذت الميول نحو التفكك تعمل على نطاق اوسع
 وبصورة أشد ، بينما تكونت عوامل جديدة جلبت معها مشاكل
 وصعوبات جديدة .

ولا نعرف الكثير عن الحياة الاقتصادية في الدور الاموي .

[العبان]

(١) المدينة في الأصل .

والمصادر العربية عن هذا الموضوع كتبت في زمن متأخر .
ومعظم ما توصلت اليه من نتائج ، مضطرب . لأنها تعزو لهذا الزمن
ما تم من اصلاح في وقت متأخر ، ولأنه يسيطر عليها كلها التحامل
ضد البيت الاموي وما قام به من اعمال . ومما يضاعف صعوبة
وصف الحياة الاقتصادية في العهد الاموي سلوك الامويين انفسهم ،
اذ كانوا يتصرفون طبق اهوائهم ، وفي الغالب بطريقة خاطئة دون
اهتمام كبير بالعرف او النظام .

وكان المجتمع الأموي يقوم على سيادة العنصر العربي الذي
كان عنصراً اجتماعياً وراثياً أكثر منه امة . وكان لا يدخله شخص
الا بطريق الولادة . ولم يكن افراده يدفعون ضرائب عن اراضيهم ،
بل كانوا يدفعون ضريبة دينية شخصية ، وهم وحدهم الذين كانوا
يوجدون في الامصار - وهكذا صاروا يؤلفون أغلبية المحاربين
المُدْرَجَة اسمائهم في سجلات الديوان فيقبضون رواتب شهرية
وأعطية من غنائم الفتح ودخل الولايات المفتوحة ، نقداً وعيناً .
وبدأ العرب ، حتى قبل قيام الامويين ، بامتلاك الارض
خارج بلاد العرب . ومنذ زمن معاوية أخذ عدد هؤلاء الملاكين
يزداد زيادة مضطردة . وكانوا يمتلكون الارض بطريقتين : بطريق
شراؤها من الملاكين غير العرب ، وبطريق منحها لهم على يد
الحكومة العربية . وورثت الدولة العربية الجديدة أراضي واسعة
كانت من قبل تابعة للحكومتين البيزنطية والفارسية بالاضافة الى
أراضي كثيرة تركها ملاكون بيزنطيون كبار هربوا مع جيوش
الامبراطورية المهزومة . وكانت هذه الأراضي ، والاراضي المقفرة

غير المنزرعة ، تؤلف ما يسمى بالارض « الموات » على حد تعبير فقهاء المسلمين . ولكي تضمن الدولة زراعة هذه الارض وجمع الضرائب المفروضة عليها ، جرى الخلفاء على تقديم منح منها تسمى « القطنع » ، أو الصوافي كما كانت تعرف في العراق ، الى افراد من اسرتهم أو إلى غيرهم من العرب البارزين وذوي اليسار . وهذه القطنع شبيهة بما كان يسمى عند البيزنطيين Emphytensis ، وبنيت على نمطها . وكان الاشخاص الذين تعطى لهم هذه المنح يُلزَمون بفلاحتها خلال فترة معينة ويجمع الضرائب المفروضة عليها وتقديمها الى الحكومة . وكان الملاكون العرب ، خلافاً لما كان عليه حال الملاكين والفلاحين من غير العرب الذين كانوا يدفعون الضريبة كاملة حسب النظام القديم ، لا يدفعون سوى ضريبة العشر . وتكاثر عدد القطنع بسرعة ، وأصبحت تشغل مساحة من اجود الاراضي وكان يجوز بيعها وشراؤها ؛ ثم اصبحت في الواقع ملكاً خاصاً بالفرد . ولم يكن أصحاب هذه القطنع في العادة يقيمون فيها ، بل كانوا يقيمون في الامصار او في العاصمة : وكانوا يستثمرون اقطاعاتهم بتشغيل عمال وطنيين او عمال حالهم اشبه بحال العبيد . ولا يعرف على وجه التحديد عدد العرب الذين استوطنوا في الولايات المفتوحة ، ولكن لا بد انهم كانوا يؤلفون اقلية ضئيلة بالنسبة الى اهل البلاد . ويقدر عدد الذين استوطنوا في سورية وفلسطين عند أواخر القرن الاول الاسلامي بحوالي ربع مليون شخص . وكانت الغالبية الساحقة من هؤلاء من الجند والموظفين

وغيرهم من سكان المدن والبدو . ولم يكن المرء يجد عرباً
 يفلحون الارض غير أولئك العرب الذين كانوا قد تسربوا
 [الى الهلال الحصب] قبل الاسلام . ويقدر مصدر مصري عدد
 الفلاحين العرب في مصر عند نهاية العصر الاموي بثلاثة آلاف . وكان
 كثير من الامراء الامويين اصحاب املك واسعة . وأولى قسم
 منهم استثمار املاكهم وتحسينها اهتماماً وعناية فائقين . ويعزو ابن
 عمير — احد الملاكين الاثرياء ومن اهل اليسار — الى الرسول
 الحديث التالي وفحواه من يُقتل دفاعاً عن ارضه يموت شهيداً .
 ومع ان صحة هذا الحديث موضع شك بالغ ، إلا انه مثل صادق
 على النظرة الدينية التي تكونت عند طبقة الملاكين الاثرياء الجديدة
 التي شكلت عنصراً هاماً من عناصر الطبقة العربية الحاكمة .
 ويبدو أن الثروات التي جمعها بعض العرب الفاتحين لم تأت
 بطريق استثمار اموالهم او بطريق المتاجرة . فحتى الطبقة التجارية
 في مكة ، اذا استثنينا منها افراداً قلائل ، تركت عملها القديم
 مفضلة عليه القيام بدور الارستقراطية العسكرية . الا ان الخلفاء
 الامويين انفسهم وكثيرين غيرهم من الاثرياء عاشوا في ترف باذخ
 في المدن وحتى في البادية ، وصرفوا مبالغ طائلة على بناء القصور
 وتأثيثها . وكان اقتصاد هذا الزمن يقوم في الدرجة الاولى على
 النقد . وكانت رواتب الجنود والموظفين تدفع نقداً وعيناً ، كما
 كانت الضرائب تجبى بالطريقة نفسها . وتؤيد النقود الباقية من
 عصر الخلافة الاولى قول المؤرخين بأن دور ضرب النقود التي
 استولى عليها المسلمون من الفرس والبيزنطيين واصلت ضرب

العملة الذهبية والفضية بكميات تكفي لتداول العملة .
وقد ساعد توفر الثروات الهائلة من النقد لدى الطبقة العربية
الحاكمة على نحو طبقة جديدة وهي طبقة الموالي (ومفردها مولى) ،
وهو أيّ مسلم لا يؤلف عضواً كاملاً من أعضاء إحدى القبائل
العربية وذلك بطريق الولادة . . وهكذا كان بين الموالي فرس
وأرمن ومصريون وبربر وغيرهم من الشعوب غير العربية التي
دخلت في الإسلام ؛ كما كان بينهم بعض الناطقين بالعربية ، أو
بعض من هم عرب بالتأكيّد ولكنهم لسبب ما فقدوا أو فشلوا
في الحصول على عضوية تامة في الطبقة العربية الحاكمة .

ولم تكن كلمة « موالي » تشمل أهل الذمة اي اتباع الديانات
التي أقرها الإسلام وشملها بحمايته . فهؤلاء كانوا يتمتعون بحماية
الحكومة الإسلامية وتسامحها معهم مقابل قبولهم دفع نسبة اعلى
من الضرائب ، ومقابل حرمانهم من بعض الحقوق الاجتماعية .
واحتشد الموالي بأعداد كبيرة في الأمصار العربية ، فبنوا
خارجها مدنًا واسعة أقام فيها العمال والصناع واصحاب الدكاكين
والتجار وغيرهم ممن كانوا يوفرون للأرستقراطية العربية حاجاتها .
وإذ كان هؤلاء مسلمين فقد كانوا يقفون من الناحية النظرية على
قدم المساواة مع العرب ؛ وبالفعل طالبوا بالمساواة الاقتصادية
والاجتماعية معاً ، إلا ان الارستقراطية العربية لم تمنحهم هذه
المساواة كاملة في العصر الأموي . وبينما نجح بعض الملاكين الموالي
في ان يدفعوا ضريبة مساوية لما كان المسلم يدفعه ، وذلك مقابل خدمات
أدوها للحكومة الجديدة ، فان غالبيتهم فشلت في ذلك . وفي زمن

عبد الملك لجأت الحكومة الإسلامية الى عدم تشجيع الدخول في الاسلام ،
وطردت الموالي من المدن ، وأعادتهم الى اراضيهم وحقوقهم ،
وذلك لكي تعيد دخل الدولة المتناقص الى ما كان عليه . وحارب
الموالي بالفعل الى جانب العرب في الجيوش الاسلامية وخاصة في
الولايات الواقعة على التخوم في خراسان والمغرب الاقصى .
ولكنهم حاربوا على أي حال كمشاة . وكانت رواتبهم وانصبتهم
من الغنائم دون ما يأخذه الحيلة العرب . والناظر في ادب ذلك
الزمن يرى بوضوح الخطا مكانة الموالي الاجتماعية . فمثلاً اعتُبر
زواج احد الموالي من عربية اصيلة في عروبتها زواجاً معيباً .
ويتساءل احد كتاب العرب عما اذا كان مثل هذا الزواج يمكن
ان يعقد حتى بين سعداء الجنة .

وازداد عدد الموالي بسرعة ، وسرعان ما فاق عدد العرب
انفسهم . ونشأ من استيطانهم جماعات في الولايات شعب متذمر
خطر أخذ يقوى مع الزمن شعوره بأهميته السياسية المتزايدة
وبتفوقه الثقافي وبنصيبه المتزايد حتى في الاعمال الحربية . وكانت
ظلامتهم الرئيسية اقتصادية . فقد كان بناء الدولة العربية كله يقوم
على الفرضية التالية : وهي ان اقلية عربية ستحكم اكثرية غير
مسلمة تدفع الضرائب . وفي حالة مساواة الموالي بالعرب من الناحية
المالية كان لا بد من تناقص الدخل وتزايد الخرج . واذا تحققت
هذه المساواة فلا مفر من انهيار الدولة التام . وعلى الرغم من ان
التفريق بين الطائفة صاحبة السيادة وبين الموالي كان يتفق الى حد
كبير مع الفروق العنصرية بين العرب وغير العرب ، فقد كان هذا

التفريق في اساسه اقتصادياً واجتماعياً أكثر مما كان قومياً . فقد انزل العرب الفقراء في العراق والبحرين ممن لم تدرج أسماؤهم في سجلات الديوان الى مرتبة الموالي ، فاصبحوا يشاطرون هؤلاء ظلاماتهم . وكيّف كثيرون من افراد الطبقة الفارسية الحاكمة أنفسهم طبقاً للنظام الجديد .

ووجد تدمر الموالي تعبيراً دينياً عنه في الحركة المعروفة باسم الشيعة (اي شيعة علي او حزبه) . . وقد بدأ التشيع حركة عربية خالصة وحزباً سياسياً صرفاً التف حول مطالب علي في الخلافة . وقد نشأ عن نقل علي للعاصمة الى الكوفة ، ثم نقل الامويين لها الى الشام ، أن ناصرته الحركة الوطنية العراقية الشيعة . وبدأ تطور حركة الشيعة الحقيقي بعد استشهاد الحسين في كربلاء . فقد أخذ الشيعة يسعون الى النصر بصفقتهم طائفة إسلامية ، وذلك بعد ان فشلوا في كسبه كحزب عربي . ونجح الشيعة في نشر دعوتهم بين الجماعات المتدمرة ، وخاصة بين الموالي الذين كانت تؤثر فيهم فكرة قيام خليفة شرعي من نسل الرسول أكثر مما تؤثر في العرب أنفسهم . وأصبح التشيع في اساسه تعبيراً في مصطلحات دينية ، عن معارضة الدولة والنظام القائم الذي كان قبوله يعني موافقة السنة او المذهب الاسلامي الحقيقي .

لم تقتصر هذه المعارضة للنظام القائم على غير العرب بأية حال من الاحوال . فقد قام العرب في العواصم الثائرة ، وخاصة في الكوفة ، مسقط رأس حركة الشيعة الثورية ، بدور هام ، في حركة المعارضة بل كانوا في بادىء الامر هم اصحاب الدور

الرئيسي فيها . فالعرب هم اول من جلب التشيع إلى فارس حيث كانت مدينة قم الحربية احد معاقل الشيعة الرئيسية . وكانت هذه المعارضة التي يعبر عنها التشيع ثورة اجتماعية ضد الارستقراطية العربية وحكومتهم وعقيدتهم اكثر منها ثورة قومية ضد العرب .

ولم يكن مناصرو النظام القائم كلهم من العرب . ذلك ان من بقي من الارستقراطية الفارسية الاقطاعية [في الدولة العربية] تقبلوا ضياع حقوقهم السياسية المؤقت لانهم احتفظوا بوظائفهم وامتيازاتهم الاجتماعية والاقتصادية، بل كانوا يتعاونون مع العرب طالما اقرهم هؤلاء على امتيازاتهم . وجين دخلوا في الاسلام استبدلوا الاسلام على المذهب السني بالديانة الزرداشية الحقنة . اما من اسلم من فلاحي الفرس وعامتهم ، وكانوا الازولون يجاربون [الارستقراطية] عدوهم نفسه ، فقد استبدلوا بديانة زرادشت المذاهب الاسلامية الخارجة على السنة ، معارضين بذلك الارستقراطية المسيطرة عربياً وفرساً .

وكما هو متوقع ، اجتذبت اشكال التشيع المتطرفة التي لا تقبل التوفيق الموالي من الفرس وغير الفرس . فأدخل هؤلاء فيها كثيراً من الافكار الدينية الجديدة التي استقوها من معتقداتهم المسيحية واليهودية والفارسية الاولى . وربما كانت تصور المهدي (اي المهدي سواء السبيل) هو اهم هذه الافكار الدينية الجديدة . وكان « المهدي » في اول الامر زعيماً سياسياً فحسب ، ولكنه سرعان ما اصبح داعية دينياً منقداً . ونرى اول مظهر

مميز لهذا المذهب في ثورة المختار الذي نظم في ٦٨٥ - ٦٨٧ م
ثورة في الكوفة باسم محمد بن الحنفية ، ابن علي من زوجة غير
فاطمة . وأثرت دعوة المختار في الموالي بصفة رئيسية . ومن
الطريف ان نلاحظ ان العرب ، كما يقول مؤرخ عربي ، ونجوا
المختار لانه جند « موالينا وهم فيء ، أفاءه الله علينا ، وهذه البلاد
جميعاً » . وأخذ المختار بعد وفاة محمد بن الحنفية يذيع بين الناس
أنه لم يمت وإنما اختفى في الجبال قرب مكة ، وأنه سيعود في
الوقت المناسب الى الدنيا ويملاها عدلاً . وانهارت ثورة المختار
وسط الدماء ، ولكن فكرة المنقذ التي نشرها بين الناس رسخت .
وظهر خلال ما تبقى من حكم الامويين دعاة علويون وأدعياء
يدعون النسب العلوي من ذرية محمد بن الحنفية ومن ذرية فاطمة ،
وطالب كل منهم بولاء المسلمين له على انه الحاكم الشرعي الاوحد
للمسلمين . ولحق واحد من هؤلاء بعد الآخر بأسلافه ، اي
اختفوا ، فزودت قصص أعمالهم وفشلهم أسطورة المهدي بتفصيلات
جديدة . وكان الدعاة من ابناء فاطمة يمثلون بوجه عام الجناح
المعتدل لحزب الشيعة ، وناصرهم كثيرون من بين أفراد العناصر
المتدمرة من العرب انفسهم . وتقترن اسماء الدعاة من ذرية محمد
ابن الحنفية بالتطرف في العقيدة والعمل ، ويمثلون ظلامات الموالي ،
التي كانت في حاجة الى علاج سريع ، بصورة أوضح .

وكان على الأمويين ان يواجهوا تدمير رعاياهم المتفاقم ، إلا
انه لم يكن في مقدورهم ولا بحال الاعتماد على مناصرة

(١) انظر الطبري ج ٤ ص ٥١٧/٥١٨ ط القاهرة [العربان] .

العرب لهم مناصرة تامة . إذ كان الشعور القبلي العام بالفرديّة والاستقلال ، الذي لم يكن موجهاً ضد الامويين بقدر ما كان موجهاً ضد ايّ حكومة ، لا يزال قوياً بين العرب الرحل . ووجد هذا الشعور تعبيراً في قيام سلسلة من الحركات . ففي مكة والمدينة شكّل المتدينون ، الذين لم يقبلوا مطلقاً باخلاص طريقة معاوية في التوفيق بين العروبة والمركزية ، معارضة ثيوقراطية تؤكّد على المظاهر الدينية وعلى الجانب الاختياري في الخضوع للخلافة المشيخية التي كانوا يعتبرونها مثلهم الاعلى . وينشر تحامل هذه الجماعة المتدينة على الامويين ظلّه على نتاج العصر الاسلامي الاول الديني والتاريخي الذي كانوا هم انفسهم يضعون اسسه في تلك الاثناء . ومع ان معارضة هؤلاء الامويين قلما كانت تتخذ شكل الثورة المسلحة ، الا ان دعائيتهم المتواصلة ساعدت على هدم سلطان الامويين المركزي .

وهناك مظهر آخر اكثر خطراً من السابق للرغبة في رفض مركزية الحكم والرجوع الى النظام السائد قبل الاسلام مع الابقاء على المظاهر الاسلامية ، وهو حركة الخوارج . وهم ، كما رأينا ، جماعة من أتباع علي ثاروا ضده عندما قبل التحكيم في موقعة صفين وأرادوا حكم الله بين الجماعتين ، أي الحرب . وانسحب اثنا عشر ألفاً منهم ، واستطاع علي ان يقنعهم بالرجوع اليه ، فانضموا اليه فترة من الزمن . الا ان اربعة آلاف منهم انفصلوا عنه مرة اخرى ، فاضطر الى مهاجمتهم وقتل عدد كبير منهم في واقعة النهروان سنة ٦٥٨ م . وبدأت حركة الخوارج دينية خالصة ،

لكنها استحوطت بالتدريج الى معارضة هجومية فوضوية لا تقر
 بسلطان غير سلطات الخليفة الذي اختاروه والذي كان في
 استطاعتهم ، كما فعلوا كثيراً ، أن يعزلوه حين يشاؤون .
 وفي العشرين السنة التي تلت وفاة علي قام الخوارج بثورات صغيرة
 في العراق كانت اسدها الثورة التي انفجرت على أثر وفاة يزيد .
 وفشل الخوارج بسبب طبيعة حركتهم التي تنطوي على التفرقة
 وما فيها من ميل للفوضى وإثارة النزاع الداخلي . وهزم الخوارج
 في العراق زمن عبد الملك بن مروان شرهزيمة وطرودوا بالتدريج
 إلى فارس . وفي اوائل القرن الثامن الميلادي قضى عليهم قضاء
 مبهماً . ومذهب الخوارج في الحكم هو مذهب العرب في الحكم
 قبل الاسلام ، فهو يقوم على رضى الافراد ، ويتمتع فيه الفرد
 بحرية الرأي التامة . ووضعت نظرياتهم بحق على الوجه التالي
 « تمثيل لميل العرب الطبيعي الى التمرد ، مسند بالصيغ العقلية ،
 مدعم بالتنظيم ، موغر بالحق ، مسرف في التعصب الديني . »
 وكان الضعف الداخلي الرئيسي في النظام الأموي الذي سقط
 الامويون بسببه هو الخصومات القبلية العربية المتكررة . فالرواية
 العربية التقليدية نفسها تقسم القبائل الى مجموعتين رئيسيتين وهما :
 عرب الشمال وعرب الجنوب . ولكل من هاتين المجموعتين شجرة
 نسب تبين الروابط بين القبائل داخل نطاق المجموعة ، كما تبين
 تحدر هذه القبائل من جد مشترك . وحدثت بين القبائل
 نزاعات قبل الاسلام لكنها قامت بين قبائل متجاورة يرتبط
 في الغالب بعضها ببعض برابطة النسب . وجاء تطور هذه الخصومات

الى نزاعات بين مجموعات كبيرة من القبائل نتيجةً للفتوح ،
وكان عرب الامصار يقيمون في احياء مرتبة بحسب قبائلهم .
فكونت هذه الاحياء احزاباً متنافسة لا على اساس جغرافي بل
على اساس شكله أشبه باعمال الفسيفساء . وجداول الانساب التي
وضعها الرواية العربية من صنع الخيال على الارجح . الا انها
مهمة من الناحية التاريخية ، لأنها نشرت ظلها على الحياة العربية في
العصر الأموي . وأول ظهور غامض للنزاع القبلي بين «العصبتين»
الشمالية والجنوبية ، يعود تاريخه الى زمن معاوية . ومن ثم أخذ
يزداد قوة . وكان يندلع أواره كلما ضعف سلطان الحكومة
المركزية . وحدث هذا عند وفاة يزيد ، وذلك حين رفضت
« قيس » ، وهي إحدى قبائل عرب الشمال الكبرى ، مبايعة
خلفه ، وبايعت عبدالله بن الزبير . الا ان الامويين تمكنوا بمساعدة
بييلة كلب اليمنية من التغلب عليهم في موقعة مرج راهط . لكن
بيت الاموي خرق بعمله هذا حياده وأقحم نفسه في حومة
النزاع . . وجرى الخلفاء بعد عبد الملك بن مروان على الاعتماد على
هذا الجانب أو ذاك . وهكذا عملت الخلافة على الخط من قيمتها
حين اصبحت فريقاً في الصراع القبلي . ويرى احد المؤرخين ان
صراعاً مستمراً مستحكماً الاصول مثل هذا الصراع لا بد وان
تكون له اسباب أخرى أشد خطراً من شجرة الانساب الخيالية
التي توردها لنا الرواية العربية . وقد وجدت هذه الاسباب الاخرى
في تضارب مصالح العرب الذين كانوا قد تسربوا الى البلاد المفتوحة
قبل حركة الفتوح الاسلامية - ومعظمهم من عرب الجنوب - مع

مصالح عرب الشمال الذين رافقوا جيوش الفتح وكانوا يؤلفون غالبيتها . ويؤيد هذا القول الحقيقة التالية : وهي ان القبائل الجنوبية كانت بوجه عام أكثر تقبلاً لدعوة الشيعة ، مما يوحى بأنه كانت هناك مصالح مشتركة بينهم وبين الموالي .

وكان ميدان الصراع الرئيسي في الحرب الاهلية الثانية هو العراق ، حيث كانت جميع عوامل الصراع ماثلة وقوية . وكانت الكوفة ، وهي إحدى المدن الهامة النامية ، مركز الصراع الرئيسي مما جعلها تشهد عدداً من الحركات المتتابعة العنيفة . وكان اهم ما شغل عبد الملك في سني حكمه الأولى هو إعادة توطيد النظام بين العرب وتنظيم شؤون البيت المالك ، وإقامة السلم على التخوم الشمالية ، وذلك بالاتفاق مع الامبراطور البيزنطي . . وعندما دخلت سنة ٦٩٠ كان عبد الملك على أتم استعداد لمحاربة الثوار . وتمكن في غضون ثلاث سنين من حمل الجميع على الاعتراف به .

واعترضته بعدئذ مشكلة وضع نظام جديد للدولة . والحل الوحيد الذي كان يتحتم عليه الأخذ به هو تقوية الحكم المركزي ، وذلك بجمع السلطان في يد الحاكم وجعله يستند الى قوة الجيش الشامي . وكانت خلافة عبد الملك لا تزال ملكية مركزية أكثر منها اوتوقراطية على النمط الشرقي . وكان يخفف من حدة مركزيتها التقليدية العربية وبقايا فكرة الحكم الثيوقراطي . وفي زمن عبد الملك بن مروان بدأت حركة « التنظيم والتعديل » على حد تعبير المؤرخين العرب . فبدأت حركة استبدال النظم الفارسية

والبيزنطية التي كانت لا تزال نافذة في مختلف الولايات بالتدريج ، والاختصاص بنظام جديد تكون اللغة العربية بموجبه لغة الادارة والحسابات وأنشئت في سنة ٦٩٦ م دار لضرب النقود واستخدامها بدلاً من النقود الفارسية والبيزنطية التي كانت متداولة حتى زمن عبد الملك . وعبد الملك ومستشاروه هم الذين بدأوا بوضع نظام مالي تبلور في عهد خلفائه وأصبح نظاماً إسلامياً خاصاً جديداً للضرائب . وترك عبد الملك خلفائه امبراطورية قوية مجيم في ربوعها السلام ، وعامرة بسبب الجهود التي صرفت على المشاريع العامة والتعمير . إلا ان المشاكل الرئيسية تركت دون حل .

وكان حكم الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ - ٧١٥) من نواح كثيرة ، الاوج الذي بلغه سلطان الامويين . وكانت اهم مسألة شير اهتمام الناس في هذه الفترة هي استئناف الحرب والتوسع اللذين امتدا في هذا العهد الى ثلاث مناطق جديدة . وكان قتيبة بن مسلم ، الذي انتدبه الحجاج والي عبد الملك على العراق ، أول من وطد سلطان العرب في وسط آسيا في بلاد ما وراء نهر جيحون ، وذلك باحتلاله بخارى وسمرقند وإحرازه انتصارات اشتهر أمرها . وفي جنوب هذه البلاد تمكن جيش عربي من فتح ولاية السند في بلاد الهند . إلا ان العرب لم يواصلوا فتوحهم في هذا الاتجاه ، كما انهم لم يفتحوا الهند إلا بعد زمن طويل . وكان أهم من هذا كله نزول العرب في إسبانيا في سنة ٧٠٩ م واحتلالهم عقب ذلك جزءاً كبيراً من شبه جزيرة إيبريا .

وأرسل سليمان بن عبد الملك (٧١٥ - ٧١٧) حملة الى القسطنطينية كانت آخر هجوم واسع النطاق قام به العرب على هذه المدينة . وأوقع فشل هذه الحملة السلطان الاموي في أزمة خطيرة . فقد اشتطت الدولة في تحصيل الضرائب ، الامر الذي كان قد اثار معارضة شديدة الخطر في وجه الامويين ، وذلك بسبب ما تكلفه تجهيز الحملة والانفاق عليها من اموال . وفقدت الدولة الاموية نتيجة لتعظيم اسطولها وجيشها النظامي تحت اسوار القسطنطينية اساس قوتها المادية . وفي هذه الآونة الحرجة عين سليمان وهو على فراش الموت خليفة له ، عمر بن عبد العزيز الورع الذي كان اصلح امراء البيت الأموي لعملية التوفيق التي كانت الوسيلة الوحيدة لانقاذ الحكومة الأموية .

كانت مهمة عمر الثاني هي الابقاء على وحدة العرب وعلى الامبراطورية العربية وذلك بارضاء الموالي . وبادر الى انجاز هذه المهمة ، فأحدث عدداً من الاجراءات المالية التي نجحت ، على الرغم من انهيارها آخر الامر في التغلب على الازمة . والمشكلة الرئيسية التي واجهته نشأت من دخول اهل الذمة جماعات في الاسلام ، ومن ازدياد عدد الملاكين العرب زيادة مطردة . فقد ترتب على دخول اهل الذمة في الاسلام وتعاضم عدد الملاكين ان تضاعف عدد الذين رفضوا دفع الضريبة الا بشكلها المخفض المفروض على المسلم . وعالج الحجاج هذه المشكلة بأن أعاد الموالي عنده الى اراضيهم وطالب الملاكين المسلمين بدفع الضريبة كاملة . إلا ان حله هذا بالاضافة الى انه غير عملي اثار استياء الناس منه وسخطهم

عليه . وحاول عمر الثاني ان يحل هذه المشاكل ، فوضع نظاماً يقضي بأن يدفع الملاكون المسلمون ضريبة العشر فحسب دون الخراج (الذي كان الحد الاعلى للضريبة) ؛ إلا انه حظر انتقال الارض التي تدفع الخراج للمسلمين بعد سنة ١٠٠ هجرية (٧١٩م) واستحدث اجراء قانونياً آخر مكّن المسلمين من استئجار هذا النوع من الارض بشرط ان يدفعوا عنها ضريبة الخراج . ولكي يسكن عمر الثاني من تاثرة الموالى سمح لهم ان يقيموا في العواصم ، واعفاهم من الخراج والجزية اللذين خصص مدلولهما فأصبح يعني ضريبة الرأس التي يدفعها غير المسلمين ، ومهما يكن من امر فقد كان الموالى في جميع انحاء الامبراطورية باستثناء خراسان يقبضون عطاء أقل مما كان يدفع للمحارب العربي . اما فيما يختص بالعرب انفسهم فقد ساوى عمر بينهم وبين السوريين الذين كانوا حتى عهده يقبضون عطاء اعلى مما كان يدفع لغيرهم من العرب . وخصص عمر رواتب لأبناء المحاربين العرب وزوجاتهم . ورافقت هذه الاجراءات سياسة اشد نحو اهل الذمة : فقد أفصوا عن الادارة التي كان لا يزال عدد كبير منهم مستخدمين فيها . كما ان عمر ألزمهم بالخضوع التام للقوانين التي فرضت عليهم والتي تقضي بجرمانهم من بعض الحقوق الاجتماعية والمالية .

ونتج عن ادخال هذه الاصلاحات أن ازداد الخرج ونقص الدخل في الحال . وأدى رفض استخدام اهل الذمة في الادارة الى حدوث فوضى واضطراب . واتبع خلفاه ، يزيد الثاني (٧٢٠ - ٧٢٤ م) وهشام (٧٢٤ - ٧٤٣) نظاماً جديداً

ظل نافذاً مع ادخال قليل من التغييرات عليه بعد سقوط الدولة الاموية بوقت طويل . وتجمع الروايات الشرقية كلها على ان هشاماً كان حاكماً مقترراً حريصاً ، وان اهتمامه بجمع الضرائب فاق اهتمامه بغيره من الامور . وما في ايدينا من معلومات لا يكفي لرسم وصف عام للسياسة المالية في زمن الخلافة كوحدة . وعلى كل حال فلدينا بعض المعلومات عن السياسة المالية التي انتهجها ولاة هشام الثلاثة الكبار وهم عبيد الله بن الحباب في مصر ، وخالد القسري في العراق ، ونصر بن سيار في خراسان . وفي مقدورنا ان نكوّن من هذه المعلومات صورة للسياسة التي اتبعت في العهد الثاني من الدور الأموي . فكانت اهم دعائم النظام الجديد هي النص القانوني على ان الارض ، لا مالكمها ، هي التي تدفع الخراج . ومعنى هذا ان جميع الاراضي الخراجية صارت منذ هذا الوقت تدفع الضريبة كاملة بغض النظر عن دين صاحبها وقوميته . اما الاراضي العشرية التي تكونت في ظل الخلافة الاولى ، فقد ظلت تدفع الضريبة المحفضة (اي العشر) الا انه لم يعد من المستطاع زيادة هذا النوع من الارض . وكان الذميون ، بالاضافة الى ضريبة الخراج يدفعون ضريبة الجزية ، اي ضريبة الرأس . وحين عُين في الولايات مشرفون ماليون [او عمال] منفصلون عن الولاية ، وانيط بهم القيام بمسح الارض واحصاء السكان كأساس لوضع الضرائب الجديدة ، اصبح هذا النظام ، الذي قدر له ان يصبح النظام المعتمد في التشريع الاسلامي ، اكثر فعالية .

وبعد وفاة هشام سارت الدولة بخطى حثيثة في طريق الانهيار .
اذ حمي وطيس النزاع القبلي ، واستأنف الشيعة والخوارج مقاوماتهم
للدولة بعنف زائد الى درجة أنه لم تأت سنة ٧٤٤ م ، حتى كانت حقوق
الحكومة المركزية موضع التحدي حتى في سورية ، وفقدت
اعتبارها في باقي أنحاء الامبراطورية . وكان مروان الثاني ، آخر
الخلفاء الامويين ، حاكماً ذكياً قديراً ولكنه جاء في وقت متأخر
لم يكن من المستطاع فيه إنقاذ الدولة الاموية .

وجاءت نهاية الدولة على يد حزب دعا نفسه بالحزب الهاشمي .
وكان أبو هاشم بن محمد بن الحنفية ، الذي حارب المختار باسمه ،
على رأس فرقة شيعية متطرفة يناصرها فريق من الموالي . ولما
حضرتة الوفاة في سنة ٧١٦ م ولم يكن له أولاد ، تنازل عن مطالبه
في الخلافة لمحمد بن علي بن العباس من ذرية عم الرسول . ولما
قبلت هذه الطائفة محمداً ، تمكن الاخير من السيطرة على دعوتهم
وعلى منظماتهم الثورية . واتخذ نشاط هذا الحزب من خراسان
مركزاً رئيسياً لأعماله . وكان عرب البصرة والكوفة قد كونوا
فيها مستعمرات عربية حوالي سنة ٦٧٠ م ، وجلبوا اليها معهم
نزاعاتهم التبيلية التي تفاقمت واتسعت دائرتها في هذا الوطن الجديد .
وكون العرب أقلية ضئيلة بين شعب فارسي محارب بطبعه ، ومتمذر
بسبب عدم مساواته بالعرب من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية .
ويظهر أن دعاة بني هاشم تعاونوا في البداية مع الشيعة المعتدلين
الذين كان سليمان بن كثير ، وهو عربي يميني ، يمثلهم في خراسان .
ونشط بنو هاشم في بث دعوتهم حوالي سنة ٧٤٠ م . وأعدم أول

زعيم من زعمائهم على أثر قيام ثورة فاشلة بعد ثماني عشرة سنة .
ولكي يستعيد محمد بن علي بن العباس ثقة الشيعة المعتدلين أناط
بسليمان بن كثير أمر تنظيم الدعوة في خراسان يعاونه مجلس
يتألف من اثني عشر عضواً ثمانية منهم من العرب وأربعة من
الموالي . الا ان محاولة التوفيق هذه لم تثمر ، وحين جردت
الحركة مما يهيم الموالي اضمحلت وخدمت . وفي هذه الاثناء
توفي محمد بن علي العباس وخلفه ابنه ابراهيم الذي اقرت منظمة
الشيعة في العراق حقوقه في الخلافة . وفي سنة ٧٤٣ م أرسل ابراهيم
الامام ابا مسلم الخراساني ، وهو أحد موالي الفرس في العراق ،
نائباً عنه وداعية له الى الموالي الفرس . وأصاب ابو مسلم نجاحاً
كبيراً في نشر الدعوة بين الشعب الفارسي وحتى بين الارستقراطية
الفارسية في الارياف . ومع ان الفريق المعتدل كان لا يزال
متدمراً ، تحالجه بعض الريبة ، فقد قبل الجميع زعامة ابي مسلم .
وفي سنة ٧٤٦ م بدأت ثورة بني هاشم ، ورفعت رايات العباسيين
السوداء في خراسان . وكان اللون الاسود في الغالب يمثل شعار
العباسيين الخاص . وكان استخدام الرايات السوداء ، في واقع
الامر ، محاولة [من جانب العباسيين] لتحقيق ما تفرضه احدى
النبوءات بشأن ظهور المنقذ التي كان كثير منها شائعاً بين سكان
الدولة العربية الساخطين . ولقد رفع الاعلام السوداء ثائرون
آخرون غير العباسيين ، لكن نجاح هؤلاء هو الذي جعل السواد
من خصائص البيت الحاكم الجديد . واصبح العباسيون بعد سنين
قلائل يعرفون في بيزنطة وفي الصين بلباسي السواد .

اما بقية الحوادث فقد توالى بسرعة . وحال الصراع الذي
كان قائماً بين القبائل العربية نفسها في خراسان دون قيامها
بمقاومة الحركة الجديدة مقاومة مثمرة . وحين تأهبت لمقاومتها
كان وقت العمل المثمر قد فات . . واذ توطد الحكم الجديد
في الشرق زحفت جيوش ابي مسلم بسرعة الى الغرب وهزمت آخر
جيوش الامويين في معركة الزاب الكبير . وبذلك ذهب البيت
الاموي وذهبت الدولة العربية ، ونودي بابي العباس الملقب
بالسفاح خليفة للمسلمين .

الفصل الخامس

الامبراطورية الاسلامية

« مكان جميل ، وزمن ممتع ، اذ كان ذلك في العهد الذهبي لهارون الرشيد » .
(تينسون : مشاهد ألف ليلة وليلة)

كان حلول العباسيين محل الأمويين في حكم الجماعة الاسلامية اكثر من مجرد تغيير الأسرة الحاكمة ، لقد كان ثورة في تاريخ الاسلام ، تعيّن نقطة فاصلة فيه ، ولها من الاهمية ما للثورتين الفرنسية والروسية من اهمية في تاريخ الغرب . ولم يتم هذا التغيير نتيجة لمؤامرة من مؤامرات البلاط ، او لانقلاب في الحكم ، بل تحقق بفعل دعوة وتنظيم ثوريين ناجحين واسعي الانتشار ، يمثلان ويعبران عن استياء عناصر هامة من الشعوب من الحكومة السابقة ، ومهّد لها ونفّذها خلال فترة طويلة من الزمن . وجاءت هذه الحركة ، مثل معظم الحركات الثورية ، نتيجة لائتلاف مصالح مختلفة جمعت بينها رغبة مشتركة في إسقاط النظام القائم . غير انه كان مقضياً على هذه الحركة بالتفكك والانقسام الى جماعات متضاربة

حالما يتحقق النصر. فكانت اولى مهام العباسيين المنتصرين هي سحق جناح الحركة المتطرف الذي اوصلهم الى السلطان. فقتل العباسيون ابا مسلم الخراساني ، اكبر بناة الثورة مع عدد من زملائه ، واخذوا فتنة اثارها اتباعهم .

لكن ماذا كانت طبيعة الثورة ؟ ومن كان اولئك الثوار ؟ وما الذي كانوا يسعون الى كسبه ؟ فقد ضللت نظريات جوينو وغيره العنصرية المستشرقين الاوروبيين في القرن التاسع عشر ، ففسروا الصراع بين الامويين والعباسيين والانشقاق الديني كله في اوائل التاريخ الاسلامي على انه صراع عنصري بين سامي الجزيرة وآريي ايران . واعتبروا فوز العباسيين نصراً للفرس على العرب مكنتهم من تأسيس امبراطورية فارسية جديدة ، متشعبة بقناع فارسي - اسلامي ، مكان الدولة العربية الدائلة . وفي المصادر العربية ما يؤيد وجهة النظر هذه . . فيقول الجاحظ احد كتاب القرن التاسع : « دولة بني العباس أعجمية خراسانية ، ودولة بني مروان اموية عربية » . بيد أن البحث الحديث اظهر لنا انه على الرغم من ان للعداء العنصري اثرأ في الثورة التي ادت الى سقوط الامويين ، الا انه لم يكن العامل الرئيسي المحرك لها ، وأنه على الرغم من وجود عدد كبير من الفرس بين المنتصرين ، الا أنهم لم يبرزوا النصر بصفقتهم فرساً ، كما أنهم لم يهزموا اعداءهم بصفقتهم عرباً . وضمت جيوش الثورة عرباً كثيرين ، وخاصة من قبائل الجنوب التي لم تكن بعد ثابتة القدم في أروستقراطية الفاتحين . ولم يكن الموالي ، وكانوا عماد الحركة الرئيسي ، كلهم من الفرس بأية

حال ، بل كان بينهم عراقيون وسوريون ومصريون ، وحتى
عرب ممن لم يتمتعوا بكل ما يتمتع به أعضاء الارستقراطية القبلية .
وكان ملاكو الفرس الدهاقين قد كيفوا انفسهم ، كما فعلت طبقات
الموظفين البيزنطيين السابقين في الولايات الغربية ، طبقاً للحكم
الاموي ، وقاموا بدور هام في تنفيذه . فهم الذين كانوا يقدرون
مجموع الضرائب التي فرضها العرب على كل ولاية ، ويجمعونها .
وبهذه الطريقة كانوا ولا شك ، يستثنون انفسهم من دفع ما عليهم .
يجب علينا ان نبحث عن القوة المحركة للثورة في التذمر
الاجتماعي والاقتصادي بين سكان المدن ممن لم يتمتعوا بامتيازات
الارستقراطية ، وخاصة التجار والصناع من الموالي ، الذين اصابوا
نجاحاً في العواصم التي أنشأها العرب . وقد اصبحت الارستقراطية
العربية بسبب من توقف حروب الفتح - تلك الحروب التي كانت
تمثل نشاطها الوحيد المنتج - ضئيلة الاثر من الناحية التاريخية ،
الامر الذي مهد الطريق لتأسيس طبقة اجتماعية جديدة تعتمد على
الاقتصاد السلمي في ميداني التجارة والصناعة ، وطبقة حاكمة أمة
من المواطنين والتجار والصارفة والملاكين والعلماء ، أي طبقة
علماء الدين ، والفقهاء والمعلمين وكبار الموظفين الذين كانوا أقرب
ما في الاسلام الى الكهانة . . وسهّل قيام هذه الطبقة ضعف العرب
السياسي وخلافاتهم الداخلية ، وتخلي كثيرين منهم عن الحركة
الثورية .

وتبدو طبيعة الثورة بأوضح شكل في التغييرات التي اعقبت
النصر . وكان اول هذه التغييرات واوضحها نقل مركز الثقل من

سورية الى العراق ، المركز التقليدي للامبراطوريات العالمية
العظيمة في الشرق الاوسط والادنى . وأقام السفاح (٧٥٠ -
٧٥٤ م) ، اول خليفة عباسي ، في مدينة صغيرة تدعى الهاشمية ،
بناها على ضفة الفرات الشرقية قرب الكوفة لايواء اهل بيته
وحرصه . ثم نقل العاصمة الى الانبار . وكان المنصور ، وهو
الخليفة العباسي الثاني (٧٥٤ - ٧٧٥) وموطد الحكم الجديد من
نواح كثيرة ، مؤسس العاصمة العباسية الدائمة في مدينة جديدة على
ضفة الفرات الغربية ، قرب خرائب المدائن ، عاصمة آل ساسان
القديمة . واسم هذه المدينة الجديدة الرسمي هو « دار السلام » .
الانما تعرف في الغالب باسم القرية الفارسية التي كانت تقوم في
الموقع ذاته ، وهو بغداد . واختار المنصور هذا الموقع لبناء
عاصمته لأسباب عملية معقولة : بنى المدينة قرب قناة صالحة للملاحة
بين دجلة والفرات ، وفي مكان متوسط بين طرق متقاطعة تتفرع
الى جميع الجهات ، كما انها في الوقت ذاته تقوم على طريق الهند . .
ويخبرنا الجغرافى اليعقوبى ، عندما يتكلم على تأسيس المدينة ، ان
المنصور توقف عند بغداد خلال احدى رحلاته وقال :

« مشرعة للدنيا ، كل ما يأتي في دجلة من واسط
والبصرة والأبلة والأهواز وفارس وعمان واليامة
والبحرين وما يتصل بذلك فإليها ترقى وبها ترسي ، وكذلك
ما يأتي من الموصل وديار ربيعة وآذربيجان وارمينية
ما يحمل في السفن في دجلة ، وما يأتي من ديار مصر
والرقة والشام والثغر ومصر والمغرب مما يحمل في السفن في الفرات

فيها يحط وينزل ، ومدرجة اهل الجبل و كور خراسان . فالحمد لله
الذي ذخرها لي ، واغفل عنها كل من تقدمني ، والله لا ينينها ثم
اسكنها ايام حياتي ، ويسكنها ولدي من بعدي ، ثم لتكون امر
مدينة في الارض . »

وكان وسط بغداد عبارة عن مدينة مستديرة يبلغ طول
قطرها حوالى ميلين ، وتؤلف قلعة يقوم فيها مقر الخليفة و احياء
الموظفين والحرس الخراساني الذين جلبهم الخليفة معه من الشرق .
وسرعان ما قامت وراء هذه المدينة المدورة قصبة تجارية عظيمة .
وكانت نتائج نقل العاصمة كبيرة : فقد تحول مركز الثقل من
ولاية سورية الواقعة على البحر الابيض المتوسط الى بلاد ما بين
النهرين ، وهي عبارة عن واد خصب ترويه مياه النهرين ، وواقع
عند تقاطع طرق تجارية كثيرة . كما ان هذا التحول يرمز الى
التغيير الذي اصاب الدولة : فبعد ان كانت دولة وراثية على النهج
البيزنطي ، اصبحت امبراطورية من امبراطوريات الشرق الاوسط
على الطراز التقليدي ، واخذت تلعب فيها المؤثرات الشرقية
القديمة ، وبرزها الفارسية ، دوراً يقوى مع الزمن .

وقد ادى تغير الاسرة الحاكمة الى اتمام تنظيم الدولة الذي بدأ
في زمن الامويين . فبعد ان كان الخليفة مجرد شيخ قبيلة يستمد
سلطانه من رضى الطبقة العربية الحاكمة الممنوح عن غير طيب
خاطر ، اصبحت حاكماً او توراتياً يدعي ان سلطانه مقدس ، ويدعم
هذا السلطان بجيش نظامي مسلح ، ويتخذ هيئة طبقية من الموظفين
لتنفيذه . ويتمثل ازدياد اهمية القوة ، كعنصر من عناصر السلطان ،

في المكانة الهامة التي يتمتع بها الجلاد في البلاط العباسي . والجلاد معروف عند قراء الف ليلة وليلة . واصبحت وسيلة التقدم في النظام الجديد هي رضی السلطان لا النسب ، وحلت جماعات الموظفين محل الارستقراطية العربية . وتمثلت هيبة الخليفة في ألقابه الجديدة . ولم يعد خليفةً لرسول الله ، بل أصبح خليفة الله ، وادعى انه يستمد سلطانه منه مباشرة . وتظهر هذه الفكرة في اللقب الطنان الذي اتخذته الخليفة وهو « ظل الله على الارض » . وبينما كان الخلفاء الأولون عرباً كغيرهم وفي استطاعة من شاء ان يتصل بهم وان يخاطبهم بأسمائهم المجردة ، أحاط الخلفاء العباسيون انفسهم بالأبهة والمراسم التي كانت تلازم اي بلاط طبقي . واصبح الاتصال بهم لا يتم الا عن طريق عدد من الحجاب . وكان الخليفة لا يزال من الناحية النظرية ، خاضعاً لأحكام الشريعة وهي قانون الاسلام المقدس . إلا ان هذا الحد من سلطانه لم يكن ذا أثر من الناحية العملية ، وذلك لعدم وجود وسيلة أخرى لفرضه غير الثورة . وهكذا أصبحت الخلافة العباسية حكماً مطلقاً يستند الى القوة العسكرية ويدعي لنفسه حقاً إلهياً مقدساً . وكانت الخلافة العباسية أقوى من الاموية من حيث ان العباسيين لم يعتمدوا على مناصرة العرب لهم ، الامر الذي جعلهم يفرضون حكمهم دون اللجوء في الغالب الى الحجة والاقناع . وكانوا من ناحية اخرى ، أضعف من الحكومات الشرقية المطلقة من حيث انهم لم يعتمدوا على مناصرة طبقة إقطاعية راسخة وطغمة كهنوتية عريقة .

وكانت الادارة عند العباسيين تطوراً للادارة عند الامويين المتأخرين ، واعترف المنصور بدينه الكبير للخليفة الاموي هشام ابن عبد الملك في تنظيم الدولة . الا ان تأثير النظام الفارسي المعمول به ايام الساسانيين أخذ يزداد قوة ، وكثير من شعائر العباسيين تقليد معتمد للعادات الساسانية التي اصبحت معروفة في هذا الزمن عن طريق الموظفين الفرس ومما تبقى من الادب الفارسي . ولم يعد النظام الاداري العباسي قائماً على التفريق بين العناصر ، أو على أساس طائفي ، بل اصبحت طبقة الموظفين الواسعة تضم عدداً من الموالي أكبر بكثير مما كان عليه الحال قبلاً . وأصبح لهذه الطبقة مكانة اجتماعية عالية . وأدخل أفراد هذه الطبقة في عدد من الدواوين أو الوزارات بما فيها ديوان العدل ، والجيش والحاتم ، وبيت المال ، والبريد . وكان جيش الموظفين المستخدم في هذه الدواوين يخضع لاشراف الوزير . وقد أوجد العباسيون وظيفة الوزير ، وربما كانت من أصل فارسي .

وكان الوزير يرأس الجهاز الاداري كله . ولما كان هو الاداة التنفيذية الاولى بعد الخليفة فقد جمع في يده سلطة كبيرة . وكان احد الوزراء الاوائل من أهالي آسيا الوسطى ممن دخلوا حديثاً في الاسلام ، ويدعى خالد البرمكي . ثم شغل الوظيفة نفسها عدد من رجال اسرة برمك الى ان قضى عليهم هرون الرشيد سنة ٨٠٣ م .

وكان يتعاون على اقامة السلطة في الولايات الامير أو الوالي ،

والعامل أو المراقب المالي ، والى جانبها موظفوها وجندهما .
ومارس هذان نوعاً من الحكم الذاتي خاضعاً لمراقبة صاحب
البريد الذي كان من واجبه ان يبعث بتقارير عما يحدث الى
ديوان البريد والاخبار مباشرة .

وفقدت طبقة المحاربين في الجيش ما كان لها من الاهمية ،
وانقطع عن افرادها العطاء شيئاً فشيئاً ، ولكنه ظل يدفع للجنود
النظاميين . وأصبح الجيش يتألف من فرق تدفع لافرادها
الرواتب ، وبعض هذه الفرق كانت تظل تحت السلاح ، وبعضها
كان يتألف من متطوعين يشتركون في حملة واحدة . وكانت
نواة الجيش تتألف من الحرس الخراساني المخلص ، دعامة الدولة
الجديدة . واستخدمت ، خلال فترة من الزمن ، فرق عربية
انتخب افرادها من بين المخلصين للدولة ، وعرفت باسم « عرب
الدولة » . لكنها سرعان ما فقدت اهميتها ، وصار اكثر رجال
الجيش عبيداً يدربون خصيصاً للجيش ، ويعرفون باسم « المماليك » .
واكثر هؤلاء العبيد من اصل تركي ، من آسيا الوسطى .

ولما كان العباسيون قد وصلوا الى السلطان على رأس حركة
دينية ، فقد سعوا الى الاحتفاظ بمناصرة الشعب لهم ، وذلك
بالتأكيد على مظهر سلطانهم الديني . ونلاحظ ان الخلفاء العباسيين
الاولاء كانوا على الدوام يقربون اليهم زعماء الدين والفقهاء ، وانهم
كانوا يحرصون كثيراً ، بين الشعب على الاقل ، على مراعاة آداب
الدين وشعائره . ويقول في هذا ابن الطقطقي « ان هذه الدولة
ساست العالم سياسة مزوجة بالدين والملك . فكان اختيار الناس

وصلحواؤهم يطيعونها تديناً والآخرون يطيعونها رهبة او رغبة . «
وكان من شأن التنظيم الديني أن ملاءم الثغرة التي تركها تفكك الوحدة
العربية العنصرية ، وان أصبح هو الرابط بين عناصر السكان المختلفة
من بشرية واجتماعية . ونتج عن اهتمام العباسيين المتعاطف بأمر طابع
مجتمعهم وسلطانهم الديني ان اتهموا كثيراً بالنفاق ، كما دفع احد
الشعراء الى ان يقول :

« ياليت جور بني مروان عاد لنا

ياليت عدل بني العباس في النار »

ونرى في حياة الامبراطورية العباسية الاقتصادية طبيعة
التغيرات التي أحدثتها الثورة في اوضح صورها . فقد كان تحت
تصرف الامبراطورية موارد غنية . وكان القمح والشعير والارز
بحسب ترتيبها هي الحاصلات الرئيسية لأودية الانهار العظيمة ، بينما
كان التمر والزيتون يؤلفان اهم الاطعمة الثانوية . وتوفرت
المعادن ايضاً لدى الدولة . فكانت الفضة ترد من الولايات الشرقية
وخاصة من هندو كوش حيث استخدم عشرة آلاف من عمال
المناجم ، كما يقول واحد من مؤرخي القرن العاشر ، من قبل
اصحاب رؤوس الاموال . وكان الذهب يرد من الغرب ، وخاصة
من النوبة والسودان ، والنحاس من منطقة اصفهان حيث كانت
مناجم النحاس تدفع في القرن التاسع ضريبة تبلغ خمسة آلاف
درهم ، والحديد من فارس وآسيا الوسطى وصقلية . وكانت
الاحجار الكريمة موجودة في نواح كثيرة من الامبراطورية .
وكانت اللآلئ تجلب من مغاصات اللؤلؤ الغنية في الخليج الفارسي .

أما الحطب فكان قليلاً ، إلا أنه كان متوفراً ، إلى درجة ما ، في الشرق . وعن طريق حركة الاستيراد الواسعة كانت المؤن تجلب من الهند وما وراءها .

وقام العباسيون بأعمال الري على نطاق واسع ، فوسعوا مساحة المنطقة المفلوحة ، وعملوا على تخفيف المستنقعات . ويذكر المؤرخون أنهم نجحوا في هذا المضمار . وزادت الثورة من حقوق الفلاحين الملكية ، وأوجدت نظاماً لفرض الضرائب أكثر مساواة ، فأصبح الفلاحون يدفعون نسبة مئوية من المحصول ، بعد أن كانوا يدفعون مقداراً ثابتاً منه . ومع هذا فقد ظلت حالة الفلاحين سيئة ، بل زادت سوءاً مع الزمن ، وذلك بسبب استغلال التجار والملاكين لهم ، وبسبب تسخير العبيد في المزارع الكبيرة ، مما أدى إلى تدهور أحوال العمال الاقتصادية والاجتماعية .

وتقسيم موسوعة اسلامية من العصر الوسيط الصناعة والمهن إلى مجموعتين : أولاهما رئيسية وهي التي تدخر للناس حاجاتهم الأساسية ، وثانيها ثانوية أو كإلية . وتنقسم الأولى إلى الطعام والسكن والملبس . وكانت صناعة الملابس أرقى صناعات الامبراطورية الاسلامية ، وصناعة النسيج أهم الصناعات ، إذا أخذنا بعين الاعتبار عدد المستخدمين في هذه الصناعة وكمية الانتاج . وقد بدأت هذه الصناعة زمن الامويين واتسع نطاقها زمن العباسيين . فصارت تصنع جميع انواع البضائع للاستهلاك المحلي وللتصدير - مثل القطع الصغيرة ، والملابس ، والسجاجيد ، والاقمشة المطرزة ، والمفروشات والوسائد الخ . . وكان الكتان

يصنع اكثره في مصر ، حيث قام الاقباط بدور هام في صناعته ،
وذلك في المراكز الرئيسية الثلاثة ، وهي دمياط ، وتنبس ،
والاسكندرية . وكان القطن في الاصل يستورد من الهند الا
انه اصبح ، في زمن وجيز ، يزرع في شرق فارس ، وانتشرت
زراعته غرباً حتى الاندلس . وتركزت صناعة الحرير ، التي
اقتبست من الامبراطوريتين البيزنطية والساسانية ، في الولايتين
الفارسييتين جرجان وسيستان . أما صناعة السجاد فكانت في كل
مكان تقريباً ، إلا ان صناعة طبرستان و ارمينية كانت تعتبر
افضلها . وكان تنظيم الصناعة يخضع بعضه لاشراف الدولة ، والبعض
الآخر يقوم به الافراد . وكانت الحكومة منذ او اخر زمن
الامويين قد أقامت مصانع ومراكز صناعية لانتاج « الطراز »
وهو القماش الذي كان يستعمل لصنع البسة الحكام والحلل الرسمية
التي كانت تخلع على كبار الموظفين وقادة الجيوش وكان نظام
الانتاج العادي داخلياً ، فكان في استطاعة الصناع ان يبيعوا
إنتاجهم إما لوكلاء الدولة أو لأحد المتعهدين الذين كانوا يمولونهم .
وفي بعض الحالات ، كان الصناع يعملون لقاء راتب معين ، وكان
الواحد منهم ، على ما بلغنا ، يتقاضى في مصر في القرن التاسع
أجرأ قدره نصف درهم في اليوم .

وتقول الروايات ان الورق صنع لأول مرة في الصين سنة
١٠٥ ق . م . وفي سنة ٧٥١ ب . م . انتصر العرب على بعض
الفرق العسكرية التابعة للجيش الصيني شرقي نهر سيحون فكانت
بين من أسروا عدد من صناع الورق الصينيين ، فأدخلوا صناعة

الورق الى العالم الاسلامي . وفي زمن هرون الرشيد أدخلت
صناعته الى العراق . ومع ان استعمال الورق انتشر بسرعة في
انحاء العالم الاسلامي ، ووصل مصر في ٨٠٠ م ، والاندلس في
سنة ٩٠٠ م ، فقد انحصرت صناعته في البداية في الولايات الشرقية
التي استخدمت الورق قبل غيرها من انحاء الامبراطورية . ومنذ
القرن العاشر وما بعده نجد شواهد واضحة على قيام صناعة الورق
في العراق وسورية ومصر ، وحتى في شبه جزيرة العرب . وعقب
ذلك قيام معامل لصنع الورق في شمال افريقية واسبانيا . وبين
مراكز صناعة الورق المعروفة سمرقند ، وبغداد ، وطرابلس
من أعمال سورية ، وفاس في مراكش وبلنسية في الاندلس .
وقامت صناعات اخرى من بينها الفخار والمصنوعات المعدنية
والصابون والروائح العطرية .

ويسرت موارد الامبراطورية من تجارة المرور ذات الاهمية
الحيوية بين أوروبا والشرق الاقصى ، اتساع نطاق التجارة
وتقدمها . وساعد على هذا أيضاً توطيد النظام الداخلي واستتباب
الامن وانشاء علاقات سلمية مع البلاد المجاورة بدلاً من حروب
الفتح الدائمة التي قام بها الامويون .

كانت تجارة الامبراطورية واسعة النطاق . فكان التجار
المسلمون يسافرون من موانئ الخليج الفارسي وهي سيراف
والبصرة والابلة ، ومن عدن وموانئ البحر الاحمر ، احياناً ،
الى الهند وسيلان وجزر الهند الشرقية والصين فيجلبون الحرير
والاطياب والعطور والاشباب والتصدير وغيرها ، وذلك

للاستهلاك الداخلي وللتصدير . وكانت هناك طرق اخرى يسلكها
التجار الى الهند والصين تسير براً عبر آسيا الوسطى . ويأتي
احد المصادر على ذكر البضائع التي كانت تجلب من الصين : مثل
الحبر والبضائع المصنوعة منه ، والآنية والورق والحبر والطواويس
والحيول ، والاسرجة ، واللباد ، والقرقة ، والداوند ، والادوات
الذهبية والفضية ، والنقود الذهبية والعقاقير ، والانسجة المشجرة ،
والاماء ، والحلى ، والاقفال ، ومهندسي الماء والزراعة ، والحجارين ،
والحُصيان . وكانوا يجلبون من الهند النمرور والفهود والفيلة ،
وجلود النمرور ، والياقوت ، وخشب الصندل الابيض ، وخشب
الأبنوس ، وجوز الهند . ويتضح لنا من قراءة كشف المسلمين
البحرية التي وصلت الينا ان الملاحين المسلمين كانوا قد عرفوا
البحار الشرقية معرفة تامة ، وقد استقر بعض التجار من العرب
في الصين منذ القرن الثامن للميلاد .

ووجد في اسكندينايا ، وفي السويد خاصة ، عشرات الآلاف
من النقود الاسلامية تحمل نقوشاً يرجع تاريخها إلى زمن بين
اواخر القرن السابع واوائل القرن الحادي عشر . وهي تعين لنا
فترة ازدهار التجارة الاسلامية . وما وجد من قطع النقد على
طول مجرى الفولغا (إتل) يؤيد ما في المصادر الأدبية من شواهد
على قيام تجارة واسعة بين الامبراطورية الاسلامية وبلاد البلطيق
عبر بحر الخزر والبحر الاسود والروسيا . واهم ما كان العرب
يأخذونه من هذه البلاد هو الفراء والعنبر . ويورد لنا الجغرافي
العربي ، المقدسي ، قائمة شاملة لما كان العرب يجلبونه من هذه

البلاد ، يذكر فيها : « السمور والسنجاب وقاقون وفنك ودله
والثعالب وخزبوست وخر كوش ملون وبربوست والشمع
والنشاب والتوز والقلائس وغرا السمك واسنان السمك ، وخزميان
وكهروا والكيمخت والعسل والبندق وابوتز والسيوف والدروع
والخلنج والرقيق ... والاغنام والبقر » .^١

ولا يحتمل ان يكون العرب قد وصلوا الى اسكندينايا ،
والارجح انهم كانوا يلتقون مع اهل الشمال في روسيا حيث كان
الحزر والبلغار القاطنون على القولغا يقومون بدور الوسطاء .
وتبدو لنا اهمية التجارة العربية مع الشمال بصورة اوضح في الحقيقة
التالية : وهي ان اقدم النقود السويدية المعروفة اساسها الدرهم ،
وان كلمات عربية كثيرة موجودة في الادب الايسلندي القديم .
وقامت ايضاً بين العرب واهل افريقية تجارة برية واسعة ،
واهم السلع التي كان الأولون يجلبونها من افريقية هي الذهب
والعبيد . وتوقفت التجارة في بادئ الامر مع غرب اوروبا بسبب
الفتوح الاسلامية ، لكنها استؤنفت على يد اليهود الذين كانوا
حلقة الوصل بين العالمين المتعادين . ويقول ابن خرداذبة ، احد
جغرافي القرن التاسع ، عن تجار اليهود من جنوب فرنسا : « الذين
يتكلمون العربية والفارسية واليونانية والفرنكية والاندرلسية
والصقلبية وانهم يسافرون من المشرق الى المغرب ، ومن المغرب
الى المشرق براً ومجراً ، يجلبون من المغرب الحدم والجواري

(١) انظر المقدسي « احسن التقاسيم » تحرير دي غويه (لیدن، ١٩٠٦)

والغلمان والديباچ وجلود الخنز والفراء والسمور والسيوف ،
ويركبون من فرنجية في البحر الغربي فيخرجون بالفرما ، ويحملون
تجارتهم على الظهر الى القلزم ، وبينهما خمسة وعشرون فرسخاً ،
ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم الى الجار وجدة ، ثم يمضون
الى السند والهند والصين ، فيحملون من الصين المسك والعود
والكافور والدار صيني ، وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي
حتى يرجعوا الى القلزم . ثم يحملونه الى الفرما ، ثم يركبون في
البحر الغربي ، فربما عدلوا بتجارتهم الى القسطنطينية فباعوها من
الروم ، وربما صاروا بها الى ملك فرنجية فيبيعونها هناك .

« وان شاؤوا حملوا تجارتهم من فرنجية في البحر الغربي ،
فيخرجون بأنطاكية ويسيرون على الارض ثلاث مراحل الى
الجابية ، ثم يركبون في الفرات الى بغداد ، ثم يركبون في دجلة
الى الأبله ، ومن الأبله الى عمان والسند والهند والصين . . . »

وإذا كانت الدولة قد اولت الصناعة بعض العناية والتشجيع
لأغراض مالية بوجه خاص ، فإنها لم تساعد التجارة . وحتى فيما
يختص ببعض الامور مثل المحافظة على الطرق لم تعمل الدولة الا
القليل لتنمية التجارة . وعلى هذا كان التجار يضطرون الى الدخول
في نزاع دائم مع طبقات الموظفين التي كانت تعدي على حقوقهم .
وكان عمل الدولة في الميدان الاقتصادي مقصوراً في بادئ الامر
على اصدار قانون يقضي بحظر المضاربات التجارية في اقوات الشعب
الضرورية ، الا ان هذا القانون لم ينفذ تنفيذاً فعالاً ، وعهد بتنفيذه
الى المحتسب ، وهو احد موظفي المدن ، ووظيفته الاشراف على

الاسواق والتأكد من وجود انواع جيدة من المواد والصناعات
ومن استعمال الاوزان الصحيحة . وبدأت الدولة في تاريخ متأخر
تتدخل بصورة مباشرة اكثر في التجارة ، وحتى لقد شرعت تتبعر
ببعض المواد وتحتكرها لنفسها .

وادی نمو التجارة واتساع نطاقها الى ظهور المصارف وتطورها
في القرن التاسع . وفي البدء لم تكن النقود الفضية والذهبية
مستخدمة في الامبراطورية الاسلامية في المعاملات الاقتصادية ،
فكان الدرهم الفضي الفارسي متداولاً في الولايات الشرقية ،
والدينار البيزنطي الذهبي متداولاً في الغرب . وابقى الخلفاء على
هذه العملة ، ولكنهم حددوا وزن الدرهم ، فجعلوه ٢,٩٧ من
الغرام ، ووزن الدينار فجعلوه ٤,٣٥ من الغرام . وعلى الرغم من
المحاولات الكثيرة التي بذلت لتثبيت النسبة بين قيمة كل من
النوعين ، فانه كان لا بد من تغييرها عند تغير قيمة المعدن في كل
منهما . واصبح الصراف جزءاً أساسياً من كل سوق اسلامي .
وتحول الصراف في القرن العاشر الى صيرفي واسع الاعمال . وكان
يسنده - دون شك - اغنياء التجار الذين كانوا يستثمرون اموالهم .
ونقرأ في المصادر عن مصارف كانت بغداد مركزها الرئيسي ،
ولها فروع في غيرها من مدن الامبراطورية ، كما نقرأ عن نظام
راقٍ للصفوك (مفردها صك ومنها الكلمة الاجنبية) والحوالات
المالية امكن معه كتابة حوالة مالية في بغداد وقبض قيمتها في
مراكش . ونقرأ كذلك أن كل تاجر في البصرة ، وكانت المركز
الرئيسي للتجارة الشرقية المزدهرة ، كان له حساب في احد المصارف ،

وان طريقة الدفع كانت بتحرير حوالة مالية لا بالنقد . ووجدت في القرن العاشر مصارف حكومية تحمل اسم « صيارفة الحضرة » وهم الذين كانوا يقدمون للحكومة ما تحتاجه الادارة من مبالغ طائلة مقابل رهن الضرائب غير المحصلة . واذ كان تقاضي الفائدة المالية محرماً على المسلمين فقد كان معظم الصيارفة من اليهود والمسيحيين .

وانعكست الحياة التجارية المزدهرة لذلك العصر على تفكيره وأدبه : فاعتبر التاجر المستقيم مثلاً اعلى للنموذج الخلقى . ويروى عن النبي أقوال مثل : « التاجر الامين الصدوق المسلم مع الشهداء يوم القيامة » و « التاجر الصدوق تحت ظل العرش يوم القيامة » . ويشك كثيراً في ما ينسب الى الخليفة عمر ومؤداه أنه لا مكان يسره أن يفاجئه الموت فيه افضل من السوق بينما هو يبيع ويشترى لأسرته . ويشير الجاحظ في مقال له عنوانه « في مدح التجار وذم عمل السلطان » الى ان رضا الله عن اتخاذ التجارة وسيلة للحياة يؤيده وقوع اختياره على جماعة قريش التجار وجعله رسالته فيهم . ويشتمل ادب هذا العصر على صور للتاجر المستقيم المثالي وعلى نصائح حمة للذين يستثمرون اموالهم في التجارة ، وبين هذه النصائح قواعد ، إحداها تقول بأنه على التاجر الا يضع رأس ماله في أشياء طلب الناس لها محدود ، مثل الجواهر التي لا يطلبها الا اهل اليسار ، ومثل الكتب العلمية التي لا يطلبها غير العلماء ، وهؤلاء قلة من الفقراء . ولا بد ان تكون هذه القاعدة بعينها قد صدرت عن كاتب ذي خبرة نظرية اكثر منها عملية ، وذلك لان الشواهد

بوجه عام على ان الذين كانوا يتعاملون بالسلع الكهالية الثمينة مثل الجواهر والبضائع القطنية الجميلة هم اوفر الناس حظاً من الغنى والاحترام .

ولقد احدثت هذه التغييرات الاقتصادية كلها تغييرات اجتماعية مشابهة ، وأوجدت قائمة جديدة بالعلاقات بين عناصر السكان البشرية والاجتماعية . فقد سقطت طبقة المحاربين العرب التي انقطع عن أفرادها ما كانوا يتلقونه من منح مالية من صندوق الدولة ، وحرموا من امتيازاتهم .

ونجد منذ الآن ان مؤرخي العرب لا يأتون على نزاعات العرب القبلية الا في النادر . وليس معنى هذا ان هذه النزاعات أخذت بالقوة ، اذ حتى في القرن التاسع عشر حدثت نزاعات في سورية بين قيس و كلب ، بل يعني ان الارستقراطية العربية فقدت القدرة على التدخل في الشؤون العامة والتأثير فيها ، وان ما كان يحدث فيها من خصومات ونزاعات لم يعد له اهمية كبيرة . ومن الآن فصاعداً صار عرب القبائل يهجرون الامصار ، فعاد بعضهم الى الحياة البدوية ، التي لم يحدث ان هجروها هجراً مطلقاً ، واستوطن الآخرون في الاراضي المنزرعة . وتغير طابع المدينة الاسلامية ، فبعد ان كانت احدى عواصم الغزاة الفاتحين اصبحت سوقاً تجارية ، وبدأ التجار والصناع في هذه المدن يؤلفون النقابات من اجل تبادل المعونة وللدفاع عن مصالحهم .

بيد ان العرب لم يفقدوا سيادتهم بالكلية . فكانت معظم الوظائف العليا في البداية بيد العرب . وكانت الاسرة العباسية لا

تزال عربية تفخر بعروبيتها ، وكانت اللغة العربية لا تزال
لغة الحكومة والثقافة الوحيدة . وكانت سيادة العرب
النظرية ما تزال معترفاً بها ، وقد ادت هذه السيادة
الى ظهور حركة الشعوبية في الدوائر الادبية والفكرية
التي كانت تعرض مطالب غير العرب في المساواة مع العرب .
الا ان تغييراً هاماً أخذ يطرأ على مدلول كلمة « عربي » .. فمذ
الآن لم يعد العرب طبقة وراثية مقفلة بل أصبحوا شعباً مستعداً
لقبول اي مسلم يتكلم العربية ، على نحو قريب من منح الجنسية
واحداً منهم . واصبح تحرير الموالي الاجتماعي يتم بطريق قبول
العرب التام لهم كعرب ، وحتى لقد استعرب حرس الخلفاء
الخراساني استعراباً تاماً . وكان يساعد على حركة الاستعراب
في الولايات الواقعة غربي فارس انتشار العرب المسرحين من
الخدمة في الجيش ، وسيادة اللغة العربية في المدن وانتقالها منها
الى ما حولها من المناطق الريفية . ويشهد على نمو هذه الحركة قيام
أول ثورة عربية قبطية في مصر سنة ٨٣١ م . وحتى لقد أخذ
المسيحيون واليهود في العراق وسورية ومصر وشمال افريقية اخيراً
يتكلمون العربية . واصبح اصطلاح « عربي » نفسه يقتصر ،
حسب الاستعمال الدارج بين العرب ، على الرجل .
وحلت مكان الارستوقراطية العربية في الامبراطورية الجديدة
طبقة حاكمة جديدة تضم الاثرياء والعلماء . وفي اغلب الاحيان
كان الأولون يملكون ثروات طائلة من النقد والاملاك ، جمعوها
في اثناء وجودهم في الوظائف الحكومية التي كانت تهيم لصاحبها ،

بالإضافة الى ضخامة المرتب ، فرصاً واسعة للكسب الاضافي من التجارة ، واعمال المصارف والصفقات التجارية ، ومن استغلال الارض بامتلاكها او بفرض الضرائب عليها ، او بضمان هذه الضرائب . ومن الامثلة على هذا ما جاء في احد المصادر عن شاب كان ينتمي الى اسرة تشغل مركزاً رسمياً . استثمر هذا الشاب مبلغ اربعين الف دينار كان قد ورثها . فصرف ألفاً منها في اعادة بناء بيت متداع تركه له ابوه ، والفين في شراء الاثاث والملابس والأماء وغيرها من وسائل الترف ، وأعطى ألفين لتاجر موثوق به ليتاجر له بها ، وأخفى عشرة آلاف في الارض لوقت الحاجة ، واستوى بالعشرين ألفاً الباقية قطعة من الارض يعيش على دخلها . ويتسع المجال هنا لذكر شيء عن مكانة اهل الذمة ، رعايا الامبراطورية من غير المسلمين .

بالغ بعض الكتاب ، الذين جسّموا تسامح الحكومة الاسلامية غير المشكوك فيه ، مع اهل الذمة ، فذكروا أنها منحتهم المساواة التامة ، كما بالغوا في الاسادة بوضعهم . والحق ان هؤلاء كانوا مواطنين من الدرجة الثانية . فكانوا يدفعون قدرأً من الضرائب أعلى مما يدفعه المسلم ، وكانوا محرومين من الامتيازات ، وتعرضوا في حالات قليلة للاضطهاد . لكن وضعهم ، على العموم ، كان أفضل بكثير من وضع تلك الجماعات التي كانت على خلاف مع الكنيسة الغربية في غرب أوروبا في الفترة نفسها . فقد كانوا يمارسون عبادتهم بكل حرية ، وكانوا يتمتعون بحقوق الملكية العادية ، وكثيراً ما كانوا يستخدمون في وظائف الدولة ،

وكانوا في الغالب يشغلون أعلاها . وسمح لهم بدخول نقابات
المهن ، وسيطروا على بعضها ، ولم يجدوا انفسهم مجبرين على
الاستشهاد ، كما انهم لم يتعرضوا للنفي ، في سبيل معتقداتهم
وأولى علائم اضمحلال هذه الحضارة القوية كانت في تداعي بناء
وحدتها السياسية . وكانت الامبراطورية التي بناها المنصور حتى
زمن هرون الرشيد (٧٧٦ - ٨٢٩) ، الذي يعين لنا من نواح
كثيرة الاوج الذي بلغه سلطان العباسيين ، تبدو وطيدة الاركان
على الرغم من الهزات التي كانت تعترها بسبب الثورات . وحرص
العباسيون الاوائل على دوام التحالف بينهم وبين جناح الحركة
الذي كان يتألف من ارستقراطي فارس ، والذي أوصل العباسيين
الى السلطان ، وبينهم وبين آل برمك من نبلاء الفرس الذين لعبوا
دوراً أساسياً اثناء تقلدهم منصب الوزارة . وفي زمن هرون
الرشيد حدث اضطراب يكتنف اصوله والظروف التي احاطت
به الغموض ، وانتهى بسقوط البرامكة وضياع سلطانهم واموالهم ،
والقضاء عليهم فيما اصبح يعرف في التاريخ بنكبة البرامكة . وبعد
موت هرون الرشيد تحول الصراع المكتوم بين الامين والمأمون
الى حرب اهلية سافرة . وبينما كانت قوة الامين الرئيسية في بغداد ،
كانت قوة المأمون الرئيسية في فارس . وقد فسرت الحرب
الاهلية بينهما ، اعتماداً على بيئة مشكوك فيها ، على انها صراع
قومي بين العرب والفرس انتهى بانتصار الفرس . والارجح انها
كانت استمراراً للنزاعات الاجتماعية السائدة في العهد السابق
لهذه الفترة مباشرة ، بمزوجة بصراع اقليمي ، أكثر منه

قومياً ، بين فارس والعراق . وقد فكر المأمون ، الذي كان معظم انصاره في الولايات الشرقية ، في نقل العاصمة من بغداد الى مرو في خراسان . وقد دفع هذا التهديد لمكانة بغداد الحيوية واسباب عيش اهلها ، سكانها الى الالتفاف حول الامين والاستماتة في الدفاع عنه ضد الغزاة . . ومع ان النصر كان حليف المأمون فقد اظهر حكمة في الابقاء على بغداد كعاصمة للدولة ، وكملتقى للطرق التجارية العظيمة .

ومن ثم وجدت المطامح الارستقراطية والاقليمية الفارسية متنفساً لها في قيام الاسر المحلية الحاكمة . ففي سنة ٨٢٠ م نجح احد قواد المأمون الفرس ، ويدعى طاهر ، في الاستقلال عن الدولة في شرقي فارس ، واسس حكومة جعلها وراثية في اسرته . وسرعان ما قامت أسر غيرها ، مثل الصفاريين حوالي ٨٦٧ م والسامانيين حوالي سنة ٨٩٢ م ، بتوطيد سلطانتها في اجزاء اخرى من فارس . وكانت هذه الحكومات مختلفة في طوابعها . فالدولة الطاهرية قامت على اكتاف قائد طموح اتخذ الامارة لنفسه ، ولكنه ظل بوجه عام في نطاق الحضارة الاسلامية العربية . وبينما كان الصفاريون يمثلون فورة حركة فارسية شعبية ، عادت الارستقراطية الفارسية الى سلطانتها السياسي ، واصبحت تتمتع بامتيازاتها السابقة كاملة في ظل السامانيين .

اما في الغرب ، فقد بدأ التفكك السياسي قبل ذلك بزمن . فقد كان نقل العاصمة الى الشرق سبباً في اهمال الدولة شؤون الولايات الغربية . وادى هذا في النهاية الى ضياع سلطانتها في هذه

الولايات. واستقلت إسبانيا في سنة ٧٥٦م، ومراكش في سنة ٧٨٨م وتونس في سنة ٨٠٠م تحت حكم أسر محلية. وانفصلت مصر عن الدولة في سنة ٨٦٨م، وذلك عندما نجح احمد بن طولون، وهو مملوك تركي أرسل من بغداد إلى مصر، في الاستقلال عن الدولة. وفي توسيع ملكه عقب ذلك مباشرة وذلك باستيلائه على سورية. وتلا سقوط الطولونيين قيام أسرة حاكمة تركية اخرى في مصر. ونتج عن قيام حكومة مستقلة في مصر تخضع لها سورية معظم الوقت، وجود منطقة محايدة بين سورية والعراق اتاحت للقبائل العربية في الشام وعلى تخومها ان تستعيد استقلالها الذي فقدته بعد سقوط الدولة الاموية. بل استطاعت هذه القبائل احيانا ان تستولي على المدن في فترات ضعف الدولة العسكري او تفككها وان تقيم اسراً حاكمة لامعة على الرغم من قصر مدة حكمها، مثل اسرة الحمدانيين في الموصل وحلب في القرن العاشر. واصبح سلطان الخليفة المباشر يقتصر على العراق. وكان عليه، فيما يختص بباقي انحاء الامبراطورية ان يكتفي بجزية تدفع له في المناسبات، وان يقنع باعتراف الاسر الوراثية المحلية به اعترافاً اسمياً، فيذكر اسمه في خطبة الجمعة وتضرب النقود باسمه.

وطوال احتفاظ بغداد بالسيطرة على طرق التجارة الحيوية التي تسير عبرها، لم يقف التفكك السياسي عائقاً في طريق توسع الحياة الاقتصادية والثقافية، بل يظهر في بعض الاحيان انه ساعد عليه. غير انه سرعان ما ظهرت تطورات اخرى اشد خطراً، وتقلص سلطان الخليفة في بغداد نفسها. وادى ترف البلاط المفرط

وتضخم طبقة الموظفين الى حدوث اضطراب مالي ونقص في النقد .
وزاد في حدة الازمة خلو المناجم من المعادن او وقوعها في
ايدي الغزاة .

ووجد الخلفاء علاجاً لازمة في تضمين موارد الدولة ، واصبح
الحكام المحليون آخر الامر هم جامعي هذه الموارد . وكان عليهم
ان يدفعوا للحكومة مبلغاً معيناً من المال ، وان يصرفوا على
جيوش ولاياتهم وموظفيها . فأصبح هؤلاء الموظفون ، اي جامعوا
الضرائب ، حكام الامبراطورية الحقيقيين ، كما غدوا قواد الجيوش
وفقد الخلفاء بالتدريج ، منذ ايام المعتصم (٨٣٣ - ٨٤٢) والواثق
(٨٤٢ - ٨٤٧) سيطرتهم على قادة الجيش والحرس . واصبح
في مقدور هؤلاء ، كما حدث كثيراً ، ان يعينوا الخلفاء وان
يعزلوهم . وكان هؤلاء القادة والحرس يتألفون الى حد كبير من
المماليك والاتراك .

وفي سنة ٩٣٥ م استحدثت وظيفة « أمير الامراء » او قائد
القواد إشارة الى ان صاحبها أعلى مركزاً من باقي القواد في
العاصمة . وأخيراً غزت الأسرة البويهية الفارسية سنة ٩٤٥ ميلادية
التي كانت قد أسست لنفسها حكومة مستقلة في غرب ايران ،
العاصمة ، وقضت على ما تبقى للخليفة من علامات الاستقلال .
وأصبح الخلفاء ، من الآن فصاعداً ، باستثناء بعض الفترات ، تحت
رحمة سلسلة من حجاب القصر أكثرهم من الفرس او الاتراك ،
جمعوا في أيديهم أزمة الحكم ، واستندوا في تنفيذه على ما تحت
إمرتهم من جيوش مسلحة . وعلى الرغم من ان الخليفة احتفظ

بمكانته كحاكم أعلى للإسلام ، أي كرئيس للدين والدولة ، وبعبارة
أصح بمزيج من الاثنين ، وأنه احتفظ بجلال هذا المركز ، فإنه
كان قد فقد سلطانه الحقيقي . وليس تقليده السلطة للقواد والحكام
سوى اعتراف رسمي شكلي بما جرت عليه العادة .

الفصل السادس

ثورة الاسلام

« وذات مرة نزلت الى أحد شوارع بغداد العامرة بالحركة
حيث كانت الجماعات تهلل فرحة بالعمل الجديد . . . »
(رامبو : الاضواء)

كان من شأن التطور الاقتصادي السريع الذي حدث في
الشرق الأدنى والاطراف خلال القرون التي عقيبت قيام الخلفاء
العباسيين أن تعرض البناء الاجتماعي للامبراطورية لسلسلة من
الازمات والضائقات الخطرة تولدت منها كثير من حركات التدمير
والثورة السافرة ضد النظام القائم . وترجع هذه الحركات الى
أصول أهمها الاقتصادية والاجتماعية ، وكانت لبعضها صبغة قومية .
وعلى الرغم من تباين أسبابها وظروفها فقد كانت تشترك في أنها
كلها تقريباً ظهرت متمسحة بثوب ديني . فكان كلاًها أوجد السخط
او تضارب المصالح حزباً اسلامياً ، جعل هذا الحزب تعاليمه
عقيدة ، وأداته طائفة ، ووكيله داعية ، وزعيمه (كما جرت
العادة) إماماً هادياً او نائباً له . غير ان وصف هذه الحركات

الخارجة على الدين والمبتقة من اسباب اجتماعية ، بأنها «أوشحة» ،
او «أقنعة» كان مدبرو الخطط يخفون وراءها اغراضهم الحقيقية
والمادية ليخدعوا الفئة المتدينة ، ليس الا ضرباً من تشويه التاريخ .
فالحكومة الاسلامية التي ولدت من جماعة محمد في المدينة ، والتي
غذتها ملكيات الشرق القديمة المقدسة ، كانت من الناحية النظرية ،
وفي تصور الناس لها ، حكومة دينية . وكان المصدر الاوحد
للسلطان والقانون فيها هو الله ، كما أن حاكمها كان نائب الله على
الارض . وكانت العقيدة هي الدستور الاساسي للنظام القائم ، كما
كانت العبادات هي الرمز الخارجي المنظور لوحدها وتماسكها .
وكان العمل بموجب هذه العقيدة والعبادات ، مهما كان ظاهرياً ،
برهاناً مانعاً على الاخلاص . وكان الدين عبارة عن قبول النظام
القائم ، وكان المروق على الدين والاحاد هو التنديد بهذا النظام
ورفضه .

في مجتمع قائم على هذا النحو ، ، يمتزج الدين بالدولة في بناء
حكومته وفي عقول رجال الدين وإحساسهم بشكل يصعب معه
التفريق بينهما ، كان لا بد للدين وللقضايا الدينية من ان تلعب
الدور الذي تلعبه السياسة في عالمنا الحاضر . وكان لا بد لكل
حركة ، مهما تكن دوافعها ، من ان تبحث في الدين لا عن قناع
لها بل عن تعبير حيوي ضروري واصطلاحات اجتماعية الأمامية
والآمال التي دغدغتها ، والمظالم التي أذكت حقدتها .

ولم تخلُ الحال من حوادث ساذجة - فمن انقلابات
في البلاط وفتن عسكرية في فترات الضعف السياسي

الى ثورات فلاحين ، وحوادث شعب في المدن في فترات
الازمات الاقتصادية . إلا أن هذه الحركات لم تكن متتابعة ،
بل كانت تقوم بين حين وحين ، وفي أغلب الاحيان لم تكن
منظمة ، بل كانت بنت ساعتها ومكانها وظروفها المباشرة ، كما
ان اهميتها كانت تقتصر في الغالب على القائمين بها . وكان كلما
حاول فريق من الناس أن يقوموا بتحدٍ منظم مستمر للنظام
الاجتماعي القائم كان من الامور الطبيعية والحتمية أن يجدوا
وسيلتهم في فرقة دينية ، كما يجد أشباههم في العصر الحاضر وسيلتهم
في حزب سياسي .

وكان على الخلفاء العباسيين ، منذ قيام دولتهم ، أن يواجهوا
تهديدات من هذا النوع . ففي سنة ٧٥٢ م قامت في سورية ثورة
يؤيد محدثوها مطالب الدولة الاموية الساقطة . وظلت سورية
تدين للامويين بالولاء زمناً طويلاً . وسأيرت هذه الحركة [الثورية]
منحى التطور العام ، فأخذ الفريق الموالي للبيت الاموي يتحدث
عن شخصية منقذ أموي سيعود يوماً الى العالم ليقم فيه الحكم
بالعدل . وسرعان ما اظهر الشيعة خيبة أملهم في الحكومة الجديدة
التي كانوا قد أسهموا في قيامها . وقام داعية من نسل علي يعرف
باسم « محمد ذو النفس الزكية » بتدبير مؤامرة [ضد العباسيين]
وأعلن في القدس انه هو المهدي المنتظر . فلما فشلت محاولته في
فلسطين أعادها في المدينة ، لكنه هُزم وقتل في سنة ٧٦٢ م .

وتفوق هذه الحركات كثيراً من الالهية سلسلة اخرى من
الحركات قامت في فارس ، ترتبط اصولها بالطائفة التي ظهر منها

العباسيون انفسهم . فقد قام بالثورة العباسية اتحاد من العناصر
المنوثة للامويين ، يضم المسلمين المنشقين عرباً و فرساً ، وكان
الآخرون من الطبقتين الارستوقراطية والدينا ، إلا أن عرى هذا
التحالف انفصمت عقب نجاح الثورة ، وعادت عناصره الى صراعها
السابق الذي اشتد الآن بسبب خيبة الامل والفشل اللذين منيت
بهما . وأعدم ابو مسلم الخراساني ، الذي اسهم اكثر من أي فرد
آخر في انتصار العباسيين على يد المنصور ، ثاني خلفائهم . وشاركه
هذا المصير آخرون من زعماء هذه الطائفة . وواصل الخلفاء
العباسيون اعتمادهم على مناصرة الفرس لهم ، وخاصة الخراسانيين ،
لكن حلت محل ابي مسلم وأمثاله أسرة البرامكة الارستقراطية ،
التي لعبت خلال حكم عدد من الخلفاء دوراً بارزاً في حياة العاصمة
وكفلت للحكومة تأييد الدوائر الفارسية العريقة لها .

ووجد استياء الشعوب المغلوبة متنفساً له في سلسلة من الحركات
قامت في أنحاء مختلفة من فارس ؛ وكان معظم مناصريها من بين
الفلاحين . وكانت هذه الحركات قومية من ناحيتين : الاولى ان
الحكم الذي كانوا يقاومونه كان لا يزال عربياً في نظرهم ،
والثانية هي ان الاصول الدينية لأفكارهم وتصوراتهم كانت
ايرانية . الا ان تعاليمهم لم تكن زرادشتية . ذلك ان
المتدينين من اتباع دين ايران الرسمي ، وهم افراد الطبقة
الارستقراطية الحاكمة ، كانوا قد اتحدوا موقتاً مع الحكومة الجديدة .
ولم يقيم امراء فارس ، بحركاتهم الاستقلالية ، وذلك بإنشاء إمارات
مستقلة في الولايات الشرقية ، الا زمن المأمون . واستقى هؤلاء

الثوار اكثر الهامهم الديني من إلهرطقات الايرانية القديمة التي كانت
تمثل قبل الاسلام ثورة الطبقات الدنيا والمتوسطة على دولة الساسانيين .
وكان اهمهم مزدك ، الثائر الاشتراكي الذي استطاع ، أو كاد ، ان
يقضي على الامبراطورية الساسانية في القرن الرابع . وعلى الرغم
من ان كسرى انوشروان ، أحد أباطرة آل ساسان ، سحق
حركة مزدك ، بعد أن سفكت دماء كثيرة ، فان ذكرى هذه
الحركة ظلت ماثلة في اذهان الفلاحين ، ولعبت تعاليمها دوراً
حيوياً في تكوين حركات دينية اخرى قامت في اواخر العصر
الاموي ، واستمرت خلال اوائل العصر العباسي . وبقي ابو مسلم
وذكره محطاً أنظار الثوار الفرس الذين ما فتئوا يثيرون قضيته ،
ويدعون أنهم ورثته والمطالبون بالأخذ بثأره من الخلفاء الذين
غدروا به . وكانت هذه الحركات في بداية امرها ايرانية العقائد ،
ثم أصبحت فيما بعد توفيقية ، واخذت تنشر تعاليم هي مزيج من
المزدكية والافكار الشيعية المتطرفة . وظل الزرادشتيون
المتدينون بعيدين عنها او شديدي العداة لها .

و اول شخص يستحق الذكر هو البهاء فريد ، وكان في اول
امره من أتباع زرادشت . وقد ظهر في نيسابور حوالى سنة ٧٤٩م
وادعى النبوة . وفيما عدا انه قضى خمس سنين في الصين ، بقصد
التجارة كما يظن ، فاننا لا نعرف الا القليل عن حياته الاولى . ولم
تصدر المناومة الرئيسية لحركته عن المسلمين الذين لم يكثر ثواها ،
وانما عن أتباع زرادشت المتدينين وخاصة الكهنة الذين استنجدوا
بالعباسيين لمقاومته ، والذين عملوا اكثر من غيرهم على هزيمته خلال

سنتين من الزمن .

واحدثت وفاة ابي مسلم تغييراً . فان اكثر اتباعه تطرفاً
نظموا سلسلة من ثورات الفلاحين كانت في العادة تنادي بأنه لم
يمت ، وإنما اختفى ، وانه سيعود الى شعبه . ففي سنة ٧٥٥ م ثار
سُنْبَادُ ، وهو زميل سابق لأبي مسلم وربما كان مزدكياً . ويظهر
انه جاء من قرية قرب نيسابور . وسرعان ما كسب لنفسه كثيراً
من الانصار من بين فلاحي غرب فارس بينهم زرادشتيون ومسلمون
مارقون من العقيدة . وانتشرت حركته بسرعة ، واحتل اتباعه
عدداً من المدن . وتقدر المصادر العربية عدد اتباعه بين تسعين
ومئة ألف . لكنهم سرعان ما هُزِموا حين هاجمهم جيش جرّده
عليهم المنصور . وقامت بعد سنين ثورة مشابهة بقيادة أحد وكلاء
أبي مسلم السابقين ويعرف باسم إسحق التّرك ، لأنه كان قد أرسل
لنشر العقيدة بين أتراك أواسط آسيا . وقضي عليه هو ايضاً .
وفي سنة م ٧٦٧ قاد أستاذ سيس ثورة في خراسان شكلت خطراً
كبيراً على سلامة الامبراطورية .

وأخطر من هذه الحركات كلها حركة المقتنع الذي يشكل
بالمصادفة موضوع إحدى القصص في كتاب مور المسمى
Lalla Rock . ولقب بالمقتنع لأنه كان يضع حجاباً على وجهه
ليحجب ، كما يقول أتباعه ، النور الذي يشع منه ، أو ليسترقبجه
كما يقول أعداؤه . وكان المقتنع من الفرس الهراطقة ومهنته غسل
الملابس . وبدأ بنشر تعاليمه في مرو ، ثم انتشرت حركته بسرعة
في طول خراسان وعرضها ، وفي أواسط آسيا حيث اتخذت من

بخارى معقلاً لها . وهنا أيضاً نرى بعض البيّنة على وجود ارتباط
بينه وبين مزدك وأبي مسلم . ووجدت المصادر المتدينة سبيلاً الى
اتهامه ، فاتهمته بنشر الاستوائية في الملكية والنساء وتطبيقها .
وعمرت حر كته اكثر من سابقاتها ، فاستطاعت البقاء منذ سنة
٧٧٦ الى سنة ٧٨٩ م .

وكانت اهم حركة ظهرت حتى هذا التاريخ هي حركة بابك
(٨١٦ - ٨٣٧) . واشتهر أمر هذه الحركة في الحال بسبب
انتشارها وحمودها وقيادتها وتماسكها . وكان بابك من المراهقة
وذا مواهب عسكرية وسياسية عظيمة . وكان معظم اتباعه من
الفلاحين الذين استألمهم اليه بمجته وعمله على تقسيم الاقطاعات الكبيرة
وتوزيع الارض . وتوجد بعض الشواهد على انه كسب ايضاً
مناصرة بعض الدهاقين ، وهم الطبقة الفارسية الحاكمة . وكان
هؤلاء قد انحطت منزلتهم عندئذ واصبحت لا تفوق منزلة الفلاحين
العاديين الا قليلاً . وكان مركز الحركة في آذربيجان التي يشير
اليها الجغرافي ياقوت إشارة لا تخلو من قسوة ، فيقول إنها كانت
على الدوام « بلاد فتنة وحروب »^١ ومن آذربيجان تسربت
هذه الحركة الى جنوب غربي فارس حيث انضمت اليها عناصر
كرديّة وفارسية ، ولى ولايات بحر قزوين في الشمال ، الى
أرمينية في الغرب . ويظهر أن بابك عقد في إحدى مراحل حر كته
تحالفاً مع الامبراطور البيزنطي ضد عدوهما المشترك . وقد جعله
وجوده على جانبي الطرق التجارية الشمالية عدواً بالغ الخطر .

(١) انظر ياقوت : معجم البلدان مادة اذربيجان .

وتمكن طوال سبع سنوات من مقاومة الدولة بقوة السلاح، وهزم خلالها أربعة من قواد المأمون . إلا أن التحسن العام الذي طرأ على أمن الامبراطورية زمن المعتصم مكّن الاخير من القيام بعمل عسكري حاسم ضد بابك، فحصر أتباع حر كته في آذربيجان وقضى عليهم آخر الأمر .

وكانت ثورة العبيد من الزوج ، الذين يعرفون باسم الزنج ، بين سنتي ٨٦٩ و ٨٨٣ م ذات طابع مختلف كل الاختلاف . فقد كان الاسلام مجتمعاً يبيع الرق، ولا يزال كذلك في بعض الانحاء . إلا أن العبيد لم يكونوا ، كما كانت الحال في الامبراطورية الرومانية، عماد الانتاج الرئيسي . فقد اعتمد الانتاج في الامبراطورية الاسلامية في الغالب على عمل الفلاحين الاحرار وأنصاف الاحرار وعلى الصناع . وكان العبيد يستخدمون بصفة رئيسية في الاعمال البيتية والعسكرية . ويعرف الذين كانوا يستخدمون في المصالح العسكرية بالمماليك . وقد شكل هؤلاء في واقع الامر طبقة عسكرية لها امتيازاتها ، وتمكنت فيما بعد من الهيمنة على شؤون الدولة . واستخدم العبيد لأغراض غير التي ذكرناها . فقد استخدموا للقيام بأعمال يدوية في عدد من المشاريع الواسعة كالمناجم والاساطيل وتجفيف المستنقعات ، وغيرها . فان نمو طبقة من الرأسمالين الكبار وملتزمي الاعمال ، تحت تصرف افرادها رؤوس اموال كبيرة ، ادى إلى شراء العبيد واستخدامهم بأعداد كبيرة في اعمال الزراعة . وكانوا يُحشرون في مساكنهم جماعات . وكان الملاك الواحد أو ملتزم الاعمال يمتلك في الغالب الآلاف

منهم . واكثر العبيد من هذا الصنف من الزنوج . وكانوا يجلبون في الغالب من شرقي إفريقيا ، إما بطريق الأسر والشراء ، او على شكل جزية تقدمها إحدى الحكومات الخاضعة للامبراطورية .

تلك حال الفلاحين الذين كانوا يستخدمون في سهول البصرة السبخة ، حيث كان أثرياء المدينة يستخدمون ، بشكل لم يسبق له مثيل ، أعداداً كبيرة من العبيد في تجفيف المستنقعات السبخة لجعل الارض صالحة للزراعة ، ولاستخلاص الاملاح لبيعها . وكانوا يعملون جماعات يتراوح عدد افراد الواحدة منها بين خمسة وخمسة آلاف عبد . وقد ورد ذكر جماعة تتألف من خمسة عشر الف عبد . وكانت احوالهم سيئة الى حد بعيد . فقد كان عملهم شاقاً ومضياً ، وكان ما يتقاضونه لقاء عملهم لا يكفي لاعاشتهم ، ويتألف ، كما يذكر مصدر عربي ، من الدقيق والتمر والسويق . وكان كثير منهم من الافريقيين الذين لم يمض وقت طويل على قدومهم ، وكان بعضهم يعرف بضع كلمات عربية ، والباقيون يجهلونها جهلاً تاماً . ويذكر احد المصادر أن زعيمهم كان يستخدم المترجمين للتفاهم معهم . وزعيمهم هذا فارسي يعرف باسم علي بن محمد ، ادعى بأنه من ذرية علي ، وقد يكون من اصل عربي . وبعد ان قام بعدد من المحاولات الفاشلة لاثارة الفتن في اماكن مختلفة ، بينها البصرة ، ذهب الى المنطقة السبخة في ايلول (سبتمبر) من سنة ٨٦٩م واخذ ينشر دعوته بين العبيد ، فأخذ يذكّرهم ، كما يذكر المؤرخ الطبري ، بما هم عليه من سوء الحال « وان الله استنقذهم به من ذلك ، وانه يريد ان يرفع اقدارهم ويملكهم العبيد

والاموال والمنازل . . . وتكشف لنا الكلمات الاخيرة عن ضعف
في هذه الحركة ، إذ لم يكن لها برنامج حقيقي للإصلاح ، كما انها لم
تهدف بوجه عام الى الغاء الرق ، بل كانت ثورة قسم من العبيد
لتحصين أوضاعهم . وحقق زعيمهم علي وعده لهم عندما مكنته
الانتصارات التي أحرزها من توزيع من اسرهم من المسلمين عبيداً
بين اتباعه .

وحتى هذه الحركة شبه الهمجية تأثرت بالاتجاه السائد في المجتمع
الاسلامي تأثراً جعلها تبحث عن ثوب ديني . وعلى الرغم من ان
صاحب الزنج ادعى أنه من نسل علي فانه لم ينضم الى الشيعة ، بل
اتخذ جانب الخوارج دعاة المساواة الفوضويين الذين اعلنوا فيما
سبق ان افضل الرجال هو الاجدر بالخلافة حتى ولو كان عبداً
حبشياً . وطبقاً لتعاليم الخوارج اعتبروا سواهم من المسلمين كفاراً
يجوز استرقاقهم أو قتلهم اذا وقعوا في الاسر .

وانتشرت الحركة بسرعة . وأخذت جماعات العبيد تنضم اليها
واحدة بعد اخرى . ويرجع ان العبيد الفارين من المدن والقرى
انضموا اليها فيما بعد . وانضمت اليها ايضاً جيوش الامبراطورية
المؤلفة من المحاربين السود والتي أرسلت لقتالهم ، فوفرت لهم
العدة ورجال الحرب ، بينما جلب لهم الامل في الغنيمة اتباعاً من
بين رجال القبائل البدوية الضاربة حولهم . ويظهر ان فلاحي هذه
المنطقة الاحرار التفؤوا حول صاحب الزنج تضامناً معه ، على ما
يظن ، ضد الملاكين . وما لدينا من الشواهد لا يدل على ان
الحركة كسبت اتباعاً كثيرين من بين العناصر المتدمرة الحرة من

سكان المدن ، على الرغم من ان المصادر تذكر أن اثنين من اعوان علي ، صاحب الزنج ، كان أحدهما طحاناً والآخر بائع عصير . وسجلّ الزنج العسكري حافل بالانتصارات . فقد هزموا جيوش الامبراطورية واحداً بعد آخر ، فكثرت أعداد عبيدهم وغنائمهم وخاصة السلاح . وفي تشرين الاول (اكتوبر) من سنة ٨٦٩ م هاجم الزنج البصرة . لكنهم لم يتمكنوا من احتلالها . وقام اهل البصرة بهجوم معاكس عليهم ، فهُزم البصريون . وبعد ذلك بزمن وجيز بنى الزنج لأنفسهم عاصمة جديدة تعرف باسم «المختارة» وذلك في بقعة جافة من السهول السبخة . ولا توجد لدينا ، لسوء الحظ ، أخبار عن نظام حكومتهم . وفي ١٩ حزيران (يونيه) من سنة ٨٧٠ م احتل الزنج ميناء الأبله التجاري المزدهر ، فتعاظمت قوتهم بانضمام العبيد المحررين اليهم . وتوسعوا بعد فترة قصيرة الى جنوب غربي فارس واحتلوا مدينة الاهواز .

وهددت هذه الحركة الامبراطورية الآن في الصميم اذ سيطر الزنج على بقاع واسعة في جنوب العراق وجنوب غربي فارس واحتلوا عدداً من المدن ، واشتد ضغطهم على البصرة ، وهي المدينة الثانية في الولايات الوسطى ، واعترضوا خطوط مواصلات العاصمة نفسها في الجهة الجنوبية الشرقية . وفي ايلول (سبتمبر) من سنة ٨٧١ م احتلوا البصرة نفسها . ولكنهم اظهروا حكمة باخلائهم لها عقب احتلالها مباشرة . وكانوا في هذه الاثناء قد أحقوا الهزيمة بعدد آخر من جيوش الامبراطورية واحتلوا في سنة ٨٧٨ م مدينة واسط وهي احدى العواصم الحربية القديمة . وفي السنة التالية امتدت غزواتهم

الى منطقة تبعد سبعة عشر ميلاً عن بغداد . ويعين لنا هذا أوج
انتصاراتهم . وبدأ الموفق ، ولي العهد الحازم النشيط وأخو الخليفة
يجهز الآن حملة كبرى باهظة التكاليف . ولم يجلّ شهر شباط
(فبراير) من عام ٨٨١ م حتى كان الموفق قد جرّد الزنج من
فتوحاتهم وحصرهم في المختارة عاصمتهم . ورفض قائداهم عرضاً
مغرياً بالامان وبمعاش من الحكومة . وبعد حصار طويل سقطت
المدينة على اثر هجوم سُن عليها في ١١ آب (اغسطس) سنة
٨٨٣ م . وفي تشرين الثاني (نوفمبر) من هذه السنة أحضر رأس
علي مرفوعاً على سارية الى بغداد .

ويظهر ان هذه الحركات ، التي تمثل ثورة الفلاحين في فارس ،
وثورة العبيد في جنوب العراق ، لم تترك أثراً باقياً في سير التاريخ
الاسلامي ، كما انها لم تحدث تغييراً اساسياً في بناء المجتمع الاسلامي .
ولم تحلّف هذه الحركات سوى تيار خفي من التذمر والانشقاق
كان يتجلى من وقت الى آخر في حركات عميقة . الا أن تدمير عامة
سكان الامبراطورية المتزايد تجلّى في حركة اخرى ذات نتائج
اعظم اهمية وأطول بقاء من نتائج سابقاتها، وهي حركة الاسماعيلية
التي تفرعت من الشيعة . وقد رأينا كيف تحولت حركة الشيعة
في مراحلها الاولى من حزب عربي الى فرقة قوامها الموالي . وكان
أول نجاح عظيم أحرزته هو وصول العباسيين الى الحكم . لكن
هذا النجاح قضى على ما كان للدعاة من نسل محمد بن الحنفية من
اهمية . وترعّم الشيعة ، منذ هذا التاريخ ، رجالاً من السلالة
الفاطمية ، اي من ابناء علي من زوجته فاطمة بنت الرسول .

وعرف هؤلاء الزعماء عند اتباعهم بالأئمة . وكانوا في نظر هؤلاء
الاتباع الخلفاء الشرعيين الوحيدين . غير ان الحقوق التي اتخذوها
فاقت ما ادعاه الخلفاء العباسيون لانفسهم من حقوق . فقد كان
إمام الشيعة يدعي الاتصال بالله والعصمة ، ويطالب بطاعة اتباعه
دون مناقشة .

فلما توفي الامام جعفر الصادق سنة ٧٦٥ م انقسم اتباعه الى
فريقين . والتف كل فريق حول أحد ابنيه ، موسى وجعفر ،
وأيد حقه في الخلافة . واعترف اتباع الاول بالأئمة من نسله حتى
الامام الثاني عشر بعد علي بن ابي طالب . ويعتقدون بان الامام
الثاني عشر اختفى في ظروف غامضة وينتظرون رجوعه . وتتصف
تعاليمهم من ناحية عامة بالاعتدال ، ولم يكن بينها وبين تعاليم
السنة كبير اختلاف . وقد وصفهم عالم فرنسي وصفاً اقرب الى
البساطة منه الى دقة التعبير بقوله انهم كانوا « فريق المعارضة
الملكي » بالنسبة للخلافة العباسية .

ويختلف تطور فرقة الاسماعيلية ، التي ورثت طابع الحركة
الاولى الثوري المتطرف ، عن تطور الشيعة الاثني عشرية تمام
الاختلاف .

ويمكن وصف الفترة الواقعة بين القرن الثامن الميلادي وأوائل
القرن التاسع بأنها فترة استعداد نظّم خلالها اسماعيل وابنه محمد
وعددٌ من الأتباع المخلصين بناءً هذه الفرقة والدعوة لها . وتختلف
تعاليمهم اختلافاً بيناً عن تعاليم السنة ، كما أنها تضم كثيراً من
الافكار الافلاطونية الحديثة والهندية . وقد تمكنوا من إدخال
هذه الافكار بقولهم بمبدأ التفسير الباطني الذي يجعل لكل آية

معنيين ، أحدهما ظاهر أو حربي ، والآخر باطن لا يقف عليه الا
أهل العلم .

وكانت التعاليم السرية لهذه الفرقة تُنشر على مراتب من
التنشئة ، أشبه بمراتب الماسونية ، لا يرقى إلى أعلى مراتبها الا من
يتم تحوله الى المذهب الاسماعيلي . وكان من شأن هذا التنظيم
السري أن ساعد الاسماعيلية على البقاء والازدهار على الرغم من
يقظة شرطة العباسيين . وكان رمز الفرقة الاسمي هو الامام ، وهو
زعيم ديني معصوم من سلالة علي بن ابي طالب . وفي ظروف معينة
كان في استطاعة الامام أن يفوض سلطانه لشخص آخر يتبناه
روحياً فيصبح وصياً للامام أو نائباً عنه ، ويحق له ممارسة اكثر
وظائفه لا كلها .

وكانت الضائقة الاجتماعية قد بلغت في بداية القرن العاشر حدّاً
بالغ الخطورة . اذ كان السخط لا يزال يعتمل في صدور الفلاحين
والعبيد المقهورين ، كما أن مركز العمل ورؤوس الاموال المتعاطم
كان قد اوجد من بين سكان المدن طبقةً عاملةً كبيرةً متدمرة .
وفي سنة ٩٢٠ - ٩٢١ م أدت الاجراءات المالية التي استحدثتها
الوزير الى قيام حركات شعب في العاصمة طالب مشيروها بالحيز ،
كما أدت الى تفاقم التدمر في طول الامبراطورية وعرضها . ويتجلى
موقف العناصر المعذمة من الاسلام على المذهب السني في بضعة
أبيات من الشعر كتبها واحد من شعراء هذا العصر :

تلوم على تركي الصلاة حليلتي فقلت اغربي عن ناظري ! انت طالق
فو الله لاصليتُ لله مفلساً يصلي له الشيخ الجليل وفائق

لماذا أصلي ، أين بعبي ومنزلي وأين خيولي والحلي والمناطق ؟
 أصلي ولا فتر من الارض يحتوي عليه يميني ؟ إنني لمنافق
 [بلى . إن عليّ الله وسّع لم أزل أصلي له ما لاح في الجوّ بارق] ١
 وسرعان ما استجابت هذه العناصر [المتذمرة] جميعها لتعاليم
 دعاة الشيعة . ولا يُلقي الاسماعيلية أنفسهم ضوءاً كثيراً على تعاليم
 فرقهم الاجتماعية . لكن يتضح من تفنيد علماء الدين السنيين لتعاليم
 الاسماعيلية أن خطر هؤلاء على النظام القائم كان في أساسه اجتماعياً
 أكثر منه دينياً . ويورد البغدادي العالم الديني وثيقة زعم أنها
 اسماعيلية (ترجمة ا . س . هالكن) تقول :

« ما وجه ذلك الا ان صاحبهم حرم عليهم الطبيات وخوفهم
 بغائب لا يعقل وهو الاله الذي يزعمونه ، واخبرهم بكون ما
 لا يروونه ابداً من البعث من القبور والحساب والجنة والنار ، حتى
 استعبدتهم بذلك عاجلاً وجعلهم له في حياته ولذريته بعد وفاته
 خوفاً ، واستباح بذلك اموالهم بقوله : لا أسألكم عليه أجرأ الا
 المودة في القربى (الشورى : ٢٣) فكان امره معهم نقداً وامرهم
 معه نسيئة . وقد استعجل منهم بذل ارواحهم واموالهم على
 انتظار موعود لا يكون . ٢ »

ومع ان هذه الوثيقة غير اصيلة على ما يرجح الا انها لا تزال
 قيمة لانها تطاعنا على الطريقة التي فهم بها هذا الخطر . وكثيراً
 ما يشير الغزالي ، احد كبار علماء الدين المسلمين ، في الرد على

(١) اضيف البيت الاخير الى الاصل . [للمعربان]

(٢) البغدادي ، عبد القاهر : الفرق بين الفرق ص ٢٨٢ .

« فضائح الباطنية » الى ان خطر هذه الفرقة الرئيسي هو تأثيرها
في العامة .

ويبدو ان اكثر اعتماد الاسماعيلية في اوائل حر كتهم كان
على مناصرة الفلاحين لهم . ولكنهم سرعان ما كسبوا اتباعاً
كثيرين من بين سكان المدن وخاصة اصحاب الحرف . ومن
الجايز ان يكون الاسماعيلية هم الذين أوجدوا النقابات الاسلامية .
الا انه من المؤكد انهم استخدموها كأدوات في تنظيم حر كتهم .
وقد ظلت تعاليم النقابات الاسلامية وبنائها تحمل تأثيرات اسماعيلية
طيلة قرون . ومن التهم المتواترة التي يوجهها خصوم الاسماعيلية
من السنة اليهم هي انهم طبقوا اشتراكية المال والنساء . وتحفظ
لنا المصادر العربية وصفاً طريفاً لما قام به احد دعاة الاسماعيلية في
منطقة الكوفة حوالى منتصف القرن التاسع . فبعد ان ادخل
سكان بعض المدن في عقيدته فرض عليهم سلسلة تصاعديّة من
الضرائب والجبايات ، واخيراً فرض عليهم « الالفه » ، وهو ان
يجمعوا اموالهم في موضع واحد ، وان يكونوا في ذلك اسرة
واحدة ، لا يفضل واحد منهم صاحبه واخاه في ملك يملكه [وتلا
قوله تعالى « واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فألف بين
قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخواناً » وتلا عليهم قوله تعالى : « لو انفقت
ما في الارض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم انه
عزيز حكيم »] وعرفهم انه لا حاجة بهم الى اموال تكون
معهم : لان الارض بأسرها ستكون لهم دون غيرهم . وقال لهم :

(١) اضيف ما بين المعقنين الى الاصل .

هذه محتكم التي امتحنتم بها لنعلم كيف تعملون . وطالبهم بشراء السلاح وإعداده وذلك في سنة ست وسبعين ومئتين . واقام الدعاة في كل قرية رجلاً مختاراً من ثقاتها يجمع عنده اموال اهل قريته من بقر وغنم وحلى ومتاع وغيره . فكان يكسو عاريهم ، وينفق عليهم ما يكفيهم ، ولا يبقي فقيراً بينهم ولا محتاجاً ضعيفاً . واخذ كل رجل منهم بالانكماش في صناعته والتكسب بجهدده ليكون له الفضل في رتبته . وكانت المرأة تجمع اليها كسبها من مغزها والصبى أجر نظارته الطير . فلم يملك أحد منهم الا سيفه وسلاحه . فلما استقام له ذلك كله وصبوا اليه ، وعملوا به ، أمر الدعاة أن يجمعوا النساء ذات ليلة معروفة ويختلطن بالرجال . وقال ان ذلك من صحة الود والألفة بينهم .

ولا توجد في المصادر الاسماعيلية شواهد على ان الاسماعيلية مارسوا اموراً من هذا القبيل . ويبدو من المحتمل ان يكون اتهامهم بالشيوعية انعكاساً لمطامح الاسماعيلية الاجتماعية في التحرر ، ومنحهم المرأة لهذا السبب مركزاً أعلى من مركزها السابق .

وظهرت الحركة للعيان في اوائل القرن العاشر حين قامت بين سنتي ٩٠١ و ٩٠٦ فرق اسماعيلية من طائفة تنتسب للاسماعيلية ، ويعرفون بالقرامطة ، بغزو سورية وفلسطين وشمالى ما بين النهرين . وتحفظ لنا المصادر نص دعاء كان يردده الاسماعيليون اثناء احتلالهم لمدينة حمص وهو : « اللهم اهدنا بالخليفة الوارث المنتظر ، المهدي ، صاحب الوقت ، امير المؤمنين . اللهم املاً الارض به عدلاً وقسطاً

ودمر اعداءه ، اللهم دمر اعداءه »

وحركة القرامطة التي قامت في ولاية البحرين (الاحساء الحالية)
اهم بكثير من الحركة السابقة . فهناك كانت التربة خصبة لنمو
الحركات الثورية . فقد كانت منعزلة يصعب الوصول اليها . وكان
سكانها خليطاً يضم كثيرين ممن ساهموا في ثورة الزنج . وتمكن دعاة
القرامطة في اوائل القرن العاشر من ان يصبحوا القوة المسيطرة في
الولاية ، بعد ان تمكنوا من طرد رجال الدولة في بغداد . ولم
تصلنا ، لسوء الحظ ، سوى قلة من الاخبار عن الحكم الذي اقاموه .
ومعلوماتنا عنه مستقاة بصفة رئيسية مما كتبه رحالتان مواليان
للحركة الاسماعيلية زارا هذه المنطقة . ويصف اولهما ، الذي وصل
اليها في النصف الثاني من القرن العاشر ، حكومة القرامطة بأنها
نوع من الجمهورية الأوليغارشية ، فحماكمها هو أول بين اكفاء ،
ويساعده في الحكم مجلس مؤلف من اتباعه المقربين . ويؤيد هذا
الوصف ما يورده اسماعيلي فارسي زار البحرين خلال القرن الحادي
عشر . فقد وجد الجمهورية القرمطية لا تزال مزدهرة . ويقول بانه
كان في العاصمة ، وهي الحسا ، اكثر من عشرين الف محارب ،
ومجلس يتألف من ستة اشخاص يحكمون بالعدل والانصاف .
وكانوا حين يتحدثون الى الناس يتكلمون بلطف وتواضع . وكانوا لا
يصلون ولا يصومون . والمسجد الوحيد الذي كان موجوداً بناه
الحجاج من اهل السنة على نفقتهم الخاصة . ولم تكن هناك ضرائب
او عشور (ويذكر الرحالة الاول كثيراً منها) . وكان المجلس
يملك ثلاثين الف عبد كانوا يقومون بأعمال الزراعة . واذا افتقر

الانسان او استدان مالا كان الآخرون يساعدونه ليستعيد مكانته .
وكان الفقراء من اصحاب البيوت يتلقون المال من الدولة لاصلاح
بيوتهم . وكانت الحبوب تطحن في طواحين الدولة مجاناً . وكانت
المعاملات التجارية تتم باستخدام نقود اصطلاحية لا يجوز اخراجها
من البلاد . ويؤيد ناحية من وصف هذين الرحالتين للحكومة
القرمطية ما وجد من نقود قرمطية مضروبة باسم المجلس .
واحرزت الدعوة الاسماعيلية نجاحاً في منطقة اخرى وهي
اليمن . فقد اتخذها أحد الدعاة في سنة ٩٠١ م مركزاً لنشاطه ،
وعظم نفوذه في زمن وجيز . ومن اليمن أنفذ هذا الداعية الرسل
الى الهند وشمالي افريقية وربما الى مناطق اخرى . واصابت بعثة
شمالي افريقية نجاحاً باهراً في تونس حيث استطاعت ان توصل
الامام عبيد الله الى كرسي الحكم ، فأصبح اول خليفة فاطمي في
شمالي افريقية . وهكذا نرى ان الفاطميين اتبعوا ، من عدة وجوه ،
خطط العباسيين انفسهم في الوصول الى الحكم . واستخدموا في
هذا السبيل الدعوة السرية المنظمة لطائفة خارجة على المذهب
السني ، وقاموا بمحاولتهم الحاسمة للقبض على زمام السلطان في
احدى ولايات الامبراطورية القاصية . لكنهم اختلفوا عن العباسيين
في امرين ربما كانا متداخلين : اولهما انهم لم يتمكنوا - كالعباسيين -
من بسط نفوذهم على العالم الاسلامي كله ، وثانيهما انهم - بعكس
العباسيين - ظلوا رؤساء الطائفة التي أوصلتهم الى الحكم .
وحكم الخلفاء الفاطميون الاربعة الأولون في الغرب فقط ،
حيث واجهتهم مصاعب عدة ، فقد كان تأسيس دولة واسرة حاكمة

يتطلب اشياء مختلف عما تتطلبه طائفة ثورية معارضة للحكم القائم ؛
كما انهم واجهوا ، منذ بداية حكمهم ، فئات متطرفة اهتمتهم
بالانحراف عن المبادئ الاسماعيلية والتحول عنها ، واشتبكوا فيما
بعد مع قرامطة البحرين للأسباب ذاتها . وقد تم توسع الاسرة
الجديدة نحو الشرق بعد محاولات ثلاث فاشلة قام بها المعز لدين الله
الذي فتح مصر في سنة ٩٦٩ م . وسبق فتحها دور استعداد
طويل قام بالتمهيد للفتح خلاله الرسل والدعاة السريون الذين شلوا
مقاومة المصريين وتصادم الفاطميون ، عقب الفتح ، مع القرامطة
الذين شكلوا في وقت ما خطراً حقيقياً يهدد الحكم الجديد .
ويظهر ان القرامطة عادوا فيما بعد الى ولائهم السابق للفاطميين .
واخلص في خدمة المعز رجلان شهيران . واولهما هو قائده
جوهر ، وهو مملوك اوروبي الاصل ، ويعدّ فاتح مصر الحقيقي .
وقد قام ببناء مدينة القاهرة لتكون عاصمة للفاطميين ، كما بنى الجامع
الازهر ليكون مركزاً لنشر عقيدتهم . ومنذ تحول الازهر بعد
ذلك بقرون الى الدراسات السنية ظل حتى يومنا الحاضر احد
المراكز الرئيسية للفكر الاسلامي والحياة الاسلامية الدينية .
ورجل المعز الآخر هو يعقوب بن كلس ، وهو يهودي بغدادي
تحول الى الاسلام وانضم الى المعز في تونس ، وساعده قبل فتحه لمصر
وبعده . وكان يعقوب عبقرية مالياً قام بتنظيم الضرائب وتنسيق
نظام الخدمة المدنية الذي ظل نافذاً طوال حكم الفاطميين .
وسرعان ما قام الفاطميون بتوسيع رقعة دولتهم ، ففتحوا
فلسطين وسورية وبلاد العرب ، ففاق سلطانهم ونفوذهم خلال

تلك الفترة ما كان للخلفاء من سلطان ونفوذ . وكان حكم
المستنصر (١٠٣٦-١٠٩٤) الاوج الذي بلغه حكم الفاطميين لمصر .
فقد كانت الامبراطورية الفاطمية في عهده تشمل شمالي افريقية
جميعه ، وصقلية ، ومصر ، وسورية وغرب شبه جزيرة
العرب . ونجح أحد قواد الفاطميين بين سنتي ١٠٥٦ و ١٠٥٧ م
في اخضاع بغداد نفسها واعلان سيادة الخليفة الفاطمي من منابر
العاصمة العباسية . غير انه أُخرج منها في السنة التالية . وبعد هذا
التاريخ اضمحل الفاطميون . وبدا تدهور سلطانهم اولاً في ميدان
الخدمة المدنية ، ذلك التدهور الذي ادى الى قيام سلسلة متتابعة
من الحكام العسكريين المستبدين الذين سيطروا على العاصمة ، كما
فعل أمثالهم في بغداد خلال فترة من الزمن . فلما جرد الخلفاء
الفاطيون من سلطانهم الهائلة ، وأنزلوا الى مرتبة دُمى عاجزة
يسيرها الامراء ، فقدوا مناصرة رجال طائفتهم لهم . واخيراً قام
صلاح الدين الايوبي بالغاء حكمهم واعادة المذهب السني الى مصر .
ويختلف حكم الفاطميين لمصر في اوجهه عن حكم الدول التي
سبقتهم في عدد من الامور : فقد كان على رأس الدولة الفاطمية
إمام معصوم ، وهو حاكم مطلق يستند في سلطانه الى حق وراثي
مقدس اكتسبه بانتسابه الى أسرة اختارها الله للإمامة . وكانت
حكومته مركزية ذات وظائف طبقية ، وكانت تنقسم
الى ثلاثة فروع : أحدها ديني ، والآخر عسكري ، والاخير
مدني . وكان الاخيران خاضعين لاشراف الوزير ، وهو موظف
مدني خاضع للخليفة . اما الفرع الديني فكان يتألف من هيئة من

الدعاة مختلفي المراتب ، ويقوم عليهم كبير الدعاة (داعي الدعاة) وكان الاخير شخصية سياسية ، ذات نفوذ بالغ . وكان هذا الفرع يقوم على توجيه مدارس التعليم العليا ، وعلى تنظيم الدعوة للطائفة الاسماعيلية ، ويظهر انه لعب دوراً أشبه بالدور الذي يلعبه الحزب في الدكتاتوريات الحديثة القائمة على حزب واحد وكان قسم الدعوة للاسماعيلية يوجه عدداً ضخماً من الدعاة المبثوثين في ولايات الامبراطورية الشرقية ، التي كانت لا تزال تحت السلطان الاسمي للخليفة العباسي في بغداد . ويمكن الوقوف على فعالية هذه الدعوة في اكثر من ميدان . فالانفجارات المتكررة التي اتخذت من البلاد الممتدة من العراق حتى الهند مسرحاً لها تشهد على نشاط دعاة الاسماعيلية ، في حين ان الحياة الفكرية في العالم الاسلامي كله تشهد بطرق شتى على ما كان للدعوة الاسماعيلية من جاذبية وغواية للفئات المثقفة المتطرفة .

فقد كان للأفكار الاسماعيلية تأثير قوي في المتنبي (حوالي ٩٦٤ م) وأبي العلاء المعري (حوالي ١٠٥٧ م) وهما شاعران عظيمان من شعراء العرب . وقامت في العراق حركة لجمع المعارف نظمها جماعة يدعون باسم « اخوان الصفا البصريون » قاموا بنشر سلسلة من الرسائل عددها احدى وخمسون تبحث في جميع فروع المعرفة عند أهل زمانهم . وتتسم هذه الرسائل بميل واضح للاسماعيلية . وبالإضافة الى ان هذه الرسائل كانت تقرأ في جميع البلاد من الاندلس الى الهند ، فقد كانت ذات تأثير كبير في الكتاب المتأخرين . وقد ساعد على انتشارها

نظام انشاء حلقات شبه سرية للدرس تحت اشراف اعضاء من
جمعية اخوان الصفا .

وكان العهد الفاطمي عهد ازدهار عظيم في التجارة والصناعة .
ففيما عدا بضع فترات انتشرت فيها المجاعات لعدم انتظام النيل
او بسبب قيام ثورات عسكرية فقد كان عصر رخاء كبير .
فقد ادركت الحكومة الفاطمية ، من البداية ، اهمية التجارة لرخاء
الامبراطورية وتوسيع دائرة نفوذها . وقد اوجد يعقوب
ابن كلس نظاماً تجارياً اتبعه من خلفه من الحكام . وكانت التجارة
قبل مجيء الفاطميين ضعيفة محدودة . فعمل الفاطميون على توسيع
الزراعة والصناعة وتقدمها . فبدأت في عهدهم حركة تصدير واسعة
للمنتوجات المصرية . وعملوا بالاضافة الى هذا على اقامة شبكة
واسعة من العلاقات التجارية وخاصة مع الهند وأوروبا . ففي
الغرب اقاموا علاقات وثيقة ، تعود في تاريخها الى سنيهم الاولى
في تونس ، مع الجمهوريات الايطالية وخاصة مع أمالفي وبيزا
والبنديقية . فكانت المتاجر تسير محملة على ظهور السفن بين مصر
والغرب ، كما ان السفن المصرية والتجار المصريين كانوا يركبون
البحر حتى اسبانيا . وكان الميناءان الرئيسيان في امبراطورية
الفاطميين هما ميناء الاسكندرية ، وميناء طرابلس من اعمال
سورية ، وكلاهما كان سوقاً ذات شهرة عالمية . كما ان الاساطيل
الفاطمية كانت تسيطر على حوض البحر الابيض الشرقي .
وفي الشرق اقام الفاطميون علاقات هامة مع الهند بعد ان
نشروا سلطانهم بالتدرج جنوباً على شاطئ البحر الاحمر .

ونجحوا في تحويل التجارة الهندية مع الشرق الاوسط من الخليج
الفارسي الى البحر الاحمر وخاصة الى عيذاب ، الميناء الفاطمي
الكبير على ساحل السودان . وقاموا بالتجارة ايضاً مع
البيزنطيين ومع الدول الاسلامية التي كانت اقل اهمية من هذه
الناحية . وحيثما كان التاجر المصري يولي وجهه كان دعاة
الاسماعيلية يجردون في اثره ، فأحدث هؤلاء بين مسلمي اسبانيا
والهند الهياج الفكري نفسه الذي احدثوه في البلاد الاخرى .
وبانحطاط الخلافة الفاطمية في مهدها اخذت تضعف الصلات
بين الاسرة الفاطمية الحاكمة وبين الطائفة الاسماعيلية ، وانفصمت
عري هذه الصلات آخر الامر . وحكم الخلفاء الفاطميون في مصر
زمناً آخر ، ولكنهم كانوا خلاله أداة في يد القواد يسرونهم كما
يشاؤون . وقضي على الخلافة الفاطمية بعد ذلك . أما في البلاد التي
كانت تابعة للخلافة العباسية في المشرق والتي وقعت تحت حكم
الأتراك السلاجقة ، فقد اتخذت منظمة الاسماعيلية الثورية
شكلاً آخر .

الفصل السابع

العرب في اوروبا

«اي أبراج تلك؟ انها شامخة ومتألقة !
— ذلك هو الحمراء ، يا سيدي ،
والآخر هو المسجد . »
(انشودة ابن عمر)

لم يكن العرب قبل الاسلام يجهلون البحر جهلاً تاماً . فقد عرف أهل جنوب شبه جزيرة العرب بناء السفن ، وسيروا تجارة بحرية ذات شأن قروناً قبل الاسلام . الا ان عرب الشمال ، والحجازيين منهم على الخصوص ، وعرب تخوم سورية والعراق ، كانوا في الدرجة الاولى شعباً برياً بعيداً عن البحر ، وعلى معرفة ضئيلة به او بالملاحة . ومن أبرز خصائص الفتوحات الاسلامية العظيمة قدرة العرب على تكييف انفسهم لهذا الوجه من اوجه النشاط . فلم تكد تضي سنين قلائل على احتلال سكان صحراء الجزيرة العربية المعزولين عن البحر لسواحل مصر وسورية حتى كانوا قد بنوا وشحنوا بالرجال الاساطيل البحرية العظيمة التي مكنتهم من الوقوف في وجه الاساطيل البيزنطية القوية المدربة ،

ومن توفير شرط اساسي يكفل للخلافة استتباب الامن فيها
وتوسعها ، وهو السيطرة على البحر الابيض المتوسط .

وأضاف فتح سورية ومصر للبلاد الواقعة تحت سيطرة العرب
شريطاً طويلاً من ساحل البحر الابيض المتوسط موانئه كثيرة
واهله متمرسون بالشؤون البحرية . واصبح العرب الذين لم
يواجهوا حتى الآن سوى جيوش بيزنطية برية يحاربون أساطيل
بيزنطية أيضاً . وكان من شأن عودة البيزنطيين بطريق البحر الى
الاسكندرية واحتلالهم لها لمدة وجيزة في سنة ٦٤٥ م ان نبه
العرب الى اهمية القوة البحرية . فاستجابوا بسرعة لهذا المؤثر .

ويرجع الفضل في خلق الاساطيل الاسلامية الى رجلين ، هما
الخليفة معاوية ، ووالي مصر عبد الله بن سعد بن ابي سرح . وفي
ميناء الاسكندرية وموانئ سورية البحرية حجز العرب وشحنوا
بالرجال أساطيل حربية سرعان ما احرزت انتصارات تعادل في
شهرتها انتصارات جيوش المسلمين البرية . وفي سنة ٦٥٥ م وقعت
اول معركة بحرية عظيمة هزم فيها أسطول اسلامي اسطولاً بيزنطياً
يفوقه عدداً قرب ساحل الاناضول .

وعندما نقل العباسيون مركز الخلافة من سورية الى بغداد
قل اهتمام الحكومة المركزية بالبحر الابيض المتوسط ، الا ان
الولاة المسلمين المستقلين في مصر وشمال افريقية احتفظوا بالمدة
طويلة بأساطيل بحرية مكنتهم من السيطرة على البحر الابيض
المتوسط كله . وفي الاخبار انه كان تحت امره الفاطميين لا اقل
من خمسة آلاف قبطان بحري . وكانت مراكز المسلمين التجارية

المتزايدة تصل ، في أثناء القرن التاسع ، موانئ سواحل البحر المتوسط الخاضعة للمسلمين احدها بالآخر ، وموانئ المسيحيين في الشمال .

وكانت اولى الاعمال الحربية التي قامت بها الاساطيل الاسلامية ، حديثة التكوين ، موجة ضد الجزر البيزنطية وهي قبرس واقريطش ورودس التي كانت بين القواعد الرئيسية للاساطيل البيزنطية في الحوض الشرقي للبحر الابيض المتوسط . ويخبرنا المؤرخون العرب ان الخلفاء الاولين كانوا يرفضون تجريد حملات بحرية . وينسب المؤرخون الى عمر انه منع قواده من الزحف الى اي مكان قائلاً : « فلا تجعلوا بيني وبينكم ماء متى اردت ان اركب اليكم راحتي حتى اقدم اليكم قدمت . » وفي سنة ٦٤٩ م سمح عثمان ، بشيء من التردد ، لمعاوية بان يوجه اول غزوة الى قبرس . وتكرر بعد هذه الغزوة احتلال العرب لقبرس واقريطش لآجال قصيرة . واستطاعوا خلال الدور الاموي ان يسيطروا بعض الوقت على جزيرة او شبه جزيرة في بحر مرمره نفسه ، وان يتخذوا منها قاعدة بحرية لهجوم بري بحري على القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية .

وكان احتلال الجزر الشرقية في الغالب قصير الامد وبصورة مؤقتة . اما هجوم العرب على صقلية فقد كان اهم من هذا بكثير . ويرجع الفضل في توجيه الغزوات الاولى لهذه الجزيرة الى معاوية . وقامت هذه الغزوات من الشرق الادنى وليبيا . اما الغزوات التي قامت بعد ذلك فقد جاءت من تونس لا من الشرق ، وساعد

على قيامها احتلال جزيرة بانتالريا^١ حوالي سنة ٧٠٠ م. ولم تقم
اولى محاولات الفتح الاكيدة الا سنة ٧٤٠ م حين حاصر حبيب
ابن ابي عبيدة سرقوسة وجمع من اهلها الجزية . لكنه اضطر الى
ترك محاولته والرجوع لاختضاع ثورة قام بها البربر في افريقية . وتلا
غزوة اخرى قامت بين سنتي ٧٥٢ - ٧٥٣ م دور من السلم
المضطرب عقد خلاله عدد من الهدنات بين السلطات البيزنطية في
الجزيرة وبين حكام تونس المستقلين في ذلك الوقت .

وبدا الفتح الحقيقي في سنة ٨٢٥ م . ذلك انه لما وجد
الاميرال البيزنطي يوفيموس نفسه مهدداً بقصاص الامبراطور
له ، لذنوب كان قد اتاه لا نعلم شيئاً عن طبيعته ، ثار ضد الامبراطور
واستولى على الجزيرة . وهرب فيما بعد ، عندما هُزمت جيوش
الامبراطور ، ومعه سفنه الى تونس . وطلب المساعدة من حاكمها
زيادة الله الاعلبي ، وحرضه على التقدم لفتح الجزيرة . وعلى الرغم مما
ابداه حاكم تونس من تردد فقد انفذ اسطولاً يتراوح عدد سفنه ما بين
سبعين ومئة سفينة تمكن رجاله من النزول في مازر^٢ سنة ٨٢٧ م .
وبعد ان احرز المحاربون تقدماً اولياً سريعاً اصابتهم نكسة ،
ولحقت بهم بعض الهزائم . ولم ينقذهم مما احاط بهم من المصاعب
سوى حدوث شيء لم يكن في الحسبان ، وهو قدوم جماعة من
المغامرين من اسبانيا تمكنوا بمساعدتهم من مواصلة تقدمهم .
وفي سنة ٨٣١ م احتل المسلمون بلرم التي اصبحت
وظلت بعد ذلك ، عاصمة للجزيرة طوال حكم المسلمين لها .

(1) Pantellaria

واستخدمت كذلك نقطة ارتكاز لفتوح اخرى . واستمرت الحرب بين الجيوش البيزنطية والاسلامية في البر والبحر على ارض الجزيرة وفي داخل ايطاليا حتى سنة ٨٩٥ - ٨٩٦ م . ففي هذه السنة عقد البيزنطيون صلحاً مع المسلمين تخلوا بموجبه بالفعل عن صقلية . وكان المسلمون قد احتلوا مسينة حوالي سنة ٨٤٣ م ، وقصريانة في سنة ٨٥٩ ، وسرقوسة في سنة ٨٧٨ م . وكانوا في هذه الاثناء قد نزلوا في اراضي ايطاليا ايضاً ، وأقاموا حاميات في باري وطارنت لمدة من الزمن . وهدد الغزاة المسلمون نابل (نابولي) ورومة وحتى شمال ايطاليا ، واجبروا أحد البابوات على ان يدفع لهم جزية مدة سنتين . وبين سنتي ٨٨٢ و ٩١٥ م نشرت المستعمرة الحربية التي انشأها المسلمون في جوار جليانو الرعب في كامبانيا وجنوب لاتيوم . ومن الجائز ان تكون صقلية هي التي انشأت تلك المستعمرة وحكمتها .

وكانت صقلية الاسلامية تابعة في اول امرها لتونس ومرتبطة بها من الناحيتين السياسية والادارية . فلما سقطت الاغالبية وحل محلهم الفاطميون انتقلت السيادة على الجزيرة الى الخلفاء الجدد . وفي بادىء الامر كانت الدولة الحاكمة هي التي تعين الولاية على الجزيرة . وفي اوقات الضرورة كان اعيان بلرم ينتخبون واليهم . وبانتمال الفاطميين الى مصر سنة ٧٩٢ م ضعف سلطان الحكومة المركزية ، واصبحت حكومة الجزيرة في واقع الامر وراثية في بيت حسن بن علي الكلي . ويعين حكم الكليين الوراثي الذي امتد الى سنة ١٠٤٠م الاوج الذي بلغه سلطان المسلمين ونفوذهم

في الجزيرة . فقد وجد الرحالة ابن حوقل في القرن العاشر ثلاثمائة مسجد في بلرم ، وهو شاهد بليغ على اتساع نطاق توغل المسلمين في الجزيرة . ويخبرنا الرحالة الذين جاءوا بعد ذلك عن ازدهار غني في الثقافة العربية والرسائل التي لم يبق منها لسوء الحظ الا القليل .

وسقطت الدولة الكلية بسبب قيام حرب اهلية بين مسلمي الجزيرة قضت على وحدتها . وبعد فترة قصيرة حكم بلرم خلالها مجلس من الاعيان ، وحكم باقي الجزيرة امراء محليون ، غزا النورمان الذين كانوا في هذه الاثناء قد احتلوا جنوب ايطاليا ، القسم الاكبر من الجزيرة واحتلوه . وفي سنة ١٠٦١ م استولى رُجار الاول على مسينة . وفي سنة ١٠٩١ م اصبح رجار يحكم كل صقلية باستثناء بضعة مراكز كانت لا تزال في قبضة المسلمين . وفي ظل الحكم النورماني الذي امتد حتى سنة ١١٩٤ م هاجر جزء كبير من الطبقة المثقفة من سكان المدين الى شمال افريقية ومصر .

وطبق العرب في صقلية معظم مبادئ الحكم التي كانت نافذة في الولايات الشرقية ، وحدثوا تغييراً اجتماعياً هاماً في ملكية الارض وتوزيعها . ويرينا بقاء كثير من الاسماء العربية للأماكن شدة تأثير الاستعمار العربي . وتشهد الكلمات العربية الموجودة في اللهجة الصقلية على اهتمام العرب بالزراعة . فقد جلب العرب الى صقلية البوتقال والتوت وقصب السكر والنخيل والقطن . ووسعوا نطاق الارض المنزرعة

باهتمامهم بالري . وحتى هذا اليوم لا يزال كثير من الينابيع في
صقلية وخاصة في بلرم يحمل اسماء عربية يسهل تمييز اصلها العربي .
وقد اختلفت تقريباً جميع آثار الحكم العربي ، ولم يبقَ من
الكب التي ألفوها سوى تنف . ووصلت اليها كتبنا كتابات اعظم
الشعراء العرب وهو ابن حمديس (حوالي ١١٣٢) فقط في نسخ
اسبانية وسورية من اشعاره . وتعود أسباب اختفائها الى خراب
المادة المكتوب عليها والى هجرة الطبقات المثقفة عقب الفتح
النورماني ، والى اعمال الفاتحين انفسهم التخريبية في الدرجة
الاولى .

لكن النورمان كيفوا انفسهم بسرعة للثقافة التي وجدوها في
الجزيرة . والعناصر العربية والاسلامية في بلاط النورمان وثقافتهم
كثيرة . وقد استخدم رجار الثاني (١١٣٠ - ١١٥٤) ، المعروف
بـ« الوثني » بسبب حبه للمسلمين ، جيوشاً عربية ومهندسي حصار
عرباً في حملاته في جنوب ايطاليا ، كما استخدم معمارين عرباً
في اقامة مبانيه . وتحمل حلة التتويج الفاخرة التي حيكمت في
معامل الطراز الملكية في بلرم عبارة بالخط الكوفي وتاريخاً هجرياً
وهو ٥٢٨ (١١٣٣ - ١١٣٤) وعمل رجار بعبادة العرب في
الاحتفاظ بشعراء المديح في بلاطه . وحفظ لنا شاعر مسلم متأخر
قطعاً من الاشعار العربية التي نظمت في مدح هذا الملك ،
ويعيب على مادحيه ان يحطوا من قدر انفسهم بمدح الكفار
بقوله : « عجل الله بهم الى الفح ناره المسعرة » . وفي بلاط رجار
كتب الادريسي ، اعظم جغرافي العرب ، موجزه الجغرافي الخالد

الذي أهدها للمك النورماني والذي يعرف « بكتاب رجار » .
وفي سنة ١١٨٥ م زار الرحالة الاسباني المسلم ابن جبير هذه
الجزيرة ، ويشير الى ان الملك غليام (وليم الثاني ١١٨٦-١١٨٩)
كان يقرأ العربية ويكتب بها بقوله : « وهو كثير الثقة بالمسلمين ،
وساكن اليهم في احواله ، والمهم من اشغاله ، حتى ان الناظر في
مطبخته رجل من المسلمين . . ووزراؤه وحجابه .^١ ويشير الرحالة
نفسه ايضاً الى انه حتى المسيحيون في بلرم كانوا كالمسلمين في قيافتهم
ولباسهم وانهم كانوا يتكلمون العربية . واستمر ملوك النورمان
في ضرب نقود تحمل نقوشاً عربية وتواريخ هجرية . وظل
كثير من سجلات الحكومة ومنها سجلات البلاط تدون
بالعربية .

وفما بعد ، وفي ظل الاسرة السوابية التي خلفت النورمان ،
حلت اللاتينية محل العربية كلغة رسمية . وترجع آخر وثيقة
عربية في صقلية الى سنة ١٢٤٢ م . لكن الثقافة العربية
عاشت وازدهرت خلال حكم فردريك الثاني (١٢١٥ - ١٢٥٠ م)
وساعد على تقويتها اتساع العلاقات بين فردريك والشرق الاسلامي .
وحتى في زمن مانفرد (١٢٦٦ م) يمكن تمييز علامات التأثير
العربي . وفي معسكر لوكرا المستعمرة الصقلية الاسلامية التي
أنشئت في داخل البلاد على يد فردريك الثاني ، كانت لا تزال تقام
الصلوات الخمس . إلا ان الثقافة القديمة كانت في طريقها الى الزوال .
وفي اوائل القرن الرابع عشر قضي على اللغة العربية في الجزيرة ،

(١) رحلة ابن جبير (ط . مصر ١٩٠٨) ص ٣٠٨

بيننا قضي على الاسلام اما بطريق هجرة المسلمين منها أو بطريق
الارتداد عنه . اما مكانة صقلية كطريق لنقل الثقافة الاسلامية
الى اوروبا فهي على العموم أقل شأنًا مما يتوقعه المرء . واهم ما
أحرزته من هذه الناحية يرجع تاريخه الى حكم فردريك الثاني حين
قام عدد من المترجمين ، مسيحيين ويهوداً ، بترجمة مجموعات من
المؤلفات العربية إما من الاصل ، او من ترجماتها اليونانية ، الى
اللغة اللاتينية . وكان من بين هؤلاء ثيودور ، وهو منجم من
اصل شرقي قام بترجمة كتب في علم الصحة والبيزرة ، ومنهم
ميخائيل سكوت المشهور ، وهو ساحر اسكتلندي النحط في
خدمة فردريك الثاني في صقلية وظل فيها حتى وفاته . وآخر
المترجمين الصقليين هو طيبب يهودي اسمه فرج بن سالم قام بترجمة
مؤلف طبي عظيم من مؤلفات الرازي للغة اللاتينية للملك شارل
الاول الأنجفي سنة ١٢٨٥ م .

وكانت اعظم فتوح العرب واطولها بقاءً في ايديهم فتح اسبانيا .
ففي سنة ٧٠٩ م نزل جيش من البربر في الجزيرة بدعوة من وال
ثائر من القوط الغربيين . وفي السنة التالية هاجم قائد من البربر
اسمه « طريف » البلاد بين الجزيرة وجزيرة طريف التي لا تزال
تحمل اسمه . وشجع نجاح هذه المناوشات التمهيدية طارقاً ، مولى
موسى بن نصير ، الوالي العربي على افريقية ، فنزل بجيش كبير
واستولى على جبل طارق ، وقرطاجنة الجزيرة ، والجزيرة . ثم
توغل في الداخل وهزم جيش القوط ، واحتل قرطبة وطليلة .
وكانت اكثرية الجيش المحارب في اسبانيا حتى الآن من البربر . الا

ان موسى نفسه وصل في سنة ٧١٢ م على رأس جيش عربي قوي يتألف من ١٠,٠٠٠ مقاتل واستولى على اسبيلية وماردة . ومن ثم أصبح تقدم العرب سريعاً . وفي سنة ٧١٨ كانوا قد احتلوا الجزء الاكبر من شبه الجزيرة واخترقوا جبال البوت (البرانس) ووصلوا الى جنوب فرنسا . ولم يمنعهم من مواصلة تقدمهم الا الفرتجة بقيادة شارل مارتل وذلك في موقعة بواتيه سنة ٧٣٢ م . كانت اسبانيا قبل الفتح الاسلامي في حالة من الضعف يرثي لها . ويصف أحد المؤرخين السابقين حالها بقوله : « لم يبق من كل ما كان لها إلا الاسم فقط . » فقد كانت فيها طبقة مالكة صغيرة تملك إقطاعات ضخمة من الارض ، والى جانبها كتلة هائلة من أقنان الارض والعييد ، وطبقة وسطى محطمة منحلّة . وكانت الطبقة الممتازة معفاة من الضرائب وتعيش في بذخ داعر . اما سواهم من الناس فكانوا متذمرين بعضهم الجوع . وبدأ في سنة ٦١٢ م اضطهاد شديد لعدد كبير من اليهود من سكان شبه الجزيرة ، فأضيف عنصر آخر الى العناصر الكثيرة التي لم تكن تخشى ضياع شيء من وراء حدوث أي تغيير في الحكم ، بل كانت تأمل ان تكسب من ورائه شيئاً كثيراً .

وكان الأقفان المجددون يؤلفون القسم الاكبر من الجيش القوطي . لكن هؤلاء كانوا لا يعتمد عليهم . وأحدث انتصارات العرب الاولى انهياراً سريعاً في بناء الحكومة القوطية الذي كان قد فخره السوس . فقد أضرب الأقفان ، وثار اليهود على حاكمهم وانضموا الى الفاتحين ، وسلموهم مدينة طليطلة .

وكان الحكم الجديد نزيهاً متسامحاً بحيث جعل المؤرخين
الاسبان انفسهم يفضلونه على حكم الفرنجة في الشمال . وأعظم خدمة
أسداها للبلاد هي القضاء على طبقة النبلاء ورجال الدين القديمة
وتوزيع اراضيهم ، الأمر الذي مكنهم من خلق طبقة جديدة من
صغار الملاكين كان لها الفضل الأكبر في إحداث الرخاء الزراعي
الذي عم اسبانيا الاسلامية . وتحسنت حال الأقبان كثيراً . اما
الطبقة البرجاسية فقد تحلصت من مشاكلها بدخول افرادها في
الاسلام بأعداد كبيرة وباختلاطهم بالعرب .

وظل الجنود الفاتحون بعد الفتح في اسبانيا حيث توطنوا
وتزوجوا مع أهل البلاد . وتتابعت خلال القرن الثامن موجات
جديدة من المهاجرين من شمال افريقية حملت كثيراً من العرب
وحق مزيداً من الافريقيين الى شبه الجزيرة . وفي سنة ٧٤١ م
كان البربر من القوة بحيث استطاعوا إشعال نار ثورة عامة في
اسبانيا ضد العرب . فأنفذ الخليفة الى اسبانيا جيشاً عربياً أكثره
من السوريين بقيادة بلج بن بشر تمكن بسرعة من إلحاق الهزيمة
بالبربر . فأقطع أفرادهم ، مكافأة لهم ، أراضي اسبانيا الواقعة على
ساحل البحر الابيض المتوسط . واستوطن المستعمرون السوريون
الجدد طبقاً للنظام المتبع في سورية نفسها ، فعُيُنِت بموجبه لكل
طائفة من الجند مقاطعة اسبانية . فاستقر جند دمشق في البيورة ،
وجند الاردن في مالقة ، وفلسطين في شدونة ، وحمص في اشبيلية ،
وقنسرين في جيان . وكانت باجة ومرسية من نصيب جيش
مصر . وكان يجري على هؤلاء العرب أصحاب الاقطاعات نظام

الخدمة العسكرية عندما تستدعيهم حكومة قرطبة ، العاصمة العربية لاسبانيا . وكان المفروض ان يعيشوا في اوقات السلم على دخل اراضيهم . إلا ان العرب لم يكونوا حتى ذلك الحين قد اعتادوا الزراعة ، فكان القسم الاكبر من اصحاب الاقطاعات يفضلون الإقامة في عواصم المقاطعات التي تقوم فيها اراضيهم ، والاعتماد في حياتهم على ايرادهم الذي يحصلونه من الاقنان الاسبان او من يفلح لهم الارض ويقاسمهم المحصول . والف هؤلاء طائفة جديدة من سكان المدن قوامها طبقة عربية محاربة تعيش على مدخولها ، ويعرف افرادها باسم الشاميين وذلك لتمييزهم من المستوطنين القدماء الذين رافقوا حملة الفتح الاولى .

وخلق تعزيز العنصر السوري في اسبانيا نتيجة هذه الاحداث جواً ملائماً لعبد الرحمن ، الامير الاموي الذي فر بعد سقوط اسرته في الشرق . وبعد ان مهد عبد الرحمن لنفسه بين جنود بلج ، وغالبيتهم كانوا من انصار الامويين ، نزل في المنكب في سنة ٧٥٥ م . وتمكن بسرعة من هزيمة الوالي الذي كان قد اعترف بسيادة العباسيين ، واحتل قرطبة في سنة ٧٥٦ م واسس في اسبانيا دولة اموية مستقلة امتد حكمها الى سنة ١٠٣١ م .

وكان القرن الاول من حكم الامويين في الاندلس فترة اضطراب شغل خلالها امراء قرطبة بتهدة البلاد والقضاء على حركات التمرد السافرة والخفية التي قام بها مختلف عناصر الشعب . وكان اكثر العرب يقيمون في المدن ويؤلفون كبار اتباع ارستقراطية الجند العسكرية . وكانوا في الجنوب الشرقي اقوى

منهم في اي مكان آخر ، وهددوا سلطان الحكومة في الصميم .
وبتوقف هجرة العرب خلال القرن التاسع وازدياد الاختلاط
بين العرب والاسبان المستعمرين الذين دخلوا في الاسلام ، ضعف
بالتدريج نفوذ الاسر العربية الكبيرة التي لم تعد في العهد الاموي
المتأخر تلعب أي دور بارز في الشؤون العامة . وكان البربر
يفوقون العرب في العدد وينطوون على خطر اكبر من خطرهم .
اذ كانوا في زيادة مستمرة نتيجة لامتداد هجرتهم الى أواخر القرن
الحادي عشر . وشكلوا في المدن اقلية امتزجت بسرعة بباقي
السكان . اما غالبيتهم ، وموطنها الاصلي مناطق مراكش الجبلية ،
فقد فضلت ان تستوطن في ولايات اسبانيا الجبلية
واجتذبتهم اليها تشابه الحياة فيها مع حياتهم السابقة التي تقوم على
تربية الماشية والزراعة ، وما يتوفر في هذا النوع من الارض من
مزايا عسكرية . واخيراً كان في اسبانيا الاسبانيون انفسهم من
المسيحيين واليهود ومعتنقي الاسلام . وكانت هذه الطوائف
غير المسلمة ، والتي كانت في حماية المسلمين اكثر عدداً واحسن
تنظيماً في اسبانيا منها في اي ناحية أخرى من البلاد الخاضعة
للمسلمين . وكانت سياسة الحكومة نحو هذه الطوائف تزيمة متساهلة .
اما ما كان يصيبها من ظلم فيعود في الغالب الى امور سياسية .
لكن التحول الى الاسلام ، الذي تم بدافع الرغبة لا الاجبار ،
جرى بسرعة وعلى نطاق واسع . وفي زمن وجيز اصبح المتحدثون
بالعربية من الاسبان المسلمين ، احراراً وعتقاء وعبداً ،
يؤلفون القسم الاكبر من السكان . وانتشر اللسان
العربي ايضاً بشكل ملحوظ حتى بين اولئك الذين ظلوا على

ولأنهم لدياناتهم القديمة . وفي زمن مبكر لا يعدو منتصف القرن التاسع يشير ألفارو ، وهو مسيحي من قرطبة ، بأسف الى هذا قائلاً :

« كثيرون من اهل ملتي يقرأون شعر العرب وقصصهم ويدرسون كتابات علماء الكلام والفلسفة المسلمين ، لا ليتقنوا أقوالهم وإنما ليتعلموا كيف يعبرون عن انفسهم بالعربية بشكل أكثر دقة وإتقاناً . أين يستطيع المرء اليوم ان يجد رجلاً عادياً يقرأ التعليقات اللاتينية على الكتب المقدسة؟ من من الناس يدرس الأناجيل والرسل والانبياء؟ جميع الشباب النصراني من ذوي المواهب لا يعرفون سوى العربية والادب العربي ، ويقرأون الكتب العربية والادب العربي ، ويجمعون من هذه الكتب مكتبات ضخمة باهظة التكاليف ، ويعلنون في كل مكان ان الادب العربي جدير بالاعجاب . ولا تكاد تجد بين الآلاف منا واحداً يستطيع أن يكتب لصديقه رسالة مقبولة باللغة اللاتينية . ولا يُحصى عدد من يعبرون عن انفسهم بالعربية وينظمون الشعر العربي بأسلوب فني يفوق أسلوب العرب أنفسهم . » وحوالي الوقت ذاته ارتأى كبير أساقفة قرطبة أنه من الضروري ترجمة التوراة الى العربية وشرحها لا لغراض تبشيرية وإنما من اجل جماعته . وانخرط كثير من النصارى في خدمة الدولة . حتى لقد كان الامراء الامويون يرسلون اساقفة في بعثات دبلوماسية . ويعرف المتحولون الى الاسلام في التاريخ الاسباني بالمرتدين ، ويُطلق عليهم العرب في استخفاف كلمة « المولدون » .

وكان حكم عبدالرحمن الثاني (٨٢٢ - ٨٥٢) فترة طويلة من الهدوء النسبي ، تمكن خلالها من أن يعيد تنظيم مملكة قرطبة على نهج الادارة العباسية ، فأوجد مركزية مستبدة ، وبلاطاً يشبه بلاط العباسيين . واشتهر بتشجيعه للآداب ، فجلب من الشرق كتباً كثيرة وعدداً كبيراً من العلماء ، وبهذا وثق الصلات الثقافية بين المسلمين في اسبانيا وبين مراكز الحضارة الاسلامية في الشرق . وكان من أبرز من حضروا من الشرق زرياب ، وهو موسيقي فارسي طُرد من بلاط هارون الرشيد بسبب حسد استاذة له ، والتجأ الى بلاط قرطبة وأصبح المرجع الاخير في أمور الذوق والازياء في العاصمة الاسبانية . وأدخل كثيراً من فنون الظرف الجديدة غير المعروفة من الحضارة الشرقية ، فتناول مختلف الامور مثل الالحان الموسيقية وارتداء اللؤلؤ الجميلة وأكل الهليون .

وفي ظل خلفاء عبدالرحمن تلاشى خطر الفتن الداخلية . فقد اندمج العرب والبربر والاسبان والمسلمون ، وكونوا شعباً مسلماً متجانساً يفخر باستقلاله في الثقافة والسياسة ، وينحرف في اتجاهه العام منحى (اقليمياً) ايبرياً أخذ يقوى في كل يوم . وأفادت هذه الحركة نحو التوحيد الثقافي والسياسي الكثير من تحول مجرى الحوادث في بداية القرن العاشر . اذ شهدت هذه الفترة قيام الفاطميين في شمال افريقية وتأسيسهم خلافةً فاطمية خارجة على الخلافة السنية ومعادية لها ، وذلك بتروؤسهم لحركة ثورية واسعة النطاق تدعو الى التمرد

والعصيان. فدفع هذا عبد الرحمن الى أن يتخذ لنفسه لقب « خليفة » وما يصحبه من أبهة ، وناذى بنفسه مرجعاً أعلى للمسلمين في اسبانيا ، مُحطِّماً بذلك آخر ما يربطه بالولاء للشرق . وكان حكم عبد الرحمن الثالث بداية الأوج الذي بلغه حكم الأمويين في الأندلس ، كما كان عهده فترة استقرار سياسي وسلم داخلي ، دان خلالها رؤساء العرب الاقطاعيون ، والبربر الجبليون بالطاعة لسلطان الحكومة المركزية . وتلاشت في هذه الفترة المؤثرات الشرقية ، وبدأت تظهر حضارة عربية اسبانية متميزة وقع فيها التقليد العربي العريق تحت مؤثرات المحيط المحلي الرقيقة . وفي الوقت ذاته استمرت العلاقات التجارية قائمة مع الشرق . ويدل قيام العلاقات الديبلوماسية مع بيزنطة على قوة الحكومة الأموية ومركزها الرفيع . وواصل الحكم الثاني (٩٦١ - ٩٧٦ م) مشجع الادب والأدباء ، الذي جمع مكتبة عظيمة تضم آلاف المجلدات ، ووزيره المنصور حاكم البلاد الحقيقي بوجه خاص ، مهمة عبد الرحمن في خلق مركزية الحكم وتوحيد الشعب .

وعندما توفي المنصور خلال حكم هشام (٩٧٦ - ١٠٠٨ م) تفككت عرى وحدة الدولة ، فقد أفسح تراخي السلطات المركزي المجال لظهور المنافسات المكبوتة بين الطائفتين التاليتين ، وهما الأندلسية ، وتشمل جميع سكان اسبانيا المسلمين ، وطائفة البربر حديثي الهجرة من افريقية الى اسبانيا . وفي فترة الحرب الأهلية والفتن التي تلت ذلك لعب فريق ثالث يعرف بالصقالبة دوراً خطيراً حاسماً . وكانت كلمة « صقالبة » تطلق في بادئ الأمر على

العبيد الذين هم من اصل اوروي شرقي ، ثم أصبحت آخر الأمر تشمل من كان منهم من اصل اوروي والنخرط في خدمة الخليفة . وكان بينهم عدد كبير من الايطاليين ومن اتوا من الشمال من معقل المسيحيين التي لم يكن قد شملها الفتح بعد . وكان هؤلاء العبيد يُجلبون في سن مبكرة ، كما كانت غالبيتهم من المسلمين الذين يتكلمون العربية . وفي منتصف القرن التاسع اصبحوا ذوي اهمية متزايدة في الجيش وفي القصر . وبلغ عددهم ، في تقدير أحد المؤرخين ، زمن عبد الرحمن الثالث ، ١٣٧٥٠ عبداً . وأعتق كثيرون منهم ، وتمكنوا من جمع ثروات ومن تحسين مركزهم . وكان الأمويون قد اتخذوا منهم قوة تكبح جماح نفوذ رؤساء العرب الاقطاعيين ، فعينوا كثيرين منهم في مراكز حكومية عالية وفي قيادة الجيش . إلا أن تمردهم ونزاعاتهم مع البربر ساعدت كثيراً على اسقاط الخلافة الاموية .

وكان النصف الأول من القرن الحادي عشر فترة تفكك سياسي تجزأت اسبانيا خلاله بين سلسلة من صغار الملوك والامراء ينتمون الى اصول بربرية او صقلية او اندلسية . ويعرف هؤلاء باسم « ملوك الطوائف » . وتعرضت اسبانيا بسبب هذا الضعف السياسي الى غزو مزدوج : فمن الشمال غزاها المسيحيون يساعدهم الفرنجة ، ومن الجنوب غزاها البربر . وفي سنة ١٠٨٥ اطبقت جيوش الفتح المسيحية الزاحفة على طليطلة التي كان ضياعها بمثابة ضربة ميمية لاسبانيا الاسلامية . لكن على الرغم من ضعف البلاد وتفككها السياسيين فقد كان عهد ملوك الطوائف فترة ازدهار

ثقافي . فكانت دور البلاط خلاله مراكز للمعرفة والفلسفة والعلم
والادب ، بينما اتاح سقوط الخلافة استئناف العلاقات الفعلية ،
سياسية وثقافية ، مع الشرق .

وانتهى حكم ملوك الطوائف بقيام البربر مرة أخرى بغزو
اسبانيا من إفريقية . ودخل يوسف بن تاشفين ، مؤسس أسرة
المرابطين ، إسبانيا بدعوة من الاندلسيين انفسهم لكي يصد خطر
المسيحيين . فلما هزم المسيحيين في سنة ١٠٨٦ م مضى يضم
الدويلات الصغيرة الى امبراطورية مراكش . وأفسح المرابطون
انفسهم بدورهم المجال لدولة افريقية جديدة هي دولة الموحدين ،
وهم طائفة من البربر شديداو التعصب للدين . وفي هذه الاثناء
استمر المسيحيون في استرجاع اسبانيا . وفي سنة ١١٩٥ م كسب
المسلمون آخر نصر لهم في موقعة جرت عند الأرك . ومهدت
هزيمة المسلمين في موقعة حصن العقاب في سنة ١٢١٢ م لانتصارات
مسيحية جديدة بلغت ذروتها في احتلال قرطبة في سنة ١٢٣٦ م ،
واشبيلية في سنة ١٢٤٨ م . وتجزأت مملكة المرابطين الى سلسلة
جديدة من الدويلات كانت قصيرة العمر . ولم تحل نهاية القرن
الثالث عشر حتى كان المسيحيون قد استعادوا شبه الجزيرة باستثناء
ولاية غرناطة ، بما في ذلك مدينة غرناطة ، التي ظلت تحكمها دولة
اسلامية طيلة قرنين آخرين من الزمن . وهناك ، وفي وهج غروب
اسبانيا الاسلامية ، قام قصر الحمراء ، تلك الاعجوبة الفخمة التي هي
آخر وأسمى مظهر لعبقريتها الخلافة . وفي الثاني من يناير سنة
١٤٩٢ م احتلت جيوش قشتالة وأرغون مدينة غرناطة ، و صدر

بعد ذلك بزمن وجيز منشور ملكي يقضي بطرد جميع السكان غير الكاثوليك من شبه الجزيرة ، وعاشت اللغة العربية برهة أخرى بين من أُجبروا على التحول الى النصرانية . لكن حتى هؤلاء أبعدوا الى افريقية في بداية القرن السابع عشر .

وكانت اسبانيا الاسلامية في أوجها مشهداً يدعو الى الفخر . فقد أغنى العرب الحياة في شبه الجزيرة في نواح كثيرة : ففي الزراعة أدخلوا الري القائم على أسس علمية وعدداً من النباتات والاشجار المثمرة الجديدة مثل الحمضيات والقطن وقصب السكر والأرز . ويعود اكثر الفضل في ازدهار الزراعة في ظل الحكم العربي الى التغييرات التي أحدثوها في نظام ملكية الارض . وتطورت على ايديهم صناعات كثيرة كصناعة النسيج والحزف والورق والحزير والفضة وغيرها من المعادن . وكان الصوف والحزير ينسجان في قرطبة ومالقة والمرية ، والحزف في مالقة وبلنسية ، والسلاح في قرطبة وطليطلة ، والجلد في قرطبة ، والطنافس في بسطة وقلسانة ، والورق - والعرب هم الذين جلبوه من الشرق الاقصى - في شاطبة وبلنسية . وكان النسيج - شأنه في اي مكان آخر من بلاد المسلمين - يؤلف الصناعة الرئيسية . ونقرأ عن وجود ثلاثة عشر الف حائك في قرطبة وحدها . وأنشأت اسبانيا الاسلامية تجارة خارجية واسعة النطاق مع الشرق ، فكانت الاساطيل التجارية تخرج من قواعدها في القرض الاندلسية حاملة حواصل الاندلس الى جميع بلدان البحر الابيض المتوسط . وكانت أسواقها الرئيسية هي بلدان شمال

افريقية وفي مقدمتها مصر ، والقسطنطينية حيث كان التجار البيزنطيون يشترون الحواصل الاسبانية ويبيعونها في الهند واواسط آسيا . وترينا الكلمات العربية التي لا تزال مستعملة في امور الزراعة وفي مختلف المهن مدى قوة التأثير العربي . والاصطلاحات العربية الباقية في اللغة الاسبانية في امور الادارة المحلية وفي التعابير العسكرية خير شاهد على قدرة التقليد العربي على الرسوخ . وفي القرن الرابع عشر خلفد الملك المسيحي الذي استعاد « القصر » عمله بنقش بالعربية يقول : « عزّ مولانا السلطان 'ضن' بضر تع »^١ . وظلت النقود مدة طويلة بعد استعادة المسيحيين لاسبانيا ذات نماذج عربية . وأسهمت الحضارة الاسبانية العربية بقسط عظيم لا سبيل إلى انكاره في الآداب العربية جملة ، كما ان لها مآثر في كل نوع من فروع التقليد العربي الكلاسيكي الذي هي جزء منه . بل كان ما وصل من التراث اليوناني الى عرب اسبانيا وخاصة في زمن عبد الرحمن الثاني ، يفوق ما وصل اليهم من مصادر محلية . ووضح التأثير المحلي في ميدان الشعر الغنائي ، فأوجد فيه عرب اسبانيا اشكالا جديدة لم تكن معروفة لدى المسلمين في الشرق ، وكان لها تأثير كبير في أشعار اسبانيا النصرانية الأولى وربما ايضاً في آداب بلدان أوروبا الغربية . ولعل أبرز ما ابتدعه اسبانيا الاسلامية هو في الفن وهندسة البناء اللذين احتديا في الاساس النماذج العربية والبيزنطية الشائعة في الشرق

(١) أنظر Amador de los Rios : Inscripciones Arabes de Sevilla.
Sevilla. (Madrid 1875)

الادنى ، ثم تطورا تحت تأثير المؤثرات المحلية الى شيء جديد ذاتي
اصيل . ويعين لنا جامع قرطبة المشهور ، الذي وضع أساسه
عبد الرحمن الاول ، نقطة البداية في طراز اسباني عربي جديد قدر
له فيما بعد ان ينتج روائع مثل برج جيرا الدا والقصر في اشبيلية ،
والحمراء في غرناطة .

ويتفاوت تقدير المؤرخين الاسبان وحماستهم ، كما هو متوقع ،
لما تركه الاحتلال العربي من آثار باقية في حياة اسبانيا ونظمها .
ويسرد العالم الاسباني المعاصر (سانشز ألبرنوز) في مقال رصين
النتائج المضرة الباقية ، في نظره هو ، لسهر اسبانيا الطويل على
حماية الغرب ضد زحف المسلمين ، والمجهد الشاق الذي تكبدته في
سبيل استعادة شبه الجزيرة . وأولى هذه النتائج هي تجزؤ البلاد
السياسي . فقد قضت عمليتا فتح شبه الجزيرة ثم استعادتها على
وحدتها السياسية التي احرزت قدراً كبيراً من التقدم في ظل الحكم
الروماني ، ونتج عن استرداد البلاد قطعة قطعة ان تجددت
روح الانفصالية الاسبانية القديمة ، وأن تخلفت اسبانيا مراحل
وراء باقي اوروبا في مضمار التطور السياسي ومركزية الحكم .
ورافق هذا التأخر السياسي تأخر اقتصادي أورثها اياه استنزاف
قواها في عملية استرجاع البلاد الشاقة ، فلم يبق لديها من القوة ، ان
كان قد بقي شيء منها ، ما يعينها على الارتقاء بالتجارة والصناعة
اللتين تعطلتا على اي حال بسبب انتقال اسبانيا من محيط البحر
الابيض المتوسط وافريقية ، الذي كانت تابعة له في ظل الحكم
العربي ، الى عالم غرب اوروبا . فقد أصبحت في هذا المحيط الجديد

بلداً مستجداً متخلفاً وراء غيره من البلاد في مضار التطور ،
ويعيش لسوء الحظ ، على هامش الحياة فيه . ويقول هذا الكاتب
اخيراً : « لم يؤخر تأثير الحكم العربي المشؤوم لاسبانيا حمايتها
الاقتصادية فحسب بل وتنظيمها السياسي ايضاً . وأحدث ، حتى
في أدق خلجات النفس الاسبانية ، ردود فعل مثقلة بأسوأ الآثار .
وظهرت في اسبانية نتيجة للمجهود الشاق الذي بذل لاستردادها
عقلية حربية مغامرة ، وضعف في الادراك السياسي ، حفزاً
الاسبان الى تبديد قواهم في حملات عسكرية غير مثمرة من اجل
التوسع الاستعماري ، بينما احدث طابع الحرب الديني تضخماً وبيلاً
في رجال الدين والنفوذ الاكبريكي اصبحت آفة الحياة السياسية في
اسبانيا . وهناك قالة يرددها علماء الاسبان وفحواها أنه بينما كانت
حضارة الخلافة بلاشك غنية متنوعة وأغنى في الواقع من
حضارات اوروبا السائدة آنذاك - فانها لم تعوض عن هذه
الاضرار ، لان الجزء الأكبر منها أبعد من البلاد مع العرب
انفسهم ، واقتصر أثرها في اسبانيا النصرانية بشكل محدود على
الحياة الثقافية التي قامت على الدول المستقلة في الشمال الذي سلم
من الفتح ، أكثر مما قامت على ثقافة مسلمي الجنوب الزاهرة .
حقاً لقد كان تأثير العرب الدائم في اسبانيا اصغر شأناً منه ،
على سبيل المثال ، في فارس . فلا تزال جميع الالفاظ الاصطلاحية
المتصلة بالثقافة والحياة الروحية في فارس ، على وجه التقريب ،
عربية . لكن حتى الكلمات الكثيرة الباقية ذات الاتصال بالحياة
المادية ترينادين اسبانيا الهام للعرب في المسائل الاقتصادية

والاجتماعية ، والى حد ما في الامور السياسية كذلك . وفي ميدان الثقافة ايضاً يجب اعتبار التراث العربي ذا أهمية كبيرة لاسبانيا وفي الواقع لجمع غرب اوروبا . فقد كان يؤم اسبانيا مسيحيون ينتمون الى بلاد كثيرة ليدرسوا جنباً الى جنب مع الاسبانيين الوطنيين على اساتذة مسلمين ويهود يتكلمون العربية . وعرف الغرب جزءاً كبيراً من تراث الاغريق القدماء لأول مرة من طريق الترجمات التي وجدت في اسبانيا . وكانت مدينة طليطلة التي استردها الاسبان في سنة ١٠٨٥ اول واعظم مركز لنقل الثقافة من الاسلام الى النصرى في الغرب .

وبقي في طليطلة كثير من علماء المسلمين انضادت اليهم في الحال اعداد كبيرة من اليهود لجأوا اليها من الجنوب الواقع تحت سيطرة المسلمين ، والذي أصبح الآن خاضعاً لحكم الموحدين غير المتسامحين الذين ادخلوا الاضطهاد الديني العنيف الى اسبانيا الاسلامية ، وأجبروا كثيراً من اليهود على أن يبحثوا لأنفسهم عن مأوى مؤقت في طليطلة التي كان يسودها جو اكثر تسامحاً . وأخرجت مدارس الترجمة في طليطلة خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، وخاصة خلال حكم ألفونسو الحكيم ، ملك قشتالة وليون (١٢٥٢ - ١٢٨٤) عدداً ضخماً من المؤلفات بينها كتاب المنطق لأرسطو وكثير من مؤلفات إقليدس وبطليموس وجالينوس وابقراط . وغنيت هذه الترجمة بما أضافه اليها شراحها العرب ومن جاء بعدهم . وكان الترجمة في العادة يعملون بمساعدة مواطنين يتكلمون لغتين ، وكان بينهم كثير من اليهود وعلماء

اسبانيون وأجانب ، نذكر منهم دو مينجو 'جند يسلافي ، ويهوداً
من دخلوا في الاسلام مثل يوحنا الاشيلي وبطرس الفونسي ،
ومتوجمين من بلاد اخرى مثل جيرارد القريموني من ايطاليا ،
وهير من الدالماتي من المانيا ، وبريطانيين مثل أديلارد أوف باث
ودانيال من مورلاي وميخائيل سسكوت .

وقد ترك العرب طابعهم في اسبانيا: في فنون الفلاحين واصحاب
المهن الاسبانيين ، وفي الكلمات التي يصفون بها هذه الفنون ، وفي
الفن وهندسة البناء ، وفي موسيقى شبه الجزيرة وأدبها ، وفي علوم
أوروبا وفلسفتها في العصور الوسطى ، بعد أن أغنوا هذين
الأخيرين بما نقلوه من تراث الماضي باخلاص وزادوا فيه . اما بالنسبة
للعرب أنفسهم فقد ظلت ذكرى اسبانيا الاسلامية ماثلة بين من
نفوا إلى شمال افريقية ، ولا يزال كثيرون منهم يحملون أسماء
أندلسية بل ويحتفظون بقايا بيوتهم في قرطبة واشبيلية معلقة على
جدران منازلهم في مراكش والدار البيضاء ، ومنذ زمن قريب
قام زائر اسبانيا من الشرق ، مثل الشاعر المصري احمد شوقي
والعالم السوري محمد كرد علي ، بتذكير عرب الشرق بما أثر اخوانهم
الاسبانيين العظيمة ، وأعادوا ذكرى اسبانيا الاسلامية إلى
مكانها الجديرة به في وعي العرب القومي .

الفصل الثامن

الحضارة الاسلامية

« والى لسان العرب نقلت العلوم من
اقطار العالم فازدانت وحلت في الافئدة
وسرت محاسن اللغة منها في الشرايين
والأوردة » البيروني .

نمت خلال فترة الأوج التي بلغتها الامبراطوريات العربية
والاسلامية في الشرقين الادنى والاوسط حضارة زاهرة تعرف
عادةً بالحضارة العربية . ولم يأت العرب بها معهم من الصحراء
جاهزة ، لكن خلقها بعد الفتوح تعاونُ أمم عديدة من عرب
وفرس ومصريين وغيرهم ؛ بل لم تكن اسلامية خالصة ، اذ كان
بين مُبدعيها نصارى ويهود وزرادشتيون كثيرون . إلا أن
أداة التعبير الرئيسية فيها كانت اللغة العربية ، كما أن الاسلام
ونظيرته الى الحياة سيطرا عليها . وكان هذان الشيطان ، أي اللغة
والدين ، اعظم ما قدم العرب الفاتحون الى الحضارة الجديدة
الاصيلة التي نمت تحت لواهم .

والعربية احدى اللغات السامية . وهي من عدة وجوه اغناها . وقد كان العرب قبل الاسلام شعباً بدائياً ذا نمط في الحياة ضيق بدائي ، وعلى شيء قليل من التعلم او الثقافة الشكلية . ويكاد الا يكون لهم آثار مكتوبة . الا انهم كانوا قد ارتقوا الى لغة شعرية وآثار غنية غنى بارزاً ، وشعر له أوزان متقنة معقدة ، وقافية وصناعة كلامية ، ودقة في الصيغة عريقة صارت انموذجاً لأكثر الشعر العربي فيما بعد . وشعرهم هذا بما فيه من وفرة في العاطفة والخيال ، وقلة محدودة في الموضوعات ، تعبير صادق عن حياة البدو ، يتغنى بالحمز والحب والحرب والقتل والفوات المرعية من جبال وصحارى ، وبشجاعة رجال القبائل انفسهم ، ويجبن اعدائهم وخستهم . وكما هو منتظر فهو ليس بادب تجريد او فكر خالص .

وجعلت الفتوح اللغة العربية لغة الحكم . وسرعان ما صارت أيضاً لغة ثقافة عظيمة متنوعة . وتوسعت اللغة العربية لتسد هاتين الحاجتين بأن استعارت ألفاظاً وتعابير جديدة في أقل الاحيان ، وبأن تطورت من ذاتها في أغلب الاحيان ، فبنت من الاصول القديمة كلمات جديدة ، وجعلت للالفاظ القديمة معاني جديدة ، وكمثال على هذا التطور نستطيع ان نختار الكلمة العربية « مجرد » ، وهي تعبير عن مفهوم لم تكن للعرب قبل الاسلام حاجة اليه بالمرّة . وهي اسم المفعول من « جرّد » أي عرى ، كما انها اصطلاح يستعمل عادة للجراد ومرتبطة بكلمتي جرادة وجريدة وهي الورقة . وصار للغة التي اوجدت بهذه الطريقة

ألفاظ حية واضحة المعالم قوية الصور ، ولكل منها جذور عميقة
في ماضٍ وتراثٍ عربيين صرفين . ويسرت للأفكار أن تصل
مدلولاتها إلى العقل مباشرة ودون التواء ، عن طريق كلمات بيّنة
مألوفة متغلغلة تغلغلاً غير مقيد إلى طبقات الوعي العميقة ومنها .
وبقيت اللغة العربية ، وقد غنيت على هذا الشكل ، الأداة
الوحيدة للثقافة مدة طويلة بعد سقوط الدولة العربية الصرفة .
ومع لغة العرب جاء شعرهم كمثل أدبي ، وجاء عالم الأفكار التي
يضمها ؛ وهو محسوس غير مجرد على الرغم من أنه في أحيان كثيرة
يغدو خفياً كثير الإشارات ، وهو بليغ وحامسي إلا أنه ليس
من صميم النفس ، كما أنه ذو طابع شخصي . ومع أنه عامر
بالتكرار والعاطفة المتفجرة إلا أنه ليس شعراً قصصياً ولا يدور
حول موضوع واحد ، وهو أدب لوقع الكلمات فيه والشكل
أهمية تفوق أهمية التعبير عن الأفكار . وتتجلى الإعجوبة الحقيقية
للتوسع العربي في تعريف الولايات المفتوحة أكثر مما تتجلى في
حروب الفتح نفسها . فحين حل القرن الحادي عشر أصبحت اللغة
العربية ، بالإضافة إلى كونها اللغة الرئيسية للتعبير عن أمور الحياة
اليومية من فارس إلى جبال البوت ، الأداة الرئيسية للثقافة ،
وحلت محل لغات الثقافة القديمة كاللغة القبطية والآرامية واليونانية
واللاتينية . وبانتشار اللغة العربية أصبح التمييز بين العرب الفاتحين
وبين المغلوبين المستعربين وإهياً قليل الأهمية نسبياً . وبينما كان
جميع الذين يتكلمون العربية يبدوون كأنهم ينتمون إلى جماعة
واحدة عاد لفظ « العربي » يحدد مرة ثانية بالبدو الذين عرفوا به

أصلاً أو أصبح دلالة على رفعة النسب دون ان تكون له قيمة اقتصادية او اجتماعية .

بل إن اللغة العربية أثرت تأثيراً واسعاً في اللغات الاسلامية الاخرى فيما وراء المناطق الواسعة التي تعربت بصورة ثابتة .
فالفارسية والتركية الاسلاميتان ، والأردية فيما بعد أيضاً ، ولغة الملايو والسواحلي كلها لغات جديدة تصطنع الحط العربي وتضم مفردات عربية كثيرة جداً تشبه في كثرتها العناصر اليونانية واللاتينية في اللغة الانجليزية ، وتتناول جميع عالم التصورات والافكار .

ثم إن بقاء اللغة العربية واتساعها يعني شيئاً أبعد من اللغة ذاتها ، فهو مثلاً أبعد اثرأ من استمرار استعمال اللغة اللاتينية في الغرب زمن العصور الوسطى . فقد صاحب اللغة ذوق العربي وسننئته في اختيار الموضوعات وتناولها . وبما يوضح هذا أن تقارن بين الشعر الذي كتبه الفرس بالعربية حتى القرن الحادي عشر والشعر الذي كتب بالفارسية فيما بعد ، عندما نمت في فارس الاسلامية ثقافة اسلامية مستقلة . فالشعر الفارسي العربي يختلف في امور كثيرة ذات شأن عن شعر العرب انفسهم فيما سبق ، ولكنه في اساسه يوافق الذوق العربي ، ولا يزال العرب يعترفون به ويعدونّه جزءاً من تراثهم . وهو خالٍ من الشعر القصصي والغنائي الذاتي الموجود في الشعر الفارسي فيما بعد .

ولم يكن الاسلام ، الذي هو وليد بلاد العرب والنبي العربي ، منهجاً للاعتقاد والعبادة فقط ، بل كان منهجاً للدولة والمجتمع

والشريعة والفكر والفن . كان حضارة فيها عامل يوحدتها ويسيطر عليها في النهاية وهو الدين . ومنذ الهجرة صار الاسلام لا يعني الخضوع للدين الجديد فحسب بل للجماعة - وهو من الناحية الفعلية خضوع لسلطان المدينة والنبي ، ثم اصبح فيما بعد خضوعاً لسلطان الدولة والخليفة . وكان الاسلام في بادئ الامر دلالة على « الجنسية » العربية ثم صار فيما بعد دلالة على المواطن ذي المقام الأعلى في الدولة . وكان قانونه هو الشريعة ، وهي القانون المقدس الذي استنبطه الفقهاء من القرآن وأحاديث الرسول . ولم تكن الشريعة مجموعة أمرية * للقانون فحسب ، بل كانت في مناحيها الاجتماعية والسياسية نموذجاً للسلوك كذلك ، ومثلاً أعلى ، على الناس والمجتمع أن يسعوا اليه . ولم يعترف الاسلام بأي سلطة تشريعية اخرى ما دام القانون لا يصدر إلا عن الله فقط من طريق الوحي . إلا أن القانون العرفي والتشريع المدني وإرادة الحاكم بقيت بصورة غير رسمية ، وكان يحدث أن تنال في بعض الاحيان اعترافاً محدوداً لدى الفقهاء . ونظمت الشريعة 'الموحي بها من الله كل جانب من جوانب الحياة . فبالإضافة إلى العقيدة والعبادة نظمت القانون العام الدستوري والدولي والقانون الخاص الجنائي والمدني . ووضح ما تكون شخصيتها المثالية في الناحية الدستورية . فرئيس الجماعة ، بحسب الشريعة ، هو الخليفة ، وهو نائب من الله 'منتخب ، له اليد العليا في كل الامور العسكرية والمدنية والدينية . ويقوم بواجب الابقاء على تراث الرسول الروحي والمادي سليماً . ولم يكن

normative *

للخليفة نفسه سلطان روحي . فكان لا يقدر ان يغير في العقيدة وان يضع عقيدة جديدة . ولم تكن تسنده طبقة كهنوتية ، بل كانت تساعد طبقة من العلماء ، شبه كهنوتية ، وهم الفقهاء الذين كانت تقتصر سلطتهم على التفسير والتأويل . لكن الخليفة اصبح بالفعل ، منذ ان حل القرن التاسع ، ألعوبة في يد القادة العسكريين والمغامرين السياسيين . وفي القرن الحادي عشر ظهر الى جانب الخليفة السلطان كحاكم دنيوي ، وافر الفقهاء السلاطين على وضعهم الجديد ، غير راضين ، على أساس الاقرار بالامر الواقع . ويمكن ان نرى التباين نفسه في امر تطبيق القانون . فالى جانب القاضي ، الذي كان يقوم على تنفيذ القانون المقدس ، كانت هناك محاكم دنيوية غرضها الواضح هو تناول القضايا التي لا تنطوي تحت تشريع القاضي ، وردّ المظالم التي تنشأ عن الاستبداد بالسلطة .

وبطبيعة الحال وقعت هاتان الهبتان اللتان قدمهما العربي - اي اللغة والدين - منذ اقدم الازمنة تحت مؤثرات خارجية . وحتى في الشعر الجاهلي والقرآن نجد كلمات دخيلة ؛ وقد تضخم عدد هذه الكلمات في فترة الفتح . وتبين المصطلحات الادارية من الفارسية واليونانية ، والمصطلحات اللاهوتية من العبرية والسريانية ، والمصطلحات العلمية والفلسفية من اليونانية ، أثر الحضارات القديمة الهائل في الحضارة الجديدة التي كانت على وشك ان تولد . والمجتمع الاسلامي في فترة ازدهار الحضارة كان تطوراً مركباً يضم في ذاته عناصر كثيرة من أصول مختلفة : فكان يضم أفكاراً نصرانية ويهودية وزرادشتية

عن النبوة والدين الشرعي والثواب والعقاب والصوفية ، وأساليب
ساسانية وبيزنطية في الادارة والحكم ، ولعل أهمها هو تأثير الحضارة
الهلينستية وخاصة في العلوم والفلسفة والفن والعمارة بل وفي
الأدب الى حد ضئيل . وكان التأثير الهلينستي عظيماً الى حد وصف
معه الاسلام بأنه الوريث الثالث للتراث الهلينستي الى جانب
النصرانية واليونانية واللاتينية . لكن هيلينستية الاسلام كانت
هيلينستية الشرق الادنى المتأخرة التي جعلتها المؤثرات الآرامية
والمسيحية شبه شرقية ، والتي هي استمرار غير منقطع للعالم القديم
اكثر من كونها بعتاً جديداً لأثينا القديمة كما كان الحال في الغرب .
ولم تكن الحضارة الاسلامية ، رغم تنوع اصولها هذا ، مجرد
تجميع آلي للثقافات القديمة ، بل هي بالاحرى خلق جديد انبثت
فيه جميع هذه العناصر لتكون حضارة جديدة اصيلة ، وذلك
بان انتقلت الى صور عربية اسلامية . وهذه العملية سمة مميزة لكل
مرحلة من مراحل تطور هذه الحضارة .

واعظم ما أثر العرب في نظرهم واولها في حساب الزمن هو
الشعر مع ما يصحبه من فن الخطابة . وقد كان للشعر قبل الاسلام
وظيفة عامة واجتماعية . وكثيراً ما كان يبدو الشاعر ، مداحاً كان او
هجاءً ، ذا أثر سياسي خطير . وفي العهد الاموي جمعت الاشعار
التي كانت تتناقل مشافهة ، ومن ثم اتخذت اتمودجاً لما احرزها الشعر
من تطور فيما بعد . وغني الشعر العربي زمن العباسيين بمساهمة
عدد من غير العرب فيه وخاصة من الفرس ، الذين كان اول من
نبغ منهم بشار بن برد الاعمى الموهوب (توفي سنة ٧٨٤م) واستطاع

هؤلاء خلال فترة من الزمن ان يغلبوا ما ادخلوه من موضوعات
واشكال جديدة على الناذج الجاهلية وذلك بعد عراك مرير بين
الأقدمين والمحدثين . لكن حتى هؤلاء المجددون انفسهم كانت
تقيدهم ضرورة تكييف انفسهم حسب الذوق العربي بين الحكام
والطبقة الرفيعة الحاكمة . واستسلموا آخر الامر أمام انتصار حركة
كلاسيكية حديثة ، وكان اعظم حاملي لواها المتنبئي (٩٠٥-٩٦٥ م)
الذي يعتبره العرب اعظم شعرائهم .

والقرآن ذاته اول نص في الادب النثري العربي الذي أنتج
في القرون الاولى من الحكم الاسلامي نثراً مسجوعاً ومرسلاً كان
اغنى ما يكون في الادب والرسائل . واعظم كتاب الرسائل ،
بل واعظم كتاب النثر العربي كان عمرو بن بجر المعروف بالجاحظ
(وتوفي ٨٦٩ م) . وكان الجاحظ من اهل البصرة وحفيداً
لمملوك أسود؛ ولكن سعة اطلاعه واصالته وسحر كتابته تجعل له
مكاناً فريداً في الآداب العربية . وقد كان العلم والتعلم في الاصل
أمرين دينيين . وقد نشأ علم النحو واللغة من الحاجة الى تأويل القرآن
وتفسيره . وكان الورعون من أصحاب المدرسة القديمة في المدينة يقصرون
انفسهم على العلوم الدينية البحتة : وهي تفسير القرآن واستنباط
الاحكام وتدوين الحديث . وأدى هذا العلم الاخير الى نشوء
المذاهب الاسلامية في الفقه والتاريخ التي نبعت من مادة الحديث
في التشريع والسيرة . وما اولها ، وهو الفقه ، حتى صار مدونة
واسعة مهبذة للشريعة الفقهية . اما التاريخ عند العرب فقد بدأ
بسيرة الرسول التي غنيت في البداية بتدوين أخبار العرب التاريخية

الجاهلية السماعية ، وفيما بعد وبوجه خاص باحتذاء تاريخ ملوك آل
ساسان الذي عرفه العرب بطريق الفرس المسلمين . وللعرب حاسة
تاريخية قوية . وسرعان ما صاروا يكتبون تواريخ ضخمة متعددة
المناهج كالتواريخ العامة والمحلية وتواريخ الاسر والقبائل والخطط .
وأقدم كتب التاريخ العربية لا تزيد على ان تكون مراجع
كتبت على صورة مدونات الحديث ، وتتألف من روايات
شاهد عيان مصدره بسلسلة من سند الرواة . ومن هذه
الروايات الاخبارية والتي كانت احياناً تفسيرية تطور التاريخ
الذي بلغ أوجه في تاريخ ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦) أعظم
مؤرخي العرب ، ولعله أعظم مفكر تاريخي في العصور الوسطى .
وقد كان الأدب الديني عرضة لمؤثرات نصرانية قوية وخاصة
في الفترة الأولى . ودخل في الحديث كثير من مادة كتب الوحي
النصرانية والتلمود . وبدأ الأدب الديني الحقيقي تحت مؤثرات
النصرانية السريانية ، وفيما بعد ، تحت مؤثرات الفكر اليوناني .
وكان المؤثر اليوناني اساسياً في الفلسفة وجميع العلوم: في الرياضيات
والفلك والجغرافيا والكيمياء والطبيعات والتاريخ الطبيعي
والطب . وشهد التعلم ، بسبب ما بذل من مجهود هائل في ترجمة
الكتب اليونانية ، إما مباشرة من الأصل او من ترجمات سريانية ،
نموّاً جديداً في القرنين التاسع والعاشر . وكانت المدارس اليونانية
قد بقيت في الاسكندرية وانطاكية واماكن اخرى ، وفي الكلية
الفارسية في جنديسابور التي أنشأها نساطرة لاجئون من بيزنطة
في فارس الساسانية . وبدأت حركة الترجمة في ظل الأمويين عندما

ترجمت بعض المؤلفات اليونانية والقبطية في الكيمياء . وفي عهد عمر الثاني قام ماسرجويه ، وهو يهودي من اهل البصرة ، بترجمة كتب طبية باللغة السريانية الى العربية ، فوضع بذلك اسس علم الطب عند العرب . وكان المترجمون في العادة نصارى ويهوداً اكثرهم من السوريين . وكانت الترجمة في ظل الامويين متقطعة وتقوم على مجهود الافراد ؛ اما في زمن العباسيين فقد نظمت وظهرت بتشجيع الدولة . واعظم فترة ازدهرت خلالها الترجمة هي القرن التاسع وخاصة في عهد المأمون (٨١٣ - ٨٣٣) الذي اسس مدرسة للترجمة في بغداد نضم مكتبة وتعنى بشؤونها هيئة نظامية . وكان حنين بن اسحق (٨٠٩ - ٨٧٧) واحداً من اشهر المترجمين ، وهو طبيب نصراني من جنديسابور قام بترجمة كتب جالينوس الستة عشر وفصول ابقراط الطبية ومؤلفات اخرى كثيرة . وتناول مترجمون آخرون الفلك والطبيعات والرياضيات ومواضيع اخرى . وكانوا يترجمون من اليونانية الى السريانية او كما كان يحدث غالباً ، الى العربية . وكان الخلفاء يبعثون العلماء الى مختلف النواحي ، وحتى الى بيزنطة ، للبحث عن المخطوطات .

ووضع بعض هؤلاء المترجمين الأولين كتباً من تأليفهم كانت في العادة مختصرات للاصول اليونانية وشروحاً عليها . الا انه سرعان ما ظهر جيل من المؤلفين المسلمين المبتكرين ، وخاصة من بين الفرس ، مثل الطبيب الرازي (٨٦٥ - ٩٢٥ م) والطبيب الفيلسوف ابن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٧) والبيروني (٩٨٣ -

١٠٤٨ م) وهو اعظمهم ، وكان طبيباً وفلكياً ورياضياً وطبيعياً
وكيميائياً وجغرافياً ومؤرخاً . وكان عالماً متمقاً مبتكراً
وواحداً من اعظم رجال الفكر في الاسلام خلال العصور الوسطى .
وفيا يختص بالطب لم يتعرض العرب لنظرية اليونان الاساسية
لكنهم أغنوها بملاحظاتهم العملية وتجاربهم الطبية . أما في الرياضيات
والطبيعيات فمآثرهم اعظم من ذلك بكثير واكثر اصالة . فقد
أدمج الصفر والارقام المعروفة بالعربية ، مع أنها لم تكن عربية
في الاصل ، في مادة النظريات الرياضية ، على أيديهم ، ونقلوها من
الهند الى اوربا . وقد تم تطور الجبر والهندسة والمثلثات الى حد
كبير على أيديهم .

أما في الفلسفة فقد كان ادخال الافكار اليونانية ذا اهمية عظيمة .
وادخلت اول مرة ، زمن المأمون ، عندما اثرت ترجمات مؤلفات
ارسطو في اتجاه الاسلام الفلسفي والديني كله ، كما اثرت
في كتابات عدد كبير من المفكرين المسلمين المبتكرين نذكر
منهم الكندي (توفي حوالي ٨٥٠ م) وهو بطريق الصدفة العربي
الوحيد البحت فيهم ، والفارابي (توفي ٩٥٠ م) وابن سينا (توفي
١٠٣٧ م) وابن رشد (توفي ١١٩٨ م) .

وهناك قالة شائعة جرى الناس على تأكيدها ، وهي انه بينما
قام الشرق وحده بحفظ التراث الاغريقي القديم في الفلسفة والعلم
فانه تجاهل التراث الادبي والفني الذي لم يعرف الا في الغرب .
لكن ، إن صدق بعض هذا القول فلا يصدق كله . إذ أن العرب
واصلوا التقليد الاغريقي - الروماني في الفن وهندسة البناء ،

لكنهم ما لبثوا أن حولوه الى شيء غني وغريب . كما قسوي في الاسلام اتجاه الفن البيزنطي نحو المشاهد المعنوية والشكلية . وأدى انصراف المسلمين عن تصوير الكائنات البشرية في آخر الأمر الى قيام فن ذي زخارف كتابية وهندسية .

وَدِينُ الفَنِّ الاسلامي للمؤثرات والآثر الفارسية والصينية كبير . ففي فنون الزخرفة والصناعة نستطيع أن نبيِّن بوضوح جانبيّ الاقتباس والأصالة في الحضارة الاسلامية . فالناظر الى جدران قلاع الامويين في سورية وإلى ما كشفته اعمال الحفريات في العراق ومصر من أدوات وغيرها يستطيع أن يتبين كيف قام العرب أولاً باستعارة الأعمال الفنية - بل والفنانين أنفسهم - من الحضارات الاخرى ، ثم كيف اكتفوا بتقليدها ، وأخيراً كيف صهروها وكييفوها وخلقوا منها شيئاً جديداً أصيلاً منتجاً . فالتحف الحزفية التي عثر عليها في حفائر العراق ، والتي تعود إلى القرن التاسع مثلاً ، تعرض لنا في وقت واحد استمرار الأساليب البيزنطية والساسانية الى جانب الأدوات المجلوبة من الصين والأدوات التي قلبها العرب هذه ، وكذلك التحف التي أصابها التطور بفضل التجربة مع النماذج الموروثة والمجلوبة . ولعل أهم مآثر الفن الاسلامي هو الحزف الجميل ، ذو البريق المعدني ، الذي انتشر في ظل الاسلام من الصين الى اسبانيا . وعلى النهج ذاته ارتقى رجال الصناعة المسلمون بالفنون المعدنية وفن الحفر على الخشب والتحف العاجية والزجاجية والنسيج والسجاد فوق كل شيء . فقد قاموا أولاً باستعارتها من غيرهم ثم قلدوها وأخضعوها لتجارهم . وأخيراً

تم لهم ابتكار اساليب جديدة ذاتية متميزة يسهل التعرف الى انها اساليب اسلامية .

ومن الحضارات القديمة ايضاً جاءت فكرة الكتاب كوحدة مادية تضم مجموعة مجلدة من الصفحات لها عنوان وموضوع ، وبداية ونهاية ، وصارت فيما بعد تشتمل على رسوم وجلود مزخرفة . وكان المؤلف الادبي ينشر في اول الامر بطريق المشافهة والالقاء ، وظلت الكلمة المحكية زمناً طويلاً السبيل الوحيد المعروف لنشر الكتب . وبتضخم المؤلفات الادبية واتساع مادتها ، اصبح من الضروري اللجوء الى تدوين ملاحظات لم تلبث ان تطورت الى املاء ، ثم الى مسودات ، واخيراً الى الكتاب بصورته الحاضرة . واعان على هذا التطور جلب الورق من الصين في القرن الثامن من طريق اواسط آسيا . وبذلك اتسع انتاج الكتب ورخصت ثمنها . ويمكن مقارنة الورق من حيث تأثيره في الحياة الثقافية بتوسع نطاق الطباعة في الغرب فيما بعد ، ولو ان تأثير استعمال الورق كان على نطاق اضيق .

وادى قبول الاسلام للتراث اليوناني الى قيام نزاع بين اصحاب النزعة العقلية للتعلم الجديد من جهة وبين اصحاب نظرية الجوهر أو الاشراق من مفكري الاسلام من الجهة الاخرى . وخلق المسلمون من الفريقين خلال فترة النزاع ثقافة غنية متنوعة لاكثرها أهمية باقية في تاريخ الجنس البشري . وانتهى النزاع بانتصار وجهة النظر الاقرب الى الفكر الاسلامي البحت . ولما كان الاسلام جماعة كميّفاً الدين فقد نبذوا القيم التي كانت تهدد

افتراضاتهم الاساسية ، لكنهم في الوقت ذاته قبلوا نتائجها وارتقوا
بهذه النتائج بالتجربة والملاحظة . وكان من الجائز أن تتمخض
الاسماعيلية ، وهي ثورة الاسلام التي لم يقبض لها ان تنتهي الى
غايتها ، عن قبولها التام للقيم الهيلنستية مبشرة بقيام نهضة انسانية
من النوع الغربي وأن تتغلب على مقاومة القرآن باللجوء الى التأويل
الباطني ، وعلى مقاومة الشريعة بما يتمتع به الامام من حرية
تامة في العمل . لكن القوى التي كانت تعضدها لم تكن كافية ،
ففسلت في تلك اللحظة عينها التي بلغت فيها اوج نجاحها .

ومن العبث ان نحاول تحليل خصائص الامم على الرغم مما في
ذلك من متعة ، اذ انه يلقي في العادة ، من الضوء على المحلل اكثر
مما يُلقى على الموضوع المراد تحليله . فالامة نظام معتد ومتشعب
الى حد كبير يتعذر معه اخضاعه للاختبار الاحصائي الدقيق الذي
بدونه لا نستطيع ان نقيم الدليل على اي قول علمي ذي شأن .
وتعترضنا صعوبة اكبر عند تناول حضارة بعيدة عنا من حيث
الزمان والمكان سبيلنا الرئيسي الى معرفتها هو آثارها الادبية .
ويكاد الادب العربي في العصور الوسطى ان يكون بكليته نتاج
اقلية حاكمة تتمتع بامتيازات خاصة ، تشمل فيما تشمل فن الكتابة
والاستثمار برعاية الادب . أما عامة الشعب ، فقد لاذت بصمت
لا تتخلله غير تلك الاصداة القليلة الخافتة لأصواتها . لكن على
الرغم من هذا التحفظ نستطيع أن نستخلص خصائص مثالية
معينة ، إن لم تميز العرب ، فانها على الاقل تميز حضارة الاسلام
السائدة في العصور الوسطى كما تتجلى في فن العرب وآثارهم الادبية .

وأول خاصة تسترعي انتباهنا هي القدرة الفريدة للثقافة العربية على هضم العناصر المختلفة وتمثيلها - تلك القدرة التي وصفت خطأ بأنها تقليد فحسب - إذ وحدت الفتوحات العربية ، لأول مرة في التاريخ ، المناطق الواسعة الممتدة من حدود الهند والصين حتى مشارف اليونان وإيطاليا وفرنسا . واستطاع العرب ان يوحدوا لمدة من الزمن ، بقوتهم العسكرية والسياسية ، ولمدة اطول بلغتهم وعقيدتهم ، في جماعة واحدة ، بين ثقافتين متنازعتين : وهما التقليد المتنوع للبحر الابيض المتوسط في الالف سنة الاولى قبل الميلاد ، وهو تقليد اليونان والرومان والاسرائيليين واهل الشرق الأدنى ، وحضارة الفرس الغنية بنماذجها الحياتية الخاصة وفكرها واتصالاتها المشرقة بثقافات الشرق الأقصى العظيمة . ومن امتزاج شعوب وعقائد وثقافات كثيرة داخل نطاق الجماعة الاسلامية وُلدت حضارة جديدة اصولها متنوعة ومبدعوها متنوعون ، لكنها تحمل في جميع مظاهرها طابع الاسلام الخاص .

ومن تنوع الجماعة الاسلامية هذا تظهر لنا خاصة ثانية تستلقت نظر الأوروبي بوجه خاص - وهي تسامحها النسبي . فالمسلم في العصور الوسطى ، على عكس معاصريه في الغرب ، قلما شعر بالحاجة الى فرض عقيدته بالقوة على جميع الخاضعين لحكمه . وكان مثلهم على يقين تام من ان الذين كانوا يخالفونه في العقيدة سيذهبون يوم الحساب الى النار . ولكنه ، على عكسهم ، لم يورَ ضرورةً ليعجل الحساب في هذه الدنيا . وفي الغالب كان يقنع بأن يكون صاحب العقيدة المسيطرة في جماعة يدين اهلها بعقائد كثيرة .

واكتفى بأن فرض على الآخرين قيوداً اجتماعية وقانونية معينة ،
دلالة على سيادته ، وأقام لهم رادعاً فعالاً يعيدهم الى صوابهم كلما
حدثتهم انفسهم بالتمرد . وفيما عدا هذا ترك لهم حريتهم الدينية
والاقتصادية والفكرية ، وأتاح لهم فرصة للمساهمة الفعالة في
بناء حضارته .

وكان المسلمون في العصور الوسطى ، كغيرهم من أهل
الحضارات الاخرى ، كلها تقريباً ، مؤمنين بتفوق حضارتهم
وبكفاية مقوماتها الدينية . وساعدتهم نظرتهم التاريخية الى النبوة ،
التي تجعل اليهودية والمسيحية حلقتين سابقتين لها ، ساعدتهم على
اعتبار اليهود والنصارى أصحاب نصوص دينية قديمة ناقصة من
شيء هو في حوزتهم بتمامه . وبخلاف المسيحية التي ظلت قروناً
تسعى لكسب اتباعها كدين للفئات الضعيفة والمحرومة ، وذلك
قبل أن تصبح عقيدة رسمية للامبراطورية الرومانية ، أصبح
الاسلام في حياة موجدته الدستور الموجه لجماعة متوسعة منتصرة ،
وتمكنت فتوح الاسلام الهائلة التي تمت خلال الاجيال الاولى
التكويينية من ان تغرس في نفوس المؤمنين الاعتقاد بأنهم مقدمون
لدى الله ، بدليل ما تتمتع به الجماعة الوحيدة المؤمنة بالتعاليم
الالهية في هذه الدنيا من قوة وسيطرة . وللمسلمين ان يتعلموا
الكثير من حكماء اتباع الديانات الاخرى ، لكن المحك الاخير
لما يتعلمونه هو الشريعة التي قدسها الوحي المباشر واقام الدليل
على قدسيتها نجاح اتباعها .

و كثيراً ما تُصطنع كلمة « ذري ١ » لتصف مسلكاً في

atomistic (١)

التفكير واتجاهاً في النظر العقلي ظاهرين في نواحٍ عديدة من الحضارة العربية، بل ومسيطرين عليها في المراحل الاخيرة من تاريخ العربي. ويقصد بهذا الميل الى النظر الى الحياة والكون على انها سلسلة متتابعة من وحدات ساكنة محسوسة متفرقة، متصلة اتصالاً واهياً بنوع من الارتباط الآلي بل العرضي بواسطة ظروف معينة او تفكير فردي، ولكنها ليست متداخلة تداخلاً عضوياً ذاتياً. ومع ان هذا الاتجاه [في النظر الى الحياة والكون] ليس عاماً، فانه يؤثر في حياة العربي من وجوه كثيرة: فالعربي لا يتصور مجتمعه ككلٍ عضوي مركب من اجزاء متداخلة يؤثر احدها في الآخر وبتأثيره، ولكنه يراه ارتباطاً بين مجموعات دينية او قومية او طبقية منفصلة، تجمعها الرقعة الجغرافية من تحت، والحكومة من فوق؛ كما انه يرى في مدينته مجموعة من الاحياء والبطون والبيوت، ونادراً ما يتصورها ذات وحدة مدنية متضامنة بذاتها. وبخلاف العلماء والفلاسفة من جهة والصوفيين يرينا الفقيه او العالم او الاديب الصفة نفسها في موقفه من المعرفة. فالانظمة المختلفة [عند هؤلاء] ليست أساليب متباينة للوصول الى الهدف ذاته وتلقي بما تكشفه في كل واحد كامل، بل هي [عندهم] أقسام منفصلة مستقلة بذاتها، ويحتوي كل منها على عدد محدود من أجزاء المعرفة؛ ومن تجميع هذه الاجزاء، بصورة متتابعة، تتكون المعرفة. والادب العربي، بخلوه من الشعر القصصي والرواية، يحقق أثره في القاريء او المستمع بواسطة سلسلة من الملاحظات والوصف المنفصلة، التي على الرغم من دقتها

ووضوحها ، فهي مجزأة لا يربط بينها إلا قدرة المؤلف والقاريء على هذا . وقالما يتم ذلك طبقاً لنظام موضوع . وتتألف القصيدة العربية من ابيات منفصلة قائمة بذاتها أشبه بالآليء معقودة تؤلف كل منها وحدة كاملة بذاتها، ويمكن تبديل ترتيبها في أغلب الاحيان . والموسيقى العربية سلمية إيقاعية تتباين في غير انتظام ولا يلازمها الانسجام البتة .

والمؤرخون وكتاب السير، مثل كتاب الروايات، يعرضون كتاباتهم في سلسلة من الاحداث مرتبطة ارتباطاً واهياً، وكثيراً ما تُعدّدُ - كما وصفها كاتب حديث العهد - كما لو كانت أوصافاً في جواز سفر .

ويوصلنا ما مر الى نقطة اخيرة وهي انكار الشخصية - بل النزعة الى الجماعية - التي كثيراً ما يتصف بها النثر العربي . لقد ظلت نزعة العرب الأولين نحو الفردية حية ، بكل عنفوانها ، عند البدوي فقط، اما في مراكز الحضارة فقد حلت محلها نزعة سلبية، بل حتى نزعة الى إغفال اي ذكر للشخصية . فالكتاب، في الغالب، لا يُعرّضُ كنتاج شخصي مستقل للمؤلف ، بل كحلقة في سلسلة من السند يخفي المؤلف فيها شخصيته وراء الثقات وطبقات الرواة السابقين . بل نجد الشعر ، الذي هو في الاساس تغيير شخصي ، عاماً واجتماعياً وليس شخصياً صادراً من صميم النفس . وتظهر هذه النزعة الجماعية ، لا الانسانية ، في كل ناحية من نواحي الفكر الاسلامي والنظم الاسلامية . وهي اوضح ما تكون في تصور المسلم للمثل الاعلى للرجل الكامل (او الحكومة الكاملة) ؛ فهو

يتصوره النموذجاً يطبق بشكل ظاهري ، ويجب على الجميع ان
يَسْعَوْا اليه بالتقليد والاتباع لا بتطوير امكانياتهم الذاتية
من الداخل .

وقد عبّر عن هذه النظرة الذرية ^١ الى الحياة تعبيراً تاماً في
فلسفة الاشعري (توفي ٩٣٦) المدرسية . ويعيّن تتبّئ الناس لها
على هذا النحو او غيره النصر النهائي لرد الفعل ضد الفكر والبحث
الحرين اللذين قد انتجا ماثر عظيمة كالتي اوردنا ذكرها .
فالاشعرية حركة جبورية ، ترى الامور مرهونة بأوقاتها ، تقليدية ،
تتطلب قبول الشريعة والوحي دون مناقشة و « بلا كيف » ، كما
انها تنكر الاسباب الثانوية ، وتفضل أن تدعو حتى الاله نفسه
بالخالق لا بالعلة الاولى . وهي لا تعترف بالنتائج الضرورية ولا
بالقوانين الطبيعية او الاسباب . فشعور الانسان بالحاجة الى الطعام
لا يترب بالضرورة عليه الجوع ، ولكنه يلزمه في العادة فقط .
وكل شيء يصدر عن ارادة الله الذي أوجد عادات معينة تقوم على
التتابع أو التوافق . وما كل حادثة في كل آن من الزمن إلا وهي
نتيجة فعل خلق مباشر مستقل .

وقد كان هذا الرفض النهائي المتعمد للسببية ، منذ أن أصبح
المبدأ المقبول ، نهايةً للفكر والبحث الحرّين في الفلسفة والعلوم
الطبيعية ، كما أنه كان السبب الذي أحبط تقدم علم تدوين التاريخ
عند العرب بعد أن كان يبشر بالازدهار . وقد لاءم هذا الرفض
حاجات مجتمع اسلامي كانت فيه الحياة الاجتماعية والاقتصادية

(١) atomistic

الحرّة المنبثقة من عصر تجاري مزدهر تتلاشى أمام اقطاعية جامدة
لم يطرأ عليها تغيير إلا بعد قرون عديدة . وظل الصراع القديم
بين المفاهيم قائماً ، في حين بقي الاسلام ، في شكله الجديد هذا ،
لا ينازعه منازع طيلة الف سنة أخرى حتى بدأ تأثير الغرب في
القرن التاسع عشر والقرن العشرين يهدد صرح المجتمع الاسلامي
التقليدي بأجمعه وأساليبه الفكرية التي كانت بمثابة أسسه العقلية .

الفصل التاسع

العرب في دور التأخر

« هو ذا الاتراك والتتار يشهرون سيوفهم عليك
عازمين على ان يقطعوا ولاياتك كلها ارباباً »
مارلو « تيمورلنك الكبير » — القسم الثاني

عندما حل القرن الحادي عشر كانت بلاد الاسلام في حالة
الفتنة والاضح . بل لقد امكن تمييز علامات هذا الانحلال قبل
هذا التاريخ ، اولاً في تفكك الاسلام السياسي وما رافقه من
فقدان الحكومة المركزية سلطتها في الولايات البعيدة في البداية
ثم في كل مكان ما عدا العراق ، وأخيراً في انحطاط منزلة الخلفاء
الى ان اصبحوا دُمى في ايدي وزراءهم وقادة جيوشهم . وفي
سنة ٩٤٥ م انحط الخلفاء الى دركة اخرى . ففي تلك السنة دخل
البويهيون ، وهم امرة فارسية محلية ، العراق واستولوا على
العاصمة . وكان أمراء البويهيين خلال القرن التالي بأكملة حكام
العاصمة الحقيقيين . واتخذوا لقب « سلطان » رمزاً لسلطانهم
الزمني . وعلى الرغم من ان البويهيين كانوا شيعة

فأنهم أبقوا على الخلفاء العباسيين واتخذوا منهم رؤساء
اسميين وسنداً قانونياً لسلطان الحكومة في الولايات .
وبما لا يخلو من مغزى أن إمام الطائفة الأثني عشرية اختفى وأصبح
في غيبة مؤقتة في ذات الوقت الذي وصلت فيه إلى الحكم أول
فرقة شيعية معتدلة . وأعاد البويهيون النظام والرخاء إلى الولايات
الوسطى فترة من الزمن . لكن علائم الانحطاط الاقتصادي كانت
في ازدياد مستمر . فتقلصت التجارة الراجحة مع الصين ، ولم تلبث
ان توقفت لأسباب نشأ بعضها عن الأحوال الداخلية السائدة في
البلاد نفسها . وتضاءلت كذلك التجارة مع روسيا وبلدان
الشمال ثم توقفت في أثناء القرن الحادي عشر ، بينما ساعد النقص
المستمر في المعادن الثمينة على شل الحياة الاقتصادية في بلاد فقدت
صفتها كإمبراطورية تجارية . وكان أحد أسباب التأخر الاقتصادي ،
من غير شك ، الاسراف و فقدان النظام المركزي . كما أن تلك
النقعات الباهظة التي كانت تصرف على البلاط وعلى البطانة المتضخمة
من الموظفين - هذه البطانة التي كانت تتضاعف أحياناً عند قيام
متنازعين على العرش لكل منهما بطانته - لم تعوض من طريق
إحداث أي تقدم في فنون الصناعة أو تقدم أكبر في استغلال
موارد البلاد وسرعان ما اضطر الحكام ، بسبب نقص ما لديهم من
التقدم ، إلى دفع رواتب كبار موظفيهم بمنحهم التزام جمع مدخول
الدولة من الضرائب . وصار ولاة المقاطعات ، قبل مرور زمن
طويل ، يُعيّنون ملتزمين لضرائب المناطق الخاضعة لإرادتهم مقابل
تعهدهم بدفع نفقات جيوشهم ورواتب موظفيهم ومبلغ متفق عليه

لصندوق مال الدولة. فأصبح هؤلاء الولاة - بعد برهة قصيرة - حكماً مستقلين بالفعل على ولاياتهم، لا يربطهم بالخليفة سوى اعترافهم اعترافاً اسمياً به. كما أن سلطان الخليفة تضاعل حتى انحصر في تقليد الولاة حق الحكم تقليداً شكلياً. وأصبح هذا التقليد، بمرور الزمن، اعترافاً من جانب الخليفة بالأمر الواقع. وبسبب الحاجة الى توفير القوة العسكرية اللازمة للولاة وملتزمي الضرائب جرى الخلفاء على تعيين قواد عسكريين في مناطق التزام الضرائب، وهذا بدوره ادى الى تفكك الحكومة المدنية المستبدة واستيلاء القادة العسكريين، الذين صاروا يحكمون بواسطة حرسهم، على زمام الحكم.

وعندما حل القرن الحادي عشر كشفت عن ضعف الامبراطورية سلسلة من الهجمات، قام بها البرابرة في وقت واحد تقريباً من داخل البلاد وخارجها على جميع الانحاء. ففي اوروبا زحفت جيوش النصارى على اسبانيا وصقلية وانتزعت مناطق واسعة من البلاد الخاضعة للمسلمين، وذلك اثناء قيامهم بموجة من الفتوح لاستعادة بلادهم بلغت أوجها بوصول الصليبيين في نهاية القرن ذاته الى الشرق الادنى. وفي افريقية ادى ظهور حركة دينية جديدة بين البربر في منطقة جنوب مراكش والمنطقة بين السنغال والنيجر الى خلق امبراطورية بربرية بفتح القسم الاكبر من شمال افريقية، وبفتح تلك الاجزاء من اسبانيا التي ظلت خاضعة للمسلمين. وشهد الجزء الشرقي من شمال افريقيا اندفاع افراد القبيلتين العربييتين العظيمتين، وهما بنو هلال وبنو سليم، من مناطق مصر العليا

حيث كانوا يقطنون حتى الآن ، ثم قيامهم باجتياح ليبيا وتونس
 ناشرين في ارجائها الخراب والتدمير . وبين سنتي ١٠٥٦-١٠٥٧ م
 اصبحوا في وضع يمكنهم من نهب عاصمة تونس السابقة ، وهي
 القيروان . والاحرى أن يُعزى الخراب والتأخر اللذان حلا
 بشمالى افريقية الى هذه الغزوة لا الى حركة الفتح الاسلامي الاولى
 في القرن السابع . وقد فسر ابن خلدون ، المؤرخ العربي المشهور
 (توفي ١٤٠٦ م) ، الدمار الذي اصاب موطنه من جراء هذه
 الغزوات البدوية على أساس من التفاعل بين البدو والحضر . ولعل
 هذه النظرية هي أول محاولة في فلسفة التاريخ . ويشير ابن خلدون
 الى هذه الغزوات بقوله : « وإفريقية والمغرب لما جاز اليهما بنو
 هلال وبنو سليم مند اول المائة الخامسة ، وقرسوا بها ثلاثمائة
 وخمسين من السنين قد لحق بها ، وعادت بسائطه خراباً كلها بعد
 ان كان ما بين السودان والبحر الرومي كله عمراناً تشهد بذلك
 آثار العمران فيه من المعالم وقماثيل البناء وشواهد القرى والمدن . »
 وقامت من وسط آسيا موجة جديدة من الغزاة ربما كانت
 من حيث نتائجها الباقية أهمها جميعاً . وقد عرف العرب الأتراك ،
 لأول مرة ، في اواسط آسيا . ومن هناك صاروا يجلبون منهم
 عبيداً الى الشرق الادنى الاسلامي . وكانوا يفضلون من تدرب منهم
 منذ طفولته على اعمال الحرب وشؤون الادارة : وهؤلاء الآخرون
 هم الذين عُرفوا فيما بعد بالماليك ، تمييزاً لهم من العبيد الاصغر سناً
 الذين كانوا يستخدمون في اعمال المنازل . وقد سبق ان دخل
 بعض هؤلاء العبيد الأتراك في خدمة الخلفاء العباسيين الأولين ،

بل وفي خدمة الأمويين أيضاً ؛ لكن أول من استخدم أعداداً كبيرة منهم هو المعتصم (٨٣٣ - ٨٤٢ م) ، الذي كوّن من محاربيهم جيشاً كبيراً حتى قبل اعتلائه عرش الخلافة . ولكي يضمن المعتصم الحصول عليهم باستمرار فرض على الولايات الشرقية فيما بعد أن ترسل له في كل سنة عدداً منهم كجزء من الضريبة المطلوبة منها . وكان حرس الخلفاء العباسيين الحراساني القديم قد تعربوا واندمجوا بأهل البلاد . كما ان الاستقرابية الفارسية وجدت مسرباً سياسياً لها في قيام الأسر الايرانية المستقلة الحاكمة ، فوجد الخلفاء من الضروري أن يبحثوا عن سند آخر لسلطانهم . ووجوده في الأتراك المماليك تحت إمرة قوادهم الذين لم تكن لهم علاقات محلية او قبلية او عائلية او قومية او دينية ، الأمر الذي كان يزيد في ولائهم و إخلاصهم للحكومة المركزية . وعُرف الأتراك منذ البداية بتفوقهم في فنون الحرب وبصورة خاصة ، كما يبدو ، في استخدام الرماة الخيالة ، وسرعة خيالتهم التي يتصف بها الرجل . ومن الآن فصاعداً أخذ يزداد اعتماد الخلفاء على جيوش الأتراك وقوادهم العسكريين ، مما ألحق أكبر الضرر بمصالح الشعبين الفارسي والعربي اللذين كانا أعرق في المدنية والثقافة .

وعندما حل القرن الحادي عشر صار الأتراك يدخلون في بلاد الاسلام لا كأفراد يجندون من بين الأسرى أو يشترون من الأسواق وإنما هجرة قبائل بأكملها من الأتراك الرسل الذين كانوا لا يزالون يتبعون في تنظيمهم أسلوبهم التقليدي . اذ قطع عليهم توطّد حكم سنغ في الصين ، عقب قيام فترة من الفوضى

والاضطراب ، طريق توسعهم في تلك البلاد ، وأجبر قبائل
أواسط آسيا على التوسع نحو الغرب. وينتمي الأتراك الذين غزوا
بلاد المسلمين الى قبائل الغُزّ ، ويعرفون عادة بالسلاجقة نسبة الى
الأسرة الحاكمة فيهم .

ودخل السلاجقة أراضي الخلافة حوالى سنة ٩٧٠ م ، وسرعان
ما اعتنقوا الاسلام . وتمكنوا في مدة وجيزة من فتح القسم
الأكبر من بلاد الفرس . وفي سنة ١٠٥٥ م دخل طغرل بك
بغداد وهزم البويهيين وضم العراق الى دولة السلاجقة . وتمكن
السلاجقة خلال بضع سنوات من ان ينتزعوا سورية وفلسطين من
الحكام المحليين ومن الفاطميين الذين كانوا في طريقهم الى الاضمحلال
التام . بل لقد نجحوا في ميدان شهد فيما سبق فشل العرب ؛ إذ
تمكنوا من انتزاع الجزء الأكبر من الأناضول من أيدي
البيزنطيين ، وبقي هذا الجزء ولا يزال أرضاً إسلامية وتركية .
ولما كان السلاجقة مسلمين سنين فقد اعتبر الكثيرون استيلاءهم
على بغداد بمثابة تحرير لها من البويهيين المارقين عن السنة . وظل
الخلفاء حكاماً اسميين . واصبح سلاطين السلاجقة العظام الذين هزموا
البيزنطيين والفاطميين في الغرب الحكام الفعلين للامبراطورية
الموحدة والتي خضعت لسلطة واحدة للمرة الاولى منذ زمن
الخلافة الاولى .

واعتمد حكام الامبراطورية الجدد في شؤون الادارة على موظفين
من الفرس وعلى كبار رجال الحكومة الفارسية السابقة . ومن
أشهر شخصيات هذا العصر الوزير الفارسي العظيم نظام الملك الذي

شجع ونظم الاتجاه نحو الاقطاع؛ وهو الاتجاه الذي كانت تنطوي عليه ممارسة التزام الضرائب في الحقبة السابقة لهذا العهد مباشرة . وهكذا صارت أخطاء العصر السابق احكاماً للنظام الاجتماعي والاداري الجديد ترتكز على الأرض لا على النقد . وكانت الأرض تمنح للموظفين أحياناً ، وأحياناً كان هؤلاء يستولون عليها لأنفسهم . وفي مقابل هذه المنح كانوا يهيئون عدداً من الجنود . وكانت هذه المنح تنطوي على تحويل أصحابها حقوقاً تشمل بالإضافة إلى حق جمع الضرائب ، حق التصرف في موارد الأرض . ومع أن الأرض كانت تصبح وراثية نتيجة لأعمال الاعتصاب فانها كانت من الناحية النظرية وبحسب العرف تمنح لعدد من السنوات تصبح بعدها قابلة للاسترداد في أي وقت .

ويذهب البنداري الذي كتب عن العصر السلجوقي إلى أن هذا كان هو السبيل الوحيد لترغيب أفراد القبائل التركية وجنودهم المزعجين في خيارات الزراعة فيقول : « وكانت العادة جارية مجبابة الأموال من البلاد وصرفها إلى الأجناد ؛ ولم يكن لأحد من قبل إقطاع . فرأى نظام الملك أن الأموال لا تحصل من البلاد لاختلالها ، ولا يصح منها ارتفاع لاعتلالها ، ففرقها على الأجناد إقطاعاً، وجعلها لهم حاصلًا وارتفاعاً، فتوفرت دواعيهم على عمارتها، وعادت في أقصر مدة إلى أحسن حالة من حليتها . »

بهذه الكلمات اليسيرة الواضحة وصف لنا البنداري الانتقال من الاقتصاد القائم على النقد إلى الاقتصاد المرتكز على الاقطاع . وفي دور من التغيير كهذا كان لا بد من قيام ثورات اجتماعية،

إذ كان قيام طبقة جديدة من الأسياد الإقطاعيين الذين لا يقيمون في إقطاعياتهم لطمة شديدة تلقاها الملاكون في عهد الحكومة السابقة . وضعت التجارة وتأخرت . وربما وُجدت أوضح علائم الخطاطها في أكداس النقود التي عثر عليها في اسكنديناوة . فقد وجد بينها عدد وافر من نقود القرن التاسع العربية والفارسية ، بل ان هذه الاخيرة تؤلف القسم الأكبر منها . أما ما يرجع الى القرن الحادي عشر من النقود الفارسية والعربية فهو أقل بكثير . ثم لا تلبث هذه النقود ان تختفي . وأشد حركات المعارضة التي قامت في هذا الدور صدرت مرة أخرى عن الاسماعيلية ولكنها اتخذت شكلاً جديداً مختلفاً عن شكلها السابق . ففي سنة ١٠٧٨ زار الحسن بن الصباح وهو زعيم فارسي من الاسماعيلية ، القاهرة عاصمة الفاطميين . واصطدم هناك بالحاكم العسكري المستبد الذي كان الحاكم الحقيقي للبلاد الخاضعة لسلطان الفاطميين . فلما توفي الخليفة الفاطمي المستنصر في سنة ١٠٩٤ م رفض الحسن بن الصباح وأتباعه من الفرس الاعتراف بخليفته الذي عينه القائد العسكري ليكون أداة طيعة في يده ، وقطعوا علاقاتهم بحكومة القاهرة الخائنة لسلطان القادة العسكريين . وأعلن اسماعيليو الشرق ولاءهم لنزار ، الابن الأكبر للمستنصر ، الذي أهمل شأنه عند تقرير مسألة الخلافة ، وبدأوا دوراً جديداً اتخذ فيه نشاطهم القوي شكل حركة ثورية خارجة على النظام في البلاد الخاضعة للسلاجقة . ويعرف اتباع « الدولة الجديدة » ، اي حركة الحسن بن الصباح ، عادة باسم « الحشاشون » ، وهي كلمة عربية تعني الذين يتعاطون

الحديث وتشير الى الوسيلة التي قيل انهم كانوا يسلكونها لبعث
النشوة المفرطة في المؤمنين . ومدلول الكلمة الاوروي مشتق من
الخطط السياسية التي اتبعوها .

وفي سنة ١٠٩٠ م استولى الحسن بن الصباح على حصن جبلي
منيح في شمال فارس وهو قلعة الموت . ومن هذه القلعة
ومن القلاع التي انشئت على غرارها في سورية خلال القرن التالي
كان « شيخ الجبل » ، وهو الاسم الذي كان يطلق على كبار سادة
هذه الفرقة ، يأمر فرق المخلصين المتحمسين من اتباعه بالقيام بحملة
لنشر الرعب والاعتقال ضد ملوك المسلمين وأمرائهم باسم امام
غامض مستتر . وقام رجال السادة الكبار بسلسلة من حوادث
الاعتقال الجريئة ذهب ضحيتها عدد من رجال السياسة والقواد
العسكريين المسلمين من بينهم نظام الملك نفسه الذي اغتيل في سنة
١٠٩٢ م . ويقال إن ريتشارد قلب الاسد هو الوحيد الذي أبقوا
عليه ، وذلك لأنهم رغبوا عن تذييل العقبات امام منافسه صلاح
الدين . ولم يذهب عن الناس آخر الأمر خوفهم من الحشاشين إلا
غزوات المغول للشرق الاسلامي في القرن الثالث عشر . فمنذ
ذلك الحين خمدت حركة الاسماعيلية وتضاءل شأنها .

وللنظام الاقتصادي الجديد الذي اتبع في أوائل العهد الساجوقي
ما يقابله في الحياة الدينية . ففي بغداد وغيرها أُسست كليات
دينية تعرف بالمدارس واتخذت نموذجاً لما أنشئ منها بعدئذ .
وكانت المدرسة النظامية في بغداد ، التي سميت باسم مؤسسها الوزير
العظيم ، وشقيقتها ، مراكز للتعاليم السنية ، وخاصة مذهب

الاشعري . اذ أصبحت الآن خاضعة لاشراف الدولة ، وكان
الهدف الرئيسي من إنشائها هو مقاومة تعاليم الاسماعيلية الثورية
المخالفة للدين ، والقضاء على النزعة العقلية المتطرفة التي سادت العصر
السابق . وقام الغزالي (١٠٥٩ - ١١١١ م) ، وهو أحد كبار
رجال الفكر في الاسلام ، بالتعليم فيها فترة من الزمن . وتحوي
كتبه ردوداً يقند بها تعاليم الفلسفة والفرق المخالفة للدين .
وتفكك الشرق الأدنى والاطراف الاخرى بعد وفاة نظام الملك .
فقد تجزأت امبراطورية السلاجقة الى عدد من الدويلات الصغيرة
يحكمها بالوراثة افراد وقواد عسكريون من الاسرة السلجوقية .
ووصل الصليبيون الى الشرق الأدنى في فترة الضعف هذه . وعلى
الرغم من جانب هذه الحركة العظيمة المثالي ، وهو اكثر ما
يكون وضوحاً في حملة الاطفال السيئة الطالع ، فان الحملات
الصليبية ليست بالنسبة لتاريخ الشرق الأدنى الاحمولة مبكرة
قصد بها التوسع الاستعماري . وكان الدافع الى القيام بها هو
الاعتبارات المادية . اما الدين فقد اتخذ وسيلة لتهيئة النفوس لها .
والحق ان تجار الجمهوريات الايطالية الذين كانوا يسعون الى الاتصال
بمصادر تجارتهم مع البيزنطيين والفاطميين ، والبارونات الذين كان
يحفزهم الطموح وحب المغامرة ، وبناء النبلاء الذين كانوا يبحثون
عن الامارات بسبب حرمانهم من الارث ، والمذنبون الذين كانوا
يبحثون عن وسيلة رابحة للتكفير عن ذنوبهم - هؤلاء هم الذين
كانوا أبرز رجال هذه الغزوة التي قام بها الغرب ، لا أولئك الذين
كانوا يسعون الى إتقاذ القبر المقدس .

ومهد انفصام عرى وحدة العالم الاسلامي في الثلاثين السنة
الاولى الطريق أمام الغزاة الذين تجهوا بسرعة جنوباً عبر الساحل
السوري ودخلوا فلسطين وأسسوا عدداً من الامارات اللاتينية
الاقطاعية كانت انطاكية والرها وطرابلس والقدس مراكز لها.
وكان الدور الاول هذا دور استعمار وتنظيم للبلاد المفتوحة .
واستوطن الفاتحون والحجاج في سورية ، واقتبسوا لباس اهل
البلاد وعاداتهم ، وتزاوجوا مع النصارى منهم . ويشير فولكر
أوف تشارتر الذي أرّخ للحملة الاولى الى هذا بقوله :

« الآن صرنا - نحن الذين كنا غربيين - شرقيين . ومن كان
منا ايطالياً او فرنسياً اصبح في هذه البلاد جليلياً او فلسطينياً .
والذي كان من مواطني ريمس او تشارتر اصبح الآن سورياً او
انطاكياً . لقد نسينا الاماكن التي ولدنا فيها . وأكثرنا لا يعرفها ،
بل لم يسمعوا بها . ولكل منا بيته وأهله ، كما لو أنه ورثه من
أبيه أو من شخص سواه . وتزوج بعضنا لا من بنات أو طاننا
وإنما من سوريات وأرمنيات ، وحتى من مسلمات متنصرات .
وأصبح من كان منا يعد أجنبياً ، مواطناً ، ومن كان مهاجراً
صار من أهل القرار . وفي كل يوم يلحق بنا الى الشرق أقارب
وأصدقاء تاركين وراءهم كل ما كان في حوزتهم وهم في الغرب .
وأما من كانوا فقراء هناك فقد أغناهم الله هنا . ومن كان خاوي
اليدن الا من دربهات معدودات أصبح لديه من القطع الذهبية ،
ما لا يحصره عد . ومن لم تكن لديه قرية أصبح يمتلك - والمعطي
هو الله - مدينة برمتها . فلماذا نعود اذاً الى الغرب ما دام الشرق

يهي . لنا كل هذا ؟ »

ويمكننا ان نقارن ما سبق بما كتبه أسامة بن منقذ من أهل سوريا في القرن الثاني عشر حيث يقول : « فكل من هو قريب العهد بالبلاد الافرنجية أبقى اخلاقاً من الذين تلبدوا وعاشروا المسلمين . » لكن حتى في دور الانتصار الاول هذا حُضر الصليبيون بصفة رئيسية في السهول والمنحدرات الساحلية بحيث كانوا على اتصال دائم بالبحر الابيض المتوسط والغرب . أما في الداخل الى الشرق ، في الصحراء والعراق ، فقد كان رد الفعل في دور التكوين . وفي سنة ١١٢٧ م استولى زنكي ، احد قواد السلاجقة ، على مدينة الموصل لنفسه . وفي السنة التالية أقام بالتدريج دولة اسلامية متينة البناء ، تضم القسم الشمالي من العراق الحالي وسورية . واعترض نجاحه في اول الامر تنافس الدويلات الاسلامية الاخرى وخاصة دمشق التي لم يتردد حاكمها في ان يحالف مملكة القدس اللاتينية ضد العدو المشترك . وفي سنة ١١٤٧ م تسرع الصليبيون فنقضوا اتفاقهم مع حاكم دمشق ، وتمكن نور الدين بن زنكي ، الذي خلفه في الحكم ، من أن يستولي على دمشق في سنة ١١٥٤ م وأن يوجد في سورية حكومة واحدة ، وان يواجه الصليبيين لأول مرة بمخيم خيف بالفعل . وانصرف اهتمام الطرفين الآن الى مسألة من شأنها ان تقرر مصير هذا النزاع ، وهي مسألة الاستيلاء على مصر ، حيث كانت الخلافة الفاطمية تحتاز آخر مراحل شيخوختها ، متداعية نحو السقوط النهائي . وكان لا بد أن يفصل في هذا الامر وتبدو نتيجته . فقد ذهب الى مصر قائد كردي يسمى صلاح الدين وشغل

وظيفة وزير للفاطميين في الوقت ذاته الذي كان يمثل فيه مصالح نور الدين . وفي سنة ١١٧١ م أعلن صلاح الدين انتهاء الدولة الفاطمية ، وأعاد ذكر اسم الخليفة العباسي في الجوامع و ضربه على السكة وأقام نفسه حاكماً نافذ الكلمة على مصر .

أما ولاؤه لنور الدين فقد كان ينطوي على كثير من الشك والتردد . وبعد وفاة نور الدين سنة ١١٧٤ م ، تاركاً وراءه ابناً قاصراً ، استولى صلاح الدين على بلاده ، فخلق بذلك إمبراطورية سورية - مصرية إسلامية موحدة . وفي سنة ١١٨٧ م شعر صلاح الدين أن لديه من القوى ما يمكنه من مهاجمة الصليبيين . وعند وفاته في سنة ١١٩٤ م كان قد احتل القدس و طردهم من الشريط الساحلي الضيق الذي كان في حوزتهم والذي كانوا يحكمونه من عكا وصور و طرابلس وانطاكية .

ولم تعمر الدولة السورية - المصرية الموحدة طويلاً بعد صلاح الدين . فقد تجزأت سورية مرة أخرى زمن خلفائه الأيوبيين إلى عدد من الدويلات الصغيرة ، لكن مصر ظلت دولة قوية موحدة ، وأصبحت أعظم دولة إسلامية في الشرق الأدنى ، وأمنع معاقل الإسلام في وجه الغرب ، كما تمكنت من إحباط المحاولات المتكررة التي قام بها الصليبيون المتأخرون لاستعادة البلاد المقدسة .

وأهم النتائج الباقية للحملات الصليبية في الشرق الأدنى كانت في ميدان التجارة . فقد ازدهرت مستعمرات تجار الغرب في موانئ البحر الأبيض المتوسط الشرقي في ظل حكم الصليبيين . وظلت تمارس نشاطها بعد استعادة المسلمين للبلاد ، كما أقامت

تجارة استيراد وتصدير ذات شأن . وفي سنة ١١٨٣ م^١ بعث صلاح الدين الى الخليفة كتاباً يبور فيه تشجيع هذه التجارة ورد فيه قوله: « ومن هؤلاء الجيوش البنادقة والبياشنة والجنوية . . . وما منهم الا من هو الآن يجلب الى بلدنا آلة قتاله وجهاده ، ويتقرّب اليها باهداء طرائف اعماله وتلاده ، وكلهم قد قررت معهم المواصلة ، وانتظمت معهم المسالمة على ما يزيد ويكرهون ، وعلى ما نؤثر وهم لا يؤثرون . »^١ ولم يُجد شيئاً سخط الكنيسة الشديد في اوروبا على هذه التجارة ، وقرارات الحرمان التي اصدرتها ضد القائمين بها .

وأخذ يظهر في هذه الاثناء تهديد للاسلام اشد وأكبر خطراً من الحملات الصليبية . ففي جهات آسيا الشرقية البعيدة كان جنكيز خان قد تمكن ، بعد حرب اهلية مريرة ، من توحيد قبائل منغوليا المتنقلة ومن حملها على القيام بحركة فتح حريّة بأن تعد من أبرز حركات الفتح التي عرفها التاريخ . وعندما حلت سنة ١٢٢٠ م كان المغول قد فتحوا بلاد ما وراء النهر . وتلت وفاته فترة توقف خلالها الفتح . غير ان المغول وضعوا خطة توسع جديدة ، في منتصف هذا القرن ، وقاموا بتنفيذها . فقطع الامير المغولي هولاقو نهر جيحون بناء على تعليمات تلقاها من خان المغول الاعظم تقضي بفتح بلاد الاسلام حتى مصر . فاكتسحت جيوشه فارس وتغلّبت على كل

(١) أبو شامة : الروضتين في حوادث سنة ٥٧٠ هـ وتوافق ١١٧٤ م .

[المرغان]

مقاومة ، بل سحقتم الاسماعيليين الذين كانوا قد تمكنوا من صد الهجمات السابقة . وفي سنة ١٢٥٨م استولى هولاءكو على بغداد ، وقتل الخليفة ، وأزال الخلافة العباسية من الوجود . وكان القضاء على هذا النظام التاريخي ، الذي كان لا يزال ، رغم ما تردى فيه من ضعف ، المرجع القانوني للمسلمين ورمز وحدتهم ، بمثابة نهاية لحقبة من التاريخ الاسلامي . وبرغم هذا قد لا تكون هذه الصدمة من بعض الوجوه ، شديدة الى الحد الذي يوصف عادة . اذ كانت الخلافة ، منذ زمن طويل ، قد فقدت تقريباً كل سلطانها الفعلي ، وأخذ السلاطين الزمانيون في العاصمة والولايات ينتحلون لانفسهم لا سلطات الخلفاء فحسب ، بل وبعض امتيازاتهم ايضاً . ولم يعد ما فعله المغول في هذا الشأن انهم أقاموا ظلماً لهذا النظام الذي كان قد زال .

وكان المغول الغزاة ، بعكس السلاجقة ، لا يزالون على وثبيتهم ، ولم يبدوا أي اهتمام بالاسلام وتقاليده ونظمه . ولقد بولغ فيما أحدثوه في البلاد التي افتتحوها من تخريب كان الباعث على القيام بأكثره هو الاغراض الحربية البحتة لا حب التخريب نفسه . وتوقفت اعمال التخريب بعد حملة الفتح التي كان التخريب جزءاً منها . وبدأ في فارس تحت حكم المغول دور تقدم جديد في الميدانين الاقتصادي والثقافي . وكانت نتائج الفتح المغولي في العراق تحطيم الحكومة المدنية وتدهور اعمال الري التي كانت البلاد تعتمد عليها . وزاد في سوء الحال ما كانت القبائل البدوية تقوم به من غارات على الخضر كلما أحست بضعفهم .

وتلقت العراق ضربة أشد حين أصبحت إحدى ولايات
الأطراف في امبراطورية شرقية عاصمتها في فارس . اذ لم يعد
وادي ما بين النهرين ، بعد ان أقيم حاجز من الرمل والحديد بينه
وبين ولايات البحر الابيض المتوسط في الغرب وتطويقته من
الشرق بقيام العاصمة الفارسية التي أصبح تابعاً لها ، لم يعد يقوم
بدوره كطريق للتجارة بين الشرق والغرب ؛ وتحول هذا
الطريق شمالاً وشرقاً الى تركيا وفارس ، وغرباً الى مصر والبحر
الاحمر ، تاركاً العراق وعاصمة الخلفاء الخرية تقبعان قرناً في حال
من الركود والاهمال .

وعلى الرغم من تعرض سورية لبعض الغارات فان النتائج
الباقية للفتوح المغولية في العالم العربي اقتصر على العراق . فقد
أُلحِق الآن بالدولة المغولية التي اتخذت من فارس مركزاً لها .
وأنقذت الدولة الجديدة ، التي انبثقت من الدولة الأيوبية ، مصر
وسورية من المغول . وعلى الرغم من ان الايوبيين انفسهم ينتمون
الى اصل كردي ، فقد كانت دولتهم ذات طراز سلجوقي تركي .
وكانت الطبقة الحاكمة فيها عبارة عن هيئة عسكرية مستبدة
قوامها الحرس الاتراك الذين كثيراً ما تمكنوا من السيطرة على
السلطان الايوبي نفسه .

وفي منتصف القرن الثالث عشر أقام المماليك الاتراك اصحاب
الكلمة العليا في القاهرة في ذلك الوقت ، حكومة جديدة في
البلاد حكمت مصر وسورية حتى سنة ١٥١٧م . وفي سنة ١٢٦٠م
وبعد فترة من الفوضى عقب وفاة آخر سلاطين الايوبيين ، اعتلى

عرش السلطنة في مصر تركي قبشاقى هو السلطان بيوس ، الذي تشبه سيرته سيرة صلاح الدين من نواح كثيرة . فقد جمع بين مصر وسورية الاسلامية في دولة واحدة كتبت لها حياة اطول من حياة سابقتها . وتمكن بيوس من هزيمة اعداء الدولة في الحارج ، فصد المغول الغزاة عن الشرق ، وسحق باقي اعدائهم باستثناء آخر من تبقى من الصليبيين في سورية . وتفقت ذهنه الشاب عن فكرة دعوة أحد افراد البيت العباسي ليصبح خليفة مقره القاهرة . الا ان الخلفاء العباسيين في القاهرة كانوا مجرد موظفين في البلاط المملوكي . ويشير المؤرخ المصري المقرئ الى هذا بقوله : « وضع المماليك خليفة رجلاً أعطوه اسمه وألقابه التي تلائمه ، لكنه لا يملك من السلطة شيئاً ، حتى ولا حق ابداء رأيه . كان يقضي وقته بين الامراء والموظفين الكبار والكتاب والقضاة يزورهم ليشكرهم على ولائهم ومسامرتهم التي كانوا يدعونه اليها . »

ويمثل هؤلاء الخلفاء المرحلة الأخيرة من مراحل تداعي هذا النظام . وكان النظام المملوكي الذي أقامه بيوس وخلفاؤه نظاماً اقطاعياً هو عبارة عن شكل معدّل للنظام الاقطاعي السلجوقي جلبه الايوبيون الى سورية ومصر . فكان القائد او الامير يُمنح بموجبه قطعة من الأرض بدل راتبه ، ويتعهد في مقابل ذلك أن يجيز عدداً من جنود المماليك يتراوح بين خمسة جنود ومئة ، ويتوقف تقريره على رتبته . وكان يصرف في العادة ثلثي دخله على اعاشة هؤلاء الجنود . ولم تكن تمنح الارض هذه وراثية في ابناء اصحاب الاقطاعات برغم ما جرى من محاولات لجعلها كذلك . واستند

هذا النظام على القيام بصورة دائمة بانتزاع الارض من ابناء قواد الممالك المستعربين ومنحها للمالك جدد ، الامر الذي كان يحول ، وربما عن سابق تدبير ، دون قيام ارستقراطية وراثية من الملاكين . وكانت الاقطاعات تمنح لفترة قد تبلغ مدى حياة صاحبها او أقل . الا أن الممالك لم يكونوا يقيمون في هذه الاقطاعات ، بل كانوا يفضلون الإقامة في القاهرة او في كبرى مدن المقاطعة الواقعة فيها ارضهم . وكان اهتمامهم بالدخل يفوق اهتمامهم بملكية الارض . وعلى هذا لم يؤد النظام الى إقامة الحصون او المعاقل او السلطات المحلية القوية من النوع الغربي . كما انه لم يقم في مصر سلم إقطاعي ، بل ان تقسيم الارض الى إقطاعات لم يأخذ شكلاً ثابتاً بسبب ما كان يطرأ عليه من وقت الى آخر من تغيير . وكان المالك يشترون عبيداً ثم يدرّبون ويتفقون في مصر . وفي بادية الامر كان أكثرهم من الاتراك القبشاقين الذين كانوا يجلبون من شواطئ البحر الاسود الشمالية . ونجد فيما بعد أنهم صاروا يشملون مغولاً من الفارين من الجندية ، وعبيداً من عناصر أخرى وخاصة الجراكسة ، وعددًا قليلاً من اليونان والاكراد وحتى من الاوروبيين . الا ان اللغة التركية او الجركسية ظلت لغة الطبقة المسيطرة التي كان الكثيرون من افرادها ، وبينهم بعض السلاطين ، لا يتكلمون العربية الا نادراً . وكانت دولة الممالك في عهد بيبرس وخلفائه تستند الى ادارة ثنائية دقيقة يشرف على شقيها المدني والحربي زعماء الممالك يعاونهم الموظفون المدنيون . وتوالى سلاطين الممالك على عرش السلطنة حتى سنة ١٣٨٣ م

طبقاً لنظامهم الذي كان في جملته نظاماً وراثياً . اما بعد هذا التاريخ فقد اصبح العرش من نصيب أشد قادتهم بأساً و سطوة .
وحين كانت تحضر أحد سلاطينهم الوفاة كان يخلفه على العرش ابنه كرئيس شكلي ، ويظل في كرسي الحكم الى ان يتفق المماليك فيما بينهم على من يحكمهم .

وخلال الفترة الاولى من حكم المماليك كانوا مهددين من قبل اعدائهم المسيحيين والمغول . وكان اعظم ما فعلوه هو دفاعهم عن الحضارة الاسلامية في الشرق الادنى ضد اعدائهم هؤلاء . وخلال القرن الخامس عشر ظهرت دولة جديدة وهي الدولة العثمانية التي ارتفعت كالطود الشامخ من بين أنقاض السلطنة السلجوقية في الاناضول . وكانت العلاقات القائمة بين الدولتين ودية في اول الامر . وقام النزاع بينهما عندما حوّل الاتراك أنظارهم الى آسيا ، وذلك بعد ان ثبتوا اقدمهم في اوروبا .

وكانت التجارة مع اوروبا ، وخاصة ما كان قائماً منها بين اوروبا والشرق الاقصى عبر الشرق الادنى ، ذات اهمية حيوية لمصر بسبب مما كانت تقيده من مواد التجارة ، وما كانت تفرضه عليها من مكوس . وتمكنت حكومات المماليك في عهود قوتها من ان تحمي وتشجع هذه التجارة التي جلبت لمصر الرخاء وبعثت فيها ازدهاراً جديداً للفنون والآداب . وعلى الرغم من ان بيبرس تغادي من خطر المغول ، فقد ظلّ هذا الخطر ماثلاً . وبين سنتي ١٤٠٠ - ١٤٠١ م اجتاحت الجيوش التركيبية المغولية بقيادة تيمورلنك سوريا ونهبت دمشق . وأكمل عمل المغول بعد انسحابهم

الطاعون والجراد و غارات البدو الذين لم يعد يكبح جماحهم احد .
فكان هذا ضربة لسلطنة المماليك اثرت في قوتها الاقتصادية
والعسكرية بحيث لم تقم للمماليك بعدها قائمة .

وادى التدهور الاقتصادي وقيام ضائقة مالية في القرن الخامس
عشر الى انتهاج سياسة مالية جديدة ترمي الى تحصيل اكبر مقدار
ممكن من المال من تجارة المرور . وتمشياً مع هذه السياسة
احتكرت الحكومة المنتوجات المحلية الرئيسية التي تؤلف هذه
التجارة . فدفعت ارتفاع الاسعار الاوروبيين الى الانتقام لانفسهم ،
الامر الذي ادى الى اضطراب حياة مصر الاقتصادية برمتها .

وهناك عامل آخر مهم الا وهو انهيار عملية جمع العبيد بطريق
الشراء ، وذلك بسبب ما قام في وجه هذا النظام من صعوبات
في اسواق العبيد على البحر الاسود اذت الى فقدان الانتظام في
الحصول عليهم والى انحطاط نوعهم .

ويرسم مؤرخو العصر صورة حية لتفاهم فساد الحكومة
وعجزها في ايامها الاخيرة . ويشير أحدهم الى هذا في معرض
كلامه على الوزراء فيصفهم بأنهم كانوا اوغاداً جفافة ، يستحدثون
آلاف المظالم ، ثم يقول بأنهم كانوا متعطرسين متعجرفين ، ليس
لهم ما يميزهم من علم أو ورع ، وأنهم نقمة على أهل عصرهم . وعلى
استعداد من غير سبب لان يصبوا سيلاً من الاهانات . ويضيف
الى هذا انهم كانوا يقضون حياتهم في ظلم معاصريهم وايداء البشرية .
وعندما جمع برسباي (١٤٢٢ - ١٤٣٨) قضاة المذاهب الاربعة
في القاهرة وطلب موافقتهم على استحداث ضرائب جديدة فوق

ما تقرضه الشريعة قيل إن احدهم رد عليه بقوله :
 « كيف نقتيه بأخذ اموال المسلمين ، وكان لبس زوجته يوم
 ظهور ولدها - يعني الملك العزيز يوسف - ما قيمته ثلاثون الف
 دينار وهي بدلة واحدة وزوجة واحدة . »^١
 وفي سنة ١٤٩٨ وقعت الكارثة الكبرى . ففي السابع عشر
 من أيار (مايو) من السنة ذاتها رست سفينة الملاح البرتغالي فاسكو
 دا جاما في شواطئ الهند خلال رحلته الاستكشافية البحرية حول
 رأس الرجاء الصالح . وعاد في آب (اغسطس) من سنة ١٤٩٩ م
 الى ألبونة ومعه شحنة من التوابل . وتلت هذه مباشرة رحلات
 استكشافية أخرى . وأقام البرتغاليون قواعد في الهند كما أقاموا
 تجارة مباشرة كانت ضربة قاضية على طريق حوض البحر الابيض
 المتوسط الشرقي ، سلبت دولة المماليك مقومات حياتها . واذ
 أدرك المماليك النتائج المباشرة المترتبة على هذه الاحداث ، وبسبب
 تحريض البنادقة اخوانهم في المصيبة الناشئة عن تحول طريق
 التجارة ، حاولوا بالطرق الديبلوماسية اولاً ثم بالحرب ان يدرأوا
 هذا الخطر البرتغالي . لكن جهودهم في هذا السبيل ذهبت ادراج
 الرياح . وكانت الاساطيل البرتغالية التي بنيت لمواجهة
 عواصف الاطلنطي تفوق من ناحية البناء والسلاح
 ومهارة الملاحين اساطيل المسلمين . ولم تلبث ان هزمت
 الوحدات البحرية المغربية وحطمت أساطيل العرب التجارية في
 المحيط الهندي واحداً تلو الاخر ، ونفذت الى الخليج الفارسي

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ، ص ٧٣٩ . (ط . كاليفورنيا)

والبحر الاحمر . وهكذا هُزم الشرق الادنى العربي . ولم يَبْعَث
الحياة في مجاري أنهاره الجافة إلاّ تدفق التجارة العالمية في القرن
التاسع عشر .

وهناك ثلاثة تغيرات هامة تستلقت نظرنا خلال دراستنا لتلك
الفترة الطويلة التي كنا بصددها . وأولى هذه التغيرات هي تحول
الشرق الادنى عن الاقتصاد القائم على النقد الى اقتصاد يعتبر في
أساسه ، على الرغم من قيام تجارة مرور خارجية واسعة ذات
شأن ، اقتصاداً اقطاعياً يرتكز الى الانتاج الزراعي . وثاني هذه
التغيرات هو فقدان العرب الحضرة والشعوب التي تتكلم العربية
استقلالهم السياسي وخضوعهم للاتراك . أما في الصحارى الواسعة
قليلة السكان فقد احتفظت القبائل العربية باستقلالها الذي استعادته
اثنا فترة تدهور سلطان العباسيين ، كما أجبقت المحاولات
المتكررة التي قامت لاختضاعها ، بل وكثيراً ما كانت تضعف
تخوم البلاد المنزرعة خلال صراعها الطويل الأمد مع الاتراك .
وفي بعض المناطق الجبلية أيضاً استطاعت جماعات تتكلم العربية
ان تحافظ على استقلالها . أما في سواها من البلاد ، أي في المدن
وأودية الأنهار والسهول المنزرعة في العراق وسورية ومصر ، فقد
قَدَّر لسكانها اصحاب اللسان العربي ، الا يمارسوا حكم أنفسهم
طيلة ألف سنة . وتغلغل في نفوس الناس الاعتقاد بأن الاتراك هم
وحدهم الذين اهلتهم الطبيعة للاضطلاع بشئون الحكم ، بحيث نجد
في القرن الرابع عشر سكرتيراً من المماليك يخاطب العرب بواسطة
ترجمان بالتركية لا بالعربية ، لغة وطنه ، وذلك لتلايحظ من شأن نفسه

باستخدام لغة المحكومين المحترمة. وفي وقت متأخر لا يعدو أوائل القرن التاسع عشر اخفق نابليون لما حاول ، بعد ان فتح مصر ، ان يملأ مراكز الدولة العليا بموظفين مصريين يتكلمون العربية ، فلجأ الى تعيينهم من بين الاتراك الذين كان الناس قد اعتادوا ان يطيعوهم دون سواهم .

اما ثالث هذه التغيرات فهو انتقال مركز الثقل في البلاد التي يتكلم اهلها العربية من العراق الى مصر. اذ ان العراق بسبب سوء تنظيمه وعجزه وبعده عن البحر الابيض المتوسط، الذي قدر للتجار والاعداء ان يسلكوه فيما بعد ، لم يعد صالحاً لأن يكون مركز تلك البلاد. ولم يكن هناك معدى عن اختيار مصر الطريق التجاري الآخر ، التي تتألف من وادي نهر واحد ، وتتطلب بسبب طبيعتها ذاتها قيام حكومة مركزية واحدة - الحكومة المركزية القوية الوحيدة في الشرق الادنى العربي .

وبذهاب قوة العرب ذهب مجدهم . وورثهم حكام يتكلمون الفارسية والتركية ، وصار هؤلاء يشجعون من الشعراء من ينظم القصائد في مدحهم بلغاتهم الخاصة، وحسب اذواقهم وتقاليدهم الخاصة . وبدأ الفرس اولاً ، ثم تلاهم الاتراك في اتخاذ لغة خاصة بهم لتكون اداة لثقافتهم الاسلامية . كما استولوا بالاضافة الى جانب زعامة الاسلام السياسية على الزعامة الثقافية أيضاً . وشهدت الفنون في العصرين السلجوقي والمغولي عهود ازدهار جديدة . اما الادبان الفارسي والتركي فعلى الرغم من اصطباغها القوي بالنقلد الاسلامي العربي فقد انتهجا سبيلاً جديداً ذا خطوط واضحة مستقلة .

واقترصر استخدام اللغة العربية، لغة الأدب، بعد عصر السلاجقة، على البلاد التي يتكلم أهلها العربية باستثناء حصول ضئيل من التأليف الدينية والعلمية. وزاد انتقال مركز الثقل في الإسلام إلى الغرب في أهمية سورية، وأعطى أهمية أكبر لمصر التي أصبحت الآن تضم المراكز الرئيسية للثقافة العربية.

وأدى نشوء مجتمع راكد، تسيطر عليه نظرة دينية تقليدية جامدة، إلى انحطاط التفكير والبحث المستقلين. ووجد اعتماد الناس الكلي في حياتهم العامة على الحكومة ما يماثلة في الأدب. وترتب على النقص الهائل في عدد من يحسنون القراءة والكتابة، وفي عدد من يؤلفون ويقرأون الكتب وعلى انعدام الاحتكاك بالحياة الحقيقية فقد ان الحيوية والثقة بالنفس.

وأبرز ميزات هذا العصر هي تأكيد الفنانين المتزايد على الشكل واعتماد العلماء على الذاكرة. إلا أن هذا العصر لم يخل من بعض الشخصيات العظيمة مثل الغزالي (١٠٥٩ - ١١١١) الذي يعد من أعظم مفكري الإسلام والذي حاول أن يربط بين الفلسفة الكلامية الجديدة وبين مذهب الكشف الغامض عند الصوفيين. ومثل الحريري (١٠٥٤ - ١١٢٢) الذي لا يزال يعتبر عند الشعوب التي يتكلم أهلها العربية أعظم من رفع راية الصناعة اللفظية وحسن العبارة. ومثل ياقوت (١١٧٩ - ١٢٢٩) كاتب التراجم والجغرافي والأديب. ومثل تلك السلسلة من المؤرخين، أو على الأصح من جامعي كتب التاريخ، الذين ظهروا في العصور التي عقت عصر المغول. وكان بين هؤلاء المؤرخ

التونسي ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦) الذي يعد اكبر نابغة في التاريخ في الاسلام وصاحب أول بحث فلسفي اجتماعي في التاريخ . وفي سنة ١٥١٧ م ، تداعت امبراطورية المماليك الواهية المتدهورة امام هجوم العثمانيين ، وظلت سورية ومصر اربعة قرون جزءاً من الامبراطورية العثمانية . وسرعان ما خضعت دول البوير الممتدة حتى حدود مراكش للسيادة العثمانية . وبفتح العثمانيين للعران بطريق فارس سنة ١٦٣٩ م اصبحت جميع البلاد التي يتكلم اهلها العربية تقريباً خاضعة لحكم العثمانيين .

ولم تتمكن الشعوب التي تتكلم العربية من الاحتفاظ بالاستقلال الفعلي الا في اماكن قليلة . ففي شبه جزيرة العرب تمكنت ولاية اليمن القائمة في الزاوية الجنوبية الغربية والتي اصبحت في سنة ١٥٣٧ م ولاية عثمانية ، من ان تستعيد استقلالها في سنة ١٦٣٥ م . وخضع حكام مكة والمدينة العرب ، وهم الاشراف ، للسيادة العثمانية ، لكنهم كانوا تابعين للقاهرة اكثر مما كانوا تابعين للقسطنطينية . أما في باقي شبه جزيرة العرب فقد تمكن البدو من المحافظة على استقلالهم في صحاريهم القاحلة . وفي منتصف القرن الثامن عشر قاموا بحركة روحية قوية تشبه من بعض الوجوه ظهور الاسلام نفسه ، وذلك حين اسس فقيه من نجد يدعى محمد بن عبد الوهاب (١٠٧٣ - ١٧٩١) فرقة جديدة تقوم على التشدد في تطبيق تعاليم الدين ونبد الصوفية . وباسم الاسلام الخالي من الشوائب الذي ساد في القرن الاول نادى محمد بن عبد الوهاب بالابتعاد عن جميع ما اضيف للعقيدة والعبادات من زيادات باعتبارها « بدعاً »

خرافية غريبة على الاسلام الصحيح . وحرّم كذلك تقديس
الاولياء والاماكن المقدسة ، بل نهى عن المبالغة في تعظيم محمد ،
ونبذ جميع اشكال الوساطات . وطبق نفس هذا التشدد في الابتعاد
عن الشوائب على الحياة الدينية والفردية . وباعتناق الامير
النجدي محمد بن سعود الوهابية أصبح لهذه الفرقة محور
عسكري سياسي . وسرعان ما انتشر المذهب الوهابي بطريق
الفتح في الجزء الاكبر من اواسط شبه جزيرة العرب ، وتمكن
الوهابيون من انتزاع المدينتين المقدستين مكة والمدينة من الاشراف
الذين كانوا يحكمونها باسم العثمانيين . بل هددوا ولايتي سورية
والعراق العثمانيتين . وحدث رد الفعل في سنة ١٨١٨ م عندما جرد
محمد علي والي مصر جيشاً من الاتراك والمصريين على شبه جزيرة
العرب وقضى على قوة الوهابيين وحصرهم في نجد موطنهم الأصلي ،
حيث عاشت هذه الفرقة محتفظة بكامل قوتها . واستطاعت في
منتصف القرن التاسع عشر ان تلعب دوراً سياسياً ، وبعثت مرة
أخرى في القرن العشرين .

وفي لبنان مارس اهل المناطق الجبلية الاستقلال قبل هذا
بزم من طويل . وذلك عندما قام الغزاة المسيحيون الذين جاءوا من
الاناضول بتحويل اجزاء الجبل العليا الى جزيرة مسيحية قائمة في
وسط محيط اسلامي . وظلت أسر محلية شبه مستقلة ، بعضها مسيحي
وبعضها درزي والبعض الآخر اسلامي ، تحكم أجزاء من جبل
لبنان في ظل السيادة العثمانية وتتمتع بقدر من الاستقلال يتوقف
مداه على فعالية الحكم التركي .

وواصل العثمانيون إخضاع باقي البلاد للأتراك ، وكانت هذه الحركة قد بدأت في زمن المعتصم واشتدت في أيام السلاجقة والمماليك . أما الحركات الاستقلالية التي ظهرت في الولايات العربية فقد قام باكثرها الولاة الاتراك لا الزعماء المحليون .

وابقى العثمانيون في مصر على طبقة المماليك ، وفرضوا عليها والياً عثمانياً وحامية عثمانية . لكن النظام الاقطاعي فقد طابعه الحربي واصبح يرتكز الى الدخل اكثر مما يرتكز الى الخدمة العسكرية . واصبحت معظم الاقطاعات تتبع نظام الالتزام ، وهو منح حق الانتفاع بجزء معين من اراضي الدولة لموظفي الحكومة مع تحديد حق توريثها والتصرف بها . وكان الملتزم يقوم بجمع ما يؤديه الفلاحون الذين لا يملكون الارض . وكان كل من الملتزم والفلاح يدفع الضرائب . وكان على ورثة الملتزم اذا ارادوا ان يخلفوه ان يدفعوا ضريبة معينة . وعندما ضعف السلطان المركزي استولى البكوات المحليون على السلطة واصبح الوالي مجرد مراقب لمشائخاتهم . وكان البكوات في بعض الاحيان يقبضون على زمام السلطة .

وأحدث الفتح العثماني تغييراً اكبر في سورية . ففي اوائل القرن السابع عشر كانت البلاد مقسمة الى ثلاث ولايات عثمانية وهي ولاية دمشق وولاية حلب وولاية طرابلس ، ثم اضيفت اليها ولاية رابعة سنة ١٦٦٠ م وهي ولاية صيدا . وكان يحكم كل ولاية منها والي يشترى منصبه ويتمتع بقسط وافر من حرية التصرف في ولايته ، يتوقف مداه على الظروف وعلى شخصيته .

وكانت الولايات نفسها تتبع اساليب الاقطاع العثمانية . وكان
اكثر الارض مقسماً بين اصحاب الاقطاعات واكثرهم من
الأتراك . وكانت هذه الاقطاعات شبه وراثية يلتزم صاحبها دفع
الضرائب السنوية والخدمة مع اتباعه في الجيش . اما حقوق الملتزم
فهي جمع الضرائب وممارسة حقوق السيد الاقطاعي على فلاحيه .
وكان قسم كبير من أراضي الدولة يُمنح بطريق الالتزام لكبار
رجال البلاط العثماني في القسطنطينية . وكان الولاة يتمتعون بقدر
كبير من حرية التصرف والسلطة كان يزداد كلما ابتعدوا عن
القسطنطينية او ضعفت الحكومة العثمانية .

وفي بادىء الأمر عاد الحكم العثماني على البلاد بالخير لما جلبه من
الرخاء والأمن النسبيين في اعقاب حكم المماليك المتأخرين التعسفي .
لكن عندما حل القرن الثامن عشر نتج عن التدهور الاقتصادي
ان ساءت الادارة وانتشر الفساد وعمت الفوضى وسيطر الجُمُود .
وبقي روح الثورة حياً ملحوظاً خلال هذه الفترة الطويلة من
الحكم الأجنبي - هذا الحكم الذي جمع بين ثقافتين جمعاً كان من
شأنه أن يؤدي دوماً الى الضرر المتبادل بينهما ، في حين كانت
مصير كل من هاتين الثقافتين مرتبطاً بمصير الأخرى . نعم ، كانت
الحركة الاسماعيلية قد فقدت اهميتها بعد غزوات المغول ، لكن
حلت محلها حركات جديدة . وحتى في زمن المماليك كان شعب
مصر المتكلم بالعربية يشور من وقت الى آخر . وكان يقوم
بالحركات الاستقلالية المنفرقة زمن العثمانيين افراد من اصحاب
الطموح اكثرهم من الولاة العثمانيين انفسهم . اما حركة المعارضة

الشعبية الحقيقية التي تستند الى التقليد الإسلامي فقد ظهرت بثوب ديني في التصوف. وكانت هذه الحركة في البداية مجرد تجارب فردية غامضة ثم تحولت الى حركة اجتماعية التف حولها اتباع كثيرون من بين أفراد الطبقات الدنيا ونظموا أنفسهم في طرق الدراويش التي كانت في الغالب مرتبطة بنقابات أصحاب المهن . ولم يكن المتصوفة يعتبرون من الناحية الرسمية خارجين على الدين كما كان الاسماعيليه . وكانوا لا يقومون بنشاط سياسي . اما في الدين فقد رفعوا الراء ايمان صوفي شخصي في وجه العقيدة السماوية الرشيدة . كما استطاع الصوفية في بعض الاحيان ان يؤثروا فيها . اما ما قاموا به في الميدان السياسي فكان في اكثر الاحيان مضاداً للحكم التام . غير ان الثورة الصوفية فشلت في تسربها ، كما فشلت الثورة الاسماعيليه العنيفة . اما عوامل الجمود فكانت قوية جداً ، ولم يتم تغير حقيقي الا عندما ظهرت عوامل جديدة خارجية اقوى واشد من الحوافز الهلينية التي كانت الدافع الاساسي للنهضة الاسلامية في القرون الوسطى .

الفصل العاشر

تأثير الغرب

« انك تتطلع الى خزائن العرب العامرة ،
وتعد الخطط الحربية القاسية
للك سبأ الذين لم يخضعوا بعد ،
وتطرق السلاسل لميدو الشمس . »
(هوراس : الاناشيد ١ ، ٢٩)

لقد كان العرب على اتصال بغرب اوروبا منذ عهد الفتوحات الاولى . ذلك انهم حكموا في اسبانيا وصقلية شعوباً اوروبية غربية ، واقاموا مع دول غرب اوروبا الاخرى علاقات عسكرية وديبلوماسية وتجارية ، كما استقبلوا طلاباً من غرب اوروبا في جامعاتهم ، وكان الصليبيون قد جلبوا قطعة من غرب اوروبا الى قلب الشرق العربي . ومع ان الغرب افاد من هذا الاحتكاك فان العرب لم يتأثروا كثيراً به . فقد ظلت العلاقات بالنسبة لهم خارجية وسطحية ، ولم يكن لها سوى تأثير ضئيل على حياة العربي وثقافته . ويمكس لنا الادب العربي القروسطي في التاريخ والجغرافيا عدم اهتمام العرب بغرب اوروبا . فقد اعتبروه عالماً من الجهل والتأخر بعيداً لا يُخشى خطره على بلاد الاسلام المشرقة ،

وليس عنده من المعارف ما يقدمه لهم . ويقول المسعودي ، احد
جغرافي القرن العاشر : « واما اهل الربع الشمالي ، وهم الذين بعدت
الشمس عن سمتهم ... فغلب على نواحيهم البرد والرطوبة ،
وتواترت الثلوج عندهم والجليد ، فقل مزاج الحرارة فيهم ،
فعظمت اجسامهم ، وجفت طبائعهم ، وتوعرت اخلاقهم ، وتبدلت
أفهامهم ، وثقلت ألسنتهم . . . ولم يكن في مذاهبهم متانة . . .
ومن كان منهم أوغل في الشمال فالغالب عليه الغباوة والجفاء
والبهائية » . ويعدد قاضي من طليطلة [وهو ابن صاعد الاندلسي]
في القرن الحادي عشر في كتابه « طبقات الامم » الامم التي
عنيت بالعلم وهي : « أمم الهند والفرس والكلدانيون والعبريانيون
واليونانيون والروم واهل مصر والعرب . » ويضيف الى ذلك
أن « أنسب الامم الاخرى [التي لم تعن بالعلوم] هي الصين
والترك . » أما الامم الباقية فكانوا موضع ازدراثة ، ويصفهم
بقوله : « أشبه بالبهائم منهم بالناس . . . وأن من كان منهم موغلاً
في بلاد الشمال . . . عظمت ابدانهم ، وايضت الوانهم ، وانسدلت
شعورهم ، فعدموا بهادقة الافهام وثقوب الخواطر ، وغلب عليهم
الجهل والبلادة ، وفشا فيهم العمى والغباوة . » وقد كان لمثل هذا
الموقف في بادئ الامر ما يبرره ، لكنه اصبح ، بعد أن قطعت
أوروبا الغربية شوطاً في مضمار التقدم ، قولاً قديماً خاطئاً .
ومنذ أوائل القرن السادس عشر نلاحظ قيام علاقات جديدة
بين الاسلام وبين الغرب الذي كان قد سجل تقدماً علمياً كبيراً
في صناعات الحرب والسلام . إذ كان الغرب قد شهد بعضاً جديداً

بتأثير حركتي النهضة والاصلاح الديني: فبالحلال النظام الاقطاعي في بلدانه تحررت التجارة من كل قيد وقويت روح المغامرة والابتكار، كما أن التجارة والمغامرات لقيت هناك سنداً في توطيد الحكومات القومية المركزية . وهكذا اخذت أوروبا الغربية تقوم بمركتها التوسعية العظيمة التي مكنتها من أن تجعل العالم كله يدور في فلكها الاقتصادي والسياسي .

أما في الشرق الأدنى فقد كانت ظهور الامبراطورية العثمانية بظهر التوي يخفي وراءه ضعفاً مستحكماً وانحلالاً في النظام الاجتماعي لتلك الدولة العسكرية المستبدة . وكانت الرابطة الأخلاقية التي تحفظ وحدتها الدينية تزداد ضعفاً في كل يوم . وزاد الجمود الاقتصادي في الدولة من تأثير فساد الادارة وانحلالها وانحطاط القيم الاخلاقية . ولم يثر التغيير الاقتصادي اي اهتمام لدى الطبقتين الحاكمة والمفكرة .

وكان التوسع الاوروبي في اوائل القرن السادس عشر من نوع جديد . وبدأ حين قام الفرنسيون بمفاوضة الباب العالي لعقد تحالف ضد أي عدو مشترك . ولم تلبث مهارة الفرنسيين في الديبلوماسية أن نجحت في تحويل التحالف الى اتفاق اقتصادي يمنح التجار الفرنسيون بموجبه حقوقاً وامتيازات معينة في كافة أنحاء الامبراطورية العثمانية . وحفظت هذه الحقوق فيما يعرف بامتيازات سنة ١٤٣٥ م التي كانت تكفل للتجار الفرنسيين سلامة أشخاصهم وأموالهم ، وتؤمن لهم حرية العبادة الخ . وكانت هذه الحقوق في واقع الامر امتيازات للرعايا الفرنسيين خارج بلادهم (وأصبحت

تعرف فيما بعد بالامتيازات الاجنبية) . ولم تكن هذه في بادىء الأمر امتيازات انتزعت من دولة شرقية ضعيفة ، بل كانت أشبه بتنازل كريم من لدن السلطان مَنَحَ بموجبه الفرنسيين حقوق اهل الذمة في المجتمع الاسلامي ، باعتبار مثل هذا العمل توسعاً في تطبيق قوانين اهل الذمة بحيث تشمل النصارى الاجانب ايضاً .

واشتد تغلغل الفرنسيين بسرعة . فقد استغل التجار الفرنسيون فرصة اكتسابهم لهذه الامتيازات في اقامة مراكز تجارية وإنشاء بعثات قنصلية لهم في سورية ومصر . وتوالت الامتيازات بعد ذلك ، فمنحت للانجليز (١٥٨٠ م) وللهولنديين (١٦١٢ م) ولغيرهم من الشعوب . وأخذت التجارة الاوروبية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر تنمو باطراد ، وجعلت جماعات عديدة من التجار تقيم في موافيء سورية ومصر ومدنها في ظل حماية القناصل . واقتصر تقدم أوروبا العسكري ، دون التجاري ، في بلاد المسلمين الواقعة في الشرقين الادنى والاوسط حتى القرن التاسع عشر على تخومها الشمالية ، حيث اصلت روسيا والنمسا زحفهما في البلقان وشواطئ البحر الاسود الشمالية والشرقية على حساب العثمانيين . ولم تتأثر البلاد العربية إلا من الناحية التجارية ، وقد حدث هذا التأثير بصفة خاصة على يد التجار الانجليز والفرنسيين والايطاليين الذين اخذوا يفدون عليها للبيع والشراء . وبقطع نابليون بونابرت لمصر في سنة ١٧٨٩ م طراً تغيير ذو شأن . اذ ان حملته هذه ، التي كانت أول غارة اوروبية مسلحة على الشرق

الادنى العربي منذ الحروب الصليبية ، افتتحت حقبة جديدة .
فقد تحطم النظام المملوكي في الحال ، وتمكن الفرنسيون من احتلال
البلاد دونما اي صعوبة كبيرة . وعلى الرغم من ان حكمهم لها كان
قصير الامد ، إلا أنه كان عميق الاثر . فقد كان بداية تدخل اجنبي
مباشر في العالم العربي ذي نتائج اقتصادية واجتماعية عظيمة . وحطم
النصر السهل الذي احرزه الفرنسيون ما وقر في اذهان العرب من
ن الاسلام متفوق على الغرب الكافر تفوقاً لا ينازع ، كما أن
انتصارهم هذا خلق للمسلمين معضلة شائكة عميقة وهي مسألة تكييف
انفسهم بصورة تتلاءم مع العلاقات الجديدة . ولا تزال
الارتباكات النفسية التي ولدها الوضع الجديد تنتظر الحل .

وانتهت فترة الفوضى التي عقبته انسحاب الفرنسيين من مصر
بظهور محمد علي ، وهو احد الجنود الألبانيين الذين حاربوا مع
الجيش العثماني . ولم يلبث محمد علي ان نجح في ان يجعل من نفسه
حاكماً مستقلاً في مصر . واستطاع بعد ذلك ان يحكم بلاد العرب
وسورية ، لكن الدول الغربية حملته مدة اخرى على ان يقصر
سلطانه على مصر .

وافسدت الدول العظمى على محمد علي جهوده في سبيل
الاستقلال والتوسع . فلم ينجح الا في اقامة حكومة وراثية في
مصر ، الولاية العثمانية التي كانت تتمتع بالحكم الذاتي . ولكنه
وضع برنامجاً اصلاحياً شمل اصلاحات كثيرة كانت في الاصل
ذات اهداف عسكرية ترمي الى خلق جيش من النوع
الاوروبي . ومن اجل تحقيق اهدافه قام بوضع سلسلة

من الاجراءات الاقتصادية والتعليمية . وقد صادفت مشروعاته الاقتصادية على وجه الخصوص نجاحاً . اما المشاريع التي قام بها لتصنيع البلاد فقد انتهت بالفشل . وقام محمد علي ايضاً بتحطيم النظام الاقطاعي القانوني الذي كان نافذاً في مصر وسورية ، كما نهض بالزراعة وأقامها على أسس علمية . أما في ميدان التعليم ، فقد افتتح مدارس جديدة زودها بأساتذة استحضروهم من الغرب ، وشجع ترجمة الكتب الغربية ، وقام بطبعها في مطبعة انشئت لهذا الغرض في القاهرة . وأوفد كذلك بعثات علمية الى اوروبا كثر عددها فيما بعد . وأدى التوسع في زراعة القطن الى توثيق صلات مصر الاقتصادية بغرب اوروبا ، وخاصة مع إنجلترا ، السوق الرئيسية للقطن المصري . وبانتشار اللغات والافكار الاوروبية ، بفضل التعليم في الداخل والبعثات العلمية الى الخارج ، تعرضت النظرة التقليدية لتأثير الافكار الجديدة .

ولم يكن محمد علي عربياً ، بل كان عثمانياً يتكلم التركية . ولم يكن ليفكر في انشاء امبراطورية عربية من شعب كان هو نفسه ، مثل معظم أتراك ذلك العصر ، يحتقره . الا انه كان يحكم بلاداً عربية منحها درجة من الاستقلال السياسي ، وانشأ جيوشاً مصرية وسورية - كما ان ابنه ابراهيم كان بالاضافة الى انه يتكلم العربية ، متأثراً بالفكرة العربية .

وعادت سورية الى الامبراطورية العثمانية بعد انسحاب جيوش محمد علي منها في سنة ١٨٤٠ م . الا ان عملية تحطيم النظام الاقطاعي واحلال ادارة مركزية في محله استمرت تحت رعاية

الدولة العثمانية . وقوت الإصلاحات العثمانية من مركزية الحكم .
فقد توقفت الدولة عن منح الولايات لولاة من رجال الجيش ،
واصبحت الولايات مقاطعات ادارية يحكمها موظفون تعينهم
وتدفع رواتبهم الدولة . ومع أن ملاكي الارض حرموا من
امتيازاتهم الاقطاعية وسلطاتهم القانونية ، فقد احتفظوا بتفوقهم
الاقتصادي والاجتماعي ، وظلوا هم الطبقة المسيطرة في الحياة
الاقتصادية .

وكان النشاط الاقتصادي في اوربا قد دخل في هذه
الأثناء مرحلة جديدة ، فلم يعد اهتمام الاوروبيين منصرفاً بصفة
رئيسية الى التجارة ، بل اتجه الى تنمية موارد البلاد ومصالحها ،
وخاصة الى طرق المواصلات والسيطرة عليها إما مباشرة بالحمول
على الامتيازات ، وإما بطريق غير مباشر وذلك بتقديم القروض
المالية للحكومات المحلية .

ومنذ ايام فاسكو داجاما صار الاوروبيون يسافرون الى
الهند مجراً حول رأس الرجاء الصالح لتحقيق اغراضهم الحربية
والتجارية ، الامر الذي كان يمكنهم من الابتعاد عن الشرق
الايوسط . غير ان بعضهم اخذ في هذه الاثناء يفكر في العودة
الى الطرق البرية القديمة المعروفة ، بل لقد حاول نفر منهم سلوك
هذه الطرق ، لكن محاولاتهم لم يحالفها النجاح . ووجهت حملة
نابليون الانظار الى امكانية تحقيق هذا الامر . ثم تحقق بالفعل
عندما ظهرت السفن البخارية التي لا تعتمد في سيرها على الرياح
الموسمية في البحار الشرقية .

وكانت السفن الاوروبية منذ قرون تخترق من حين الى آخر
البحر الاحمر والخليج الفارسي حاملة منتوجات جزر الهند الشرقية
الى اسواق البصرة وجدة ، بل واحياناً الى السويس . ومنذ أوائل
القرن قامت الشركات البريطانية بانشاء خطوط ملاحية منتظمة
بين الهند والبصرة والسويس . ولكي تؤمن هذه الخطوط وضعت
خرائط للبحار العربية ، وقضت على اعمال القرصنة العربية بقوة
السلاح ، ووضعت يدها في الوقت ذاته على مراكز لتزويد
السفن بالفحم وعلى مواقع استراتيجية لأغراض الحماية .

وانتهت سلسلة الحملات التي جردت من بمباي على القبائل التي
كانت تغير بصورة مستمرة على سواحل بلاد العرب الشرقية
والجنوبية بعقد معاهدة سنة ١٨٢٠ مع امراء الخليج . وبهذا
وُضعت اسس السيادة البريطانية على هذه المنطقة . وقويت هذه
السيادة على مراحل خلال القرن التاسع عشر . واستدعت أعمال
القرصنة الراجحة دون عناء والتي كان يقوم بها سلطان عدن احتلال
سلطنته في سنة ١٨٣٩ م ، الامر الذي أمّن سبل الوصول الى
البحر الاحمر . وقامت شركة ملاحية بريطانية بتسيير
خطوط ملاحية منتظمة في البحر الابيض المتوسط الى مصر
وسورية ، وسرعان ما تلتها شركات فرنسية ونيسارية وايطالية
فأنشأت خطوط ملاحية مماثلة .

وبعد زمن وجيز حدث تطور مشابه في الطرق البرية الواصلة
بين البحرين المتوسط والاحمر . وحتى سنة ١٨٠٠ م لم تكن في
الشرق العربي طريق معبدة او عجلات للنقل . وكان النقل يقتصر

على استخدام الدواب والمواصلات المائية الداخلية. لكن رؤوس
الاموال الاوروبية والمهندسين الاوروبيين احدثوا تغييراً واسعاً.
فقد قام ضابط بريطاني في سنة ١٨٣٤ م بفتح الطرق في العراق
ومصر. وأخذت المراكب البريطانية البخارية تقوم بأعمال الملاحة
في أنهار العراق، وبهذا وصلت أراضي ما بين النهرين بالبصرة
والخليج الفارسي. لكن الاختيار وقع آخر الامر على مصر لا
العراق. وأول من بدأ العمل في هذا الميدان هي شركة الهند
الشرقية، ثم تلتها في سنة ١٨٤٠ م شركة البواخر العربية والشرقية
واستخدمتا طريقاً برية بين الاسكندرية والسويس. وسيرتا كذلك
القوارب البخارية في النيل والطرق المائية الداخلية، كما استخدمت
العجلات في الطرق التي انشئت خصيصاً لها. وفي سنة ١٨٥١ م
تعاهدت الي مصر مع جورج ستيفنسن على مد أول خط حديدي
في مصر. وقد تم مده سنة ١٨٥٦ م، ثم مد خط آخر في السنة
التالية بين القاهرة والسويس. وازداد عدد هذه الخطوط الحديدية
بسرعة. فلم تحل سنة ١٨٦٣ م حتى كان في مصر ٢٤٥ ميلاً من
الخطوط الحديدية، وما يزيد على الف في سنة ١٨٨٢، وبلغت في
سنة ١٩١٤ ثلاثة آلاف ميل ونيفاً. وباقتتاح قناة السويس في
السابع عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٦٩ م تم بصورة نهائية
أمر إعادة فتح الطريق بين مصر والبحر الاحمر، وأصبحت هذه
القناة مفتاح مصر نفسها.

أما في مناطق آسيا العربية البعيدة عن الطرق الرئيسية فقد
جاء تحسين طرق المواصلات متأخراً وبصورة بطيئة. وقامت بإنشاء

معظم الطرق فيها الشركات الفرنسية التي عيّنت الطرق في داخل سورية ، ومدّت بين سنتي ١٨٩٢ و ١٩١١ م حوالي خمسمائة ميل من الطرق الحديدية في سورية وفلسطين ، وبذلك أوجدت شبكة من المواصلات بين عدد من المدن الكبرى . وقام الاتراك انفسهم بمد سكة حديد الحجاز على طريق الحج بين دمشق والمدينة . وفي الوقت ذاته ، أي قبيل سنة ١٩١٤ م كانت سكة حديد بغداد الشهيرة التي انشأها الالمان بطريق حلب والموصل قد كملت تقريباً . وحدث تقدم مشابه في انشاء الموانيء وإقامة الجسور وشق الزرع وإدخال التلغراف وغيرها من المصالح . وكانت الشركات التجارية الأوروبية قد بدأت منذ سنة ١٨٦٠ م تعمل على توفير المياه والغاز وانشاء المواصلات داخل المدن ، والقيام بخدمات اخرى في بعض الموانيء الرئيسية والمدن الاخرى .

لكن ، لما كان هذا التطور العظيم يستهدف بصورة اساسية طرق المرور فلم يكن له سوى تأثير ضئيل في اقتصاديات البلاد التي تقطعها هذه الطرق . وبتحوّل طريق الاتصال البرية الرئيسية من الخطوط الحديدية الداخلية في مصر الى قناة السويس في سنة ١٨٦٩ لفترة من الزمن ، ضعف التأثير المباشر في اقتصاديات مصر ، وضعف بالتالي تطور انماء الموارد الاقتصادية في البلاد العربية . وكان أهم التطورات التي حدثت هو التوسع في زراعة القطن وقصب السكر . ويعود الفضل في ذلك الى تقدم اعمال الري كنتيجة لاستخدام الوسائل الحديثة والى ازدياد الخطوط الحديدية والطرق والموانيء مما ساعد على سرعة نقل المحاصيل الى الاسواق الكبرى .

أما التغييرات التي حدثت في القرن العشرين فهي أهم بكثير .
فقد أضاف اصطناع الاحتراق الداخلي في تسيير الآلة الطائرة
وسيارات الركاب والشحن الكبيرة الى وسائل النقل .
واحدثت الطائرة انقلاباً في طرق المرور من الناحيتين الاقتصادية
والاستراتيجية ، بينما اوجدت سيارات النقل والركاب شبكة عامة
داخلية من طرق المواصلات تشمل الشرق الاوسط كله ، الامر
الذي سهل انتقال الناس وتبادل البضائع والافكار على مقياس لم
يكن يحلم به احد حتى ذلك الحين . وكان استخدام سيارات
الركاب الصغيرة والكبيرة وسيارات الشحن الكبيرة مكان الحصان
والخمار والجمال هو العامل الوحيد الذي وحد اكثر من غيره وجه
العالم العربي كله . وحدث تطور مقابل وهو استخراج النفط الذي
يعتبره العالم الخارجي اهم الموارد الطبيعية في بلدان الشرق الاوسط .
فقد كان نشاط شركات النفط ، بعد ان اقتصر بضع سنوات على
الاناضول وفارس ، على وشك ان يشمل العراق ايضاً لولا ان
نشوب الحرب العظمى في سنة ١٩١٤ م حال دون ذلك . ولم يتم
استغلال نفط العراق الا بعد نهاية مؤتمر الصلح . فقام عدد من
الشركات ، تسيطر عليها المصالح البريطانية ، بمزاولة نشاطها في
انحاء البلاد المختلفة . وبدأ بعد ذلك استخراج النفط من المملكة
العربية السعودية حيث تسيطر المصالح الأمريكية . وأحدثت
شركات النفط بانشاءاتها الضخمة ، وباستخدامها العرب بأعداد كبيرة ،
ومخطوط أنابيبها ومصانع تكرير النفط تغييراً يفوق
حد التصور من الناحيتين الاقتصادية والاستراتيجية ؛

وأحدث تقدم تصنيع مصر وفلسطين ، على الرغم من
انه لا يزال في مراحله الاولى ، تغييرات اجتماعية بعيدة الاثر .
وقد تسربت الثقافة الاوروبية في أول الامر عن طريق الدين
على يد الاقليات المسيحية . فقد كان الفاتيكان على اتصال بموارنة
لبنان منذ القرن السادس عشر . وكان اليسوعيون والرهبان
الكبوشيون الايطاليون والفرنسيون ، يزاولون نشاطهم في سورية .
وكان الكهنة الموارنة يقدون على روما وباريس . ومنع سلاطين
العثمانيين الطباعة بالعربية والتركية زمناً طويلاً . وكانت المطابع
الاولى التي جلبت الى الشرق الادنى ذات حروف عبرية ويونانية
وسريانية فاستخدمها اليهود والمسيحيون من ابناء البلاد . إلا ان
الكتب العربية كانت تُطبع في ايطاليا وغيرها من بلاد الغرب ،
ومن ثم كانت توزع في الشرق الادنى . وبدأ الاترك الطباعة في
القسطنطينية في سنة ١٧٢٨ م . ثم جلب نابليون الى القاهرة مطبعة
ذات حروف عربية لطبع الصحف والبلاغات بالعربية والتركية .
وأول مطبعة اسلامية وجدت في العالم العربي هي التي اوجدها
محمد علي في مصر . وقد قامت هذه المطبعة بين سنة ١٨٢٠ ،
وهي السنة التي انشئت فيها ، وسنة ١٧٤٢ م بطبع ٢٤٣ كتاباً
اكثرها كتب مدرسية لطلبة المدارس الجديدة وكليات التدريب
التي انشأها محمد علي . وبما استلقت النظر ان عدد الكتب التي
طبعت بالتركية يفوق ما طبع بالعربية ، وان المؤلفات في
المواضيع الحربية والبحرية والرياضية والميكانيكية تكاد تكون
كلها بالتركية .

واشتدت خلال القرن التاسع عشر المنافسات التي قامت بين الدول العظمى من اجل حماية الاماكن المقدسة ، وبالتالى للمحافظة على مصالحها . وكانت اكثر البعثات التبشيرية نشاطاً في العالم العربي هي بعثات الجزويت الفرنسيين والارسالية الامريكية الانجيلية . فقد قامت هذه البعثات بفتح المدارس والكليات في سورية ، وبجلب مطابع ذات حروف عربية اخرجت كثيراً من الكتب التي ذكرت العرب بتراثهم الذي كانوا قد نسوه تقريباً ، واخرجت كذلك ترجمات لبعض المصادر العلمية الغربية . وعملت هذه البعثات على تربية جيل من العرب سرعان ما ازداد تقديره للتراث العربي وتأثره بالموثرات الغربية .

لكن النتائج الاجتماعية التي أسفرت عنها هذه التغييرات كانت اضيق نطاقاً مما يتوقعه المرء . فان الطبقة الوسطى الجديدة من اهل البلاد كانت تتألف من تجار ومفكرين ينتسبون الى الاقليات . ولم يكن في وسع هذه الطبقة أن تقوم بدورها الكامل لأنها كانت تعيش في حال من عدم الاطمئنان وفي عزلة عن باقي السكان . ولكن لما كانت هذه الطبقة تتكلم العربية وتكتب بها فقد قام السوريون بمن تلقوا تعليمهم على ايدي المبشرين بالشاء جرائد ومجلات دورية في مصر وسورية كانت تزداد انتشاراً كلما قوي تأثير السكان بالتغييرات الاقتصادية والاجتماعية . وفي هذا الدور ولدت القومية العربية التي كانت في الاصل مزيجاً من عناصر مختلفة . فقد انضاف الى كره العرب القديم للأتراك والى الريبة وعدم الثقة الشديدين

بالغرب الزاحف عليهم فكرة القومية من الغرب ، وإحياء مجد اللغة والثقافة العربيتين . وكانت القومية أقوى ما تكون بين المسيحيين الذين كانوا أقل تأثراً من غيرهم بفكرة الوحدة الاسلامية ، وأكثر تأثراً من سواهم بالتغيير الاقتصادي ومؤثرات الثقافة الغربية . ولم يكن في استطاعة النصراني ان يؤيد فكرة الوحدة الاسلامية التي كانت تعبيراً سياسياً حديثاً عن الجماعة الاسلامية القديمة ، بل كان يسعى الى تعبير جديد عن وحدة الشرق وسخطه على الغرب المعتدي . ولم يتضح أبداً للمسلم الفرق الحقيقي بين هاتين الصيغتين من صيغ التعبير . وكان السبيل للتعبير عن الرابطة الاساسية اجتماعياً ودينياً ، كما ان المجتمع الاسلامي كله كان يستخدم احياناً للتعبير اصطلاحات قومية و احياناً اخرى اصطلاحات دينية كما لو انها مجاميع من الكلمات المترادفة تدل على الحقيقة الاساسية ذاتها .

واخذ يتعاضم شأن الحركة القومية نتيجة لفرض الساطان الاوروي المباشر على اطراف العالم العربي في بادى الامر ، وذلك باحتلال الفرنسيين للجزائر سنة ١٨٣٠ م والبريطانيين لعدن في سنة ١٨٣٩ م ثم بفرضه بعد ذلك في قلب العالم العربي ذاته . وفي سنة ١٨٨٢ م احتل البريطانيون مصر التي تؤلف قلب العالم العربي . وقد أدى احتلالها الى اشتداد الحركة القومية فيها ؛ إلا أن هذه الحركة اصطبغت بصبغة محلية أقوى بسبب وجود مظالم وأهداف أكثر وضوحاً .

وفي هذا الوقت أخذت الحركة القومية تظهر بشكل سياسي

في الجمعيات السياسية أولاً ثم في الأحزاب السياسية . إلا أن
اصطناع الأشكال الدينية القديمة للتعبير عن الأهداف الاجتماعية لم
يكن قد زال من الأذهان . فقد بُعثت الوهابية ثانية في شبه
جزيرة العرب عندما بدأ عبد العزيز بن سعود حركة من التوسع
أضاف خلالها المحاربون الوهابيون معظم بلاد العرب الى موطنهم
نجد . واستولى ابن سعود على الاحساء في سنة ١٩١٣ م ، وعلى
جبل شمر في سنة ١٩٢١ وعلى الحجاز بين سنتي ١٩٢٤ و ١٩٢٥ .
وفي سنة ١٩٣٢ م أعلن قيام المملكة العربية السعودية ، كما أعلن
أن الوهابية هي العقيدة الرسمية للدولة . لكن التعبير الاساسي
المنظم اتخذ منه الآن شكلاً سياسياً على النهج الغربي .

غير أن تأثر الحياة الاجتماعية هذا بالعرب لم يتعد في الأعم
الاغلب الكيان الحارجي ، لأن الأساس الحقيقي للمجتمع لم يكن قد
أصابه تغيير أساسي بعد . وعلى الرغم من الغاء الامتيازات والحقوق
الاقطاعية بصورة قانونية ، فلم يطرأ على العلاقة الاقطاعية بين الملاك
والفلاح سوى تغيير طفيف ، وظل الملاكون يحتكرون الزعامة
الفعلية . ولم يكن لطبقات التجار ، وكانوا من غير المسلمين ، في
الاغلب ، علاقة بهذا الصراع . وظلت الطبقة الحاكمة على حالها ،
متمسكة بأفكارها ومصالحها الأساسية . واقتبست الوسائل
السياسية الأوروبية الغربية ، كالبرلمانات والانتخابات والحزب
والبرامج الحزبية والصحف والاتجاه للرأي العام باعتباره مصدر
السلطة ، جاهزة من العرب ، وفرضت على واقع اجتماعي لا يستجيب
لها . وهذا جاء طابع الحركات التي تحطت نطاق التكتلات الصغيرة

قويًا من الوجهة الدينية الى درجة ان ثورة تركيا الفتاة لم يكن لها سوى تأثير محدود في العرب الذين كانوا لا يزالون تحت سيطرة العثمانيين. ولم يكن لاحلال الرابطة التركية محل الاسلام كأساس للامبراطورية العثمانية وكبرنامج لتتريك الدولة الا رد فعل ضئيل في سورية ، بل لم يكن له رد فعل يذكر في العراق او في شبه جزيرة العرب .

وعندما نشبت الحرب العالمية الاولى في سنة ١٩١٤ م كان الشعور الاسلامي لا يزال قوياً مسيطراً . وكان اكثر المسلمين العرب لا يزالون على ولائهم للاتراك الذين كانوا يلقون عطفاً في مصر المحتلة من قبل الانجليز . الا ان القومية العربية تطورت تطوراً سريعاً بسبب الظروف التي اكتنفت سني الحرب وبسبب ما بذله الحلفاء من جهود . اذ نجح الانجليز في سنة ١٩١٦ م في اشعال نار ثورة عربية في الحجاز . وقام المتطوعة من البدو ، مقابل ما كانوا يتلقونه من معونة مادية مباشرة ، ووعد العرب بالاستقلال بعد الحرب ، بمساعدة الجيوش البريطانية في فتح سورية . وعلى الرغم من ان مؤتمر الصلح خيب الكثير من آمال العرب فانه منحهم الكثير . فقد أسست حكومات في العراق وسورية ولبنان وشرقي الاردن وفلسطين بعد ان ألغت جيوش الحلفاء الحكم التركي . الا ان الاستقلال الذي كان يصبو اليه العرب لم يتحقق عندئذ وأقيمت بدلاً منه الانتدابات البريطانية والفرنسية . ووجدت خيبة آمال العرب ، التي ازدادت وضوحاً بسبب التطور الاقتصادي السريع الذي تم فيما بين الحربين العالميتين ، تعبيراً عنها

في سلسلة من الحركات القومية العنيفة حافظت على طابع الحركات السابقة فاصطبغت بصبغات دينية ، واتخذت زعامات وسياسات متمشية مع النظام الاجتماعي القديم . لكن على الرغم من هذا ، وربما كان نتيجة له ، فقد كانت هذه الحركات في وقتها حركات شعبية بالفعل ، وذات أثر في كل جزء من اجزاء المجتمع العربي ، وشمل تأثيرها الاقليات المثقفة صاحبة الوعي السياسي التي قدمت الزعامة والافكار للفلاح الأمي التعس كوسيلة للتعبير عن ذلك المزيج المبهم من الخوف والسخط اللذين تولدا في نفسه ازاء هذه القوى الأجنبية الهائلة التي كانت تعمل على تغيير أسلوبه الحياتي باجمعه .

وكان الصراع مريراً ومستمرأ . وأحرز القوميون نجاحاً أساسياً في سعيهم لتحقيق اهدافهم السياسية ، فحصلت مصر والعراق في برهة وجيزة على استقلالهما الشكلي . ومن ثم تمرركز الكفاح الرئيسي ضد الاستعمار في سورية ولبنان وفلسطين . وكانت الحالة في فلسطين معقدة بسبب إنشاء الوطن القومي اليهودي . وأضافت الحرب العالمية الثانية سوريا ولبنان الى قائمة الدول العربية المستقلة . وفي آذار من سنة ١٩٤٥ وبعد تهديد طويل تأسست الجامعة العربية . وهي تضم مصر والعراق وسورية ولبنان والمملكة العربية السعودية واليمن وشرقي الاردن . وفي آذار من سنة ١٩٤٦ أصبحت الاردن دولة ذات سيادة . اما فلسطين ومناطق جنوب شبه جزيرة العرب الخاضعة لبريطانيا ، وبلاد شمال افريقية الخاضعة لفرنسا واسبانيا وما كان منها خاضعاً لإيطاليا

فقد ظلت خاضعة للحكم الاجنبي المباشر .

وجلبت الحرب العالمية الثانية تغييرات أخرى . ومع أن الدول العربية لم تقم بدور فعال فيها فقد تأثرت بها تأثراً جوهرياً . فقد أخذ دعاة الحلفاء والمحور يخطبون ودّ العرب بكل ما لديهم من وسائل . وعسكرت جيوش الحلفاء والمحور وحاربت في بلاد العرب ، واستخدمت آلافاً من العرب في اعمال التموين والوقاية وسواها من الخدمات ؛ فاعتنى البعض وتصور البعض الآخر . ودفعت الضائقات الاقتصادية والاجتماعية التي تولدت من ظروف الحرب نسبة متزايدة من السكان الى التفكير في مشاكل حياتهم العامة على اسس لم تحظر ببالهم من قبل . فقد أدى التغيير الاقتصادي الذي ترتب على تصنيع البلاد وعلى نشوب الحرب وعلى المؤثرات الفكرية التي نتجت عن انتشار التعليم ، الى ظهور مصالح وأفكار جديدة وزعماء جدد لا يكتفون بالتححرر الفكري الخالص الذي اعتبره بعضهم مجرد تقليد . فأخذوا يتحدون سلطان الحكام والزعماء القدماء الذي لم يكن قد تحطم بعد . وتلاشى ما كان لألمانيا من نفوذ قوي بسبب هزيمتها في الحرب . وبقيام المنافسات والتكتلات الجديدة بين الدول الكبرى امتلأ الشرق مرة أخرى بتصادم المصالح والافكار، ووجدت فرص جديدة مغرية لاحراز نجاح سياسي قصير الامد ، وحوادث الانظار عن المشاكل الحقيقية التي كانت تواجه مجتمعاً يجتاز دوراً انتقالياً .

وكما ان الفتوح العربية أوجدت بين العقيدة الاسلامية والحضارة الهلينستية اتصالاً تولد منه شيء جديد نافع فان الاسلام اليوم

يقف وجهاً لوجه أمام حضارة غربية تتهدد كثيراً من قيمه الأساسية، وقد تقوى على اجتذاب كثير من المسلمين الذين يقبلونها. والقوى المناهضة للإسلام هذه المرة كثيرة. إذ لم يعد الإسلام عميدة حديثة لينة محتفظة بجزارتها التي اكتسبتها من البوتقة العربية، بل هو الآن ديانة عريقة ذات نظم ثابتة.

لكن إذا كان المعدن صلباً فالمطرقة أشد صلابة أيضاً. فالأخطار التي تحدق بالإسلام اليوم أقوى وأشد وأكثر عدواناً وشمولاً. ثم إن مصدر التهديد هذا ليس هو المغلوب بل هو الغالب. والمؤثرات الأوروبية - من سكك حديدية ومطابع وطائرات ودور سينما ومصانع وجامعات وباحثين عن الزيت وعلماء آثار وبنادق سريعة وافكار - قد حطمت البناء التقليدي للحياة الاقتصادية تحطياً لا يرجى معه ترميم، كما أنها تؤثر في كل عربي - في طرق معيشته، وأوقات فراغه، وحياته الخاصة والعامة - وتتطلب تعديل الأساليب الاجتماعية والسياسية والثقافية الموروثة.

وأمام الشعوب العربية طرق مختلفة لحل مشكلة التكيف طبقاً للاوضاع الجديدة: فقد يقبلون أحد أشكال الحضارة الغربية المتنازعة المائلة امامهم، فيدمجون ثقافتهم وذاتيتهم في كلٍ واسع مسيطر، وقد يحاولون ان يعرضوا عن الغرب ونتاجه وان يسعوا وراء سراب العودة الى المثل الشيوقراطية الضائعة، فيوصلهم هذا لا الى تلك المثل بل الى حكم استبدادي معزز بما يقتبس من الغرب من وسائل الاستغلال والكبت ومن

اصطلاحات التعصب الرفاة. واخيراً ، وهذا لا يتم الا اذا تخلص
الشرق من السيطرة الاوروية ، قد ينجحون في تجديد مجتمعاتهم
من الداخل فيلتقون بالغرب على اساس من التعاون المتبادل
ويقتبسون شيئاً من علومه وانسانيته اقتباساً جوهرياً يتلاءم
مع تراثهم وتقاليدهم .

ثبت تواريخ

	ق. م
أول ذكر للعرب في نقش شلمنصر الثالث .	٨٥٣
بومبي يزور البتراء - أول اتصال للرومان بمملكة الانباط .	٦٥
حملة ايليوست جالوس على جنوب بلاد العرب .	٢٤ - ٢٥
	م. ب
سقطت دولة الانباط ، وأصبح جزء منها ولاية رومانية .	١٠٥ - ١٠٦
قيام « مملكة » تدمر .	حوالي ٢٥٠
اوريليان يخضع تدمر .	٢٧٣
سقوط حمير - الاحباش يحتلون جنوب بلاد العرب .	٥٢٥
احتلال الفرس لجنوب بلاد العرب ؛ واقامتهم فيها ولاية فارسية دامت عدة سنين .	٥٧٥
نهاية امارة الخيرة العربية بين العراق وشبه جزيرة العرب .	٦٠٢

هجرة محمد من مكة الى المدينة - وبداية الحقبة الاسلامية .	٦٢٢
محمد يفتح مكة .	٦٣٠
وفاة محمد . ابو بكر يصبح اول خليفة .	٦٣٢
العرب يفتحون سورية والعراق .	٦٣٣ - ٦٣٧
فتح مصر .	٦٣٩ - ٤٢
مقتل عثمان - بداية الحرب الاهلية الاولى في الاسلام .	٦٥٦
معركة صفين .	٦٥٧ - ٥٩
مقتل علي - بداية الدولة الاموية .	٦٦١
مذبحة الحسين والعلويين في كربلاء .	٦٨٠
الحرب الاهلية الثانية .	٦٨٣ - ٩٠
ثورة المختار في العراق - بداية فرع الشيعة المتطرف .	٦٨٥ - ٨٧
عبد الملك يضرب النقود العربية كجزء من النظام الجديد للامبراطورية .	٦٩٦
المسلمون ينزلون في اسبانيا .	٧٠٩
سقوط الامويين وقيام العباسيين .	٧٥٠
العرب يأسرون صينيين من صانعي الورق وذلك في آسيا الوسطى ، وابتداء انتشار استخدام الورق غرباً في انحاء الامبراطورية الاسلامية .	٧٥١

الامير الاموي عبدالرحمن الداخل يصبح اميراً مستقلاً في قرطبة .	٧٥٦
المنصور يؤسس بغداد .	٧٦٢ - ٦٣
قيام دولة الادارسة المستقلة في مراکش .	٧٨٨
قيام دولة الاغالبة المستقلة في تونس .	٧٩٩ - ٨٠٠
هرون الرشيد يوقع بالبرامكة .	٨٠٣
الحرب الاهلية بين الامين والمأمون .	٨٠٩ - ٨١٣
حكم المأمون - تطور العلوم العربية والرسائل .	٨١٣ - ٨٣٣
الاغالبة في تونس يبدأون بفتح صقلية .	٨٢٥
حكم المعتصم - بداية سيادة الاتراك .	٨٣٣ - ٨٤٢
تأسيس سامراء .	٨٣٦
احمد بن طولون ، احد القواد الاتراك ، يؤسس دولة في مصر ، وبعد ذلك في سورية ايضاً .	٨٦٨
ثورة الزنج في جنوب العراق .	٨٦٩ - ٨٣
قيام الصفاريين في فارس .	٨٧١
وفاة حنين بن اسحق مترجم التأليف الاغريقية العلمية الى العربية .	٨٧٧
اول ظهور للقرامطة في العراق .	٨٩٠
الفرق القرمطية تنشط في سورية وفلسطين وما بين النهرين .	٩٠١ - ٦
تأسيس الخلافة الفاطمية في شمال افريقية .	٩١٠
وفاة الطيب الرازي .	٩٢٥

عبدالرحمن الثالث يتخذ لقب خليفة في قرطبة .	٩٢٩
قيام دولة البويهيين الفارسية في غرب فارس .	٩٣٢
تأسيس وظيفة امير الامراء ، قائد الحرس التركي في العاصمة والحاكم الحقيقي .	٩٣٥
البويهيون يحتلون بغداد .	٩٤٥
الفاطييون يحتلون مصر ، ويؤسسون القاهرة .	٩٦٩
الأتراك السلاجقة يدخلون بلاد الخلافة من الشرق .	حوالي ٩٧٠
الخلافة الاموية في اسبانيا تتفكك الى « ممالك الطوائف » .	١٠٣٠
وفاة ابن سينا .	١٠٣٧
وفاة البيروني .	١٠٤٨
السلاجقة يستولون على بغداد .	١٠٥٥
عرب بني هلال الغزاة ينهبون القيروان .	١٠٥٦ - ١٠٥٧
النورمان يحتلون مسينة - ويبدأون احتلال صقلية .	١٠٦١
السلاجقة يحتلون سورية وفلسطين .	١٠٧٠ - ٨٠
النصارى يحتلون طليطلة .	١٠٨٥
انتصار المرابطين في معركة الزلاقة .	١٠٨٦
حسن الصباح يستولي على الموت .	١٠٩٠
وفاة الخليفة الفاطمي المستنصر - حدوث	١٠٩٤
انشقاق في الحركة الاسماعيلية - حسن	

- الصباح يتزعم الجناح المتطرف (الحشاشون) .
 الصليبيون يصلون الى الشرق الادنى . ١٠٩٦
 الصليبيون يحتلون القدس . ١٠٩٩
 وفاة الغزالي . ١١١١
 زنكي ، وهو قائد سلجوقي ، يستولي على
 الموصل - بداية رد الفعل الاسلامي ضد
 الصليبيين . ١١٢٧
 صلاح الدين يلغي الخلافة الفاطمية - ويؤسس
 الدولة الايوبية في سورية ومصر . ١١٧١
 معركة حطين . صلاح الدين يهزم الصليبيين
 ويحتل القدس . ١١٨٧
 المغول يفتحون المناطق الشرقية من اراضي
 الخلافة . ١٢٢٠
 النصارى يحتلون قرطبة . ١٢٣٦
 قيام السلطنة المملوكية في مصر وسورية على
 أنقاض الدولة الأيوبية . ١٢٥٠ - ١٢٦٠
 الفونسو العاشر يؤسس مدرسة للدراسات
 العربية واللاتينية في اسبيلية . ١٢٥٤
 المغول بقيادة هولاكو خان يحتلون بغداد
 ويقضون على الخلافة . ١٢٥٨
 المماليك يهزمون المغول في عين جالوت في
 فلسطين ، وينقذون سورية ومصر . ١٢٦٠

تيمور يحتاج سورية .	١٤٠٠ - ١
وفاة ابن خلدون .	١٤٠٦
النصارى يحتلون غرناطة - طرد المسلمين واليهود من اسبانيا .	١٤٩٢
فاسكو دا جاما يبحر الى الهند من طريق رأس الرجاء الصالح .	١٤٩٨
العثمانيون يفتحون سورية ومصر - القضاء على السلطنة المملوكية .	١٥١٧
العثمانيون ينجون اولى الامتيازات لفرنسا .	١٥٣٥
العثمانيون ينتزعون أخيراً العراق من فارس .	١٦٣٩
وفاة محمد بن عبد الوهاب مؤسس الفرقة الوهابية في بلاد العرب .	١٧٩٢
احتلال الفرنسيين لمصر .	١٧٩٨ - ١٨٠١
محمد علي يصبح حاكم مصر الفعلي .	١٨٠٥
بداية الملاحة المنتظمة بين الهند والسويس .	١٨٠٩
اتفاق شيوخ العرب في ساحل الخليج الفارسي - بداية سيادة البريطانيين على هذه المنطقة .	١٨٢٠
محمد علي ينشئ مطبعة في مصر .	١٨٢٢
الفرنسيون يغزون الجزائر .	١٨٣٠
احتلال مصر لسورية .	١٨٣١ - ١٨٤٠
تأسيس مواصلات بحرية تجارية بريطانية منتظمة في انهار العراق .	١٨٣٦

بداية تأسيس خطوط ملاحية بريطانية منتظمة	١٨٣٦
بين مصر وسورية .	
بريطانيا تحتل عدن .	١٨٣٩
مد خط حديدي بين الاسكندرية -	١٨٥١ - ١٨٥٧
والقاهرة - والسويس .	
منح الحكم الذاتي للبنان .	١٨٦١
افتتاح قناة السويس .	١٨٦٩
الفرنسيون يحتلون تونس .	١٨٨١
البريطانيون يحتلون مصر .	١٨٨٢
ابن سعود يبدأ في استعادة امارة نجد السعودية .	١٩٠١
ثورة تركيا الفتاة .	١٩٠٨
الايطاليون يحتلون ليبيا .	١٩١١ - ١٢
الثورة العربية في الحجاز - الشريف حسين	١٩١٦
يتخذ لنفسه لقب ملك .	
نهاية الحكم العثماني في البلاد العربية .	١٩١٨
تأسيس الانتدابات في سورية ولبنان (فرنسية)	١٩٢٠
وفلسطين وشرقي الاردن والعراق (بريطانية)	
ابن سعود يفتح الحجاز .	١٩٢٤ - ١٩٢٥
نهاية الانتداب في العراق .	١٩٣٢
ابن سعود يعلن قيام المملكة العربية	١٩٣٢
السعودية .	

- ١٩٣٤ ابن سعود يهزم اليمن في حرب قصيرة .
معاهدة صلح الطائف .
- ١٩٣٦ المعاهدة المصرية - الانجليزية - اعترافها
باستقلال مصر .
- ١٩٤١ انتهاء الانتداب على سورية ولبنان ، سورية
ولبنان تصبحان جمهوريتين مستقلتين .
- ١٩٤٥ تأسيس جامعة الدول العربية .
- ١٩٤٦ بريطانيا تعترف باستقلال شرقي الاردن -
شرقي الاردن تصبح مملكة .
- ١٩٤٨ انتهاء الانتداب على فلسطين .

فهرست الاعلام

١٩٦	ابن رشد	١٤٥ ، ١٤٤ ، ١١٦	آذربيجان
١٠٤ ، ٩٣	ابن الزبير ، عبد الله	٢٨	الآراميون
١٧٠	ابن زياد ، طارق	١٨٨ ، ٣٣	الآرامية ، اللغة :
٩٢	ابن زياد ، عبيد الله	١٩٨ ، ٢١ ، ١٩ ، ١٣	آسيا
١٧٠	ابن سالم ، فرج ،	٢٢٤ ، ٢٠٩	
١٠٩	ابن سيار ، نصر ،	٢٤٣	آسيا العربية
١٩٦ ، ١٩٥	ابن سينا	١١١	ابراهيم بن محمد
٢٤٩	ابن سعود ، عبد العزيز	١٤٨ ، ١٢٧ ، ١٢٤ ، ١١٦	الأبلة
٢٣١	ابن سعود ، محمد	١٦٥	ابن ابي عبيدة ، حبيب
٢٣٦	ابن صاعد الأندلسي	١٩٥	ابن اسحق ، حنين
٢١٤ ، ٢١٢	ابن الصباح ، الحسن	١٩١	ابن برد ، بشار
١٢٠	ابن الطقطقي	١٧٣ ، ١٧٢	ابن بشر ، بلج
١٣٥	ابن طولون ، أحمد	١٦٩	ابن جبير
٢٣٠	ابن عبد الوهاب ، محمد	١٠٩	ابن الحباب ، عبيد الله
٨٧	ابن ملجم	١٦٨	ابن حمديس
٢١٧	ابن منقذ ، أسامة	١٤٩ ، ١٠١	ابن الحنفية ، محمد
١٧٠	ابن نصير ، موسى	١٦٧	ابن حوقل
٥٥	ابن هشام	١٢٦	ابن خردادبة
١٩٥ ، ١٨٤	ابن قراط	٢٠٩ ، ١٩٤ ، ١٦	ابن خلدون
٦٩ - ٦٧ ، ٥٢	أبو بكر	٢٣٠	

٩٣٣، ١١١	الارستقراطية الفارسية	٨٠، ٧١	
٢١٠، ١٣٤		٦٥	أبو حيان ، التوحيدي
١٩٦، ١٨٤	أرسطو	٧١، ٦٨	أبو عبيدة بن الجراح
١٧٩	الارك	١١٢، ١١١	أبو مسلم الخراساني
١٨٩	الأردية ، اللغة	١٤٤-١٤١، ١١٤	
١٧٩	أرغون	١١٠	أبو هاشم بن محمد بن الحنفية
٧١	الأرمن	١١٧، ٤٣، ٢٦	الأبيض ، البحر
١٤٤، ١٢٣، ١١٦، ٢٩	أرمينية	٢٠٠، ١٨٢، ١٨٠، ١٦٣	
٣٣	أريتاس	٢٤٢، ٢٢٨، ٢١٧	
٤١٦٠، ١٣٥، ١٢٤، ١٠٦	إسبانيا	٤١٣٦، ١٧، ١٥	الأتراك
٤٧٣-١٧٠، ١٦٥، ١٦١		١١-٢٠٩، ٢٠٦	
٤٨٥-١٨٢، ٨٠-١٧٦		٢٢٨، ٢٢٧، ٢٢٤	الأتراك ، العثمانيون
٢٥٠، ٢٣٥، ٢٠٨، ١٩٧		٤٣٣ - ٢٣٠	
١٨١	الاسبانية ، اللغة :	٢٥٠، ٢٤٦، ٢٤٤	
١٤٣	استاذ سيس	١٦١	الأتراك ، السلاجقة
٢٥١، ١٧	الاستعمار	١٩٢	أثينا
١٤٣	اسحق الترك	٧١	أجنادين
٣٠، ٢٧	الاسكندر	٥٨	أحد ، معركة
٤١٦٠، ١٢٣، ٧٣	الاسكندرية	١٠	أحشويروش
٢٤٣، ١٩٤، ١٦٣		١٨٥	أحمد شوقي
٧٣	الاسكندرية ، مكتبة	٢٧، ٢٥، ١١	الأحمر ، البحر
٤٢٢، ٢١، ١٦، ١٥، ١٢	الاسلام :	١٦١، ١٦٠، ٤٣، ٣٥، ٣٣	
٥٣، ٥١، ٤٧، ٤٦، ٤١، ٢٥		٢٤٣، ٢٤٢، ٢٢٧، ٢٢١	
٧٩، ٧٢، ٦٩، ٦٠، ٥٨، ٥٤		١٦٨	الادريسي
٤١٢٥، ١٠٧، ١٠٠، ٩٨، ٨٤		١٨٥	أديلارد أوف باث
١٧٥، ١٧٤، ١٧٢، ١٧٠		٨٦	أذرح
٤١٩٦، ١٩٠، ١٨٩، ١٨٦		٣٤	أذينة
٤٢١٥، ٢١١، ٢٠٥، ١٩٧		١٧٢	الأردن

١٦٤	إقريطش	٢٣٠، ٢٢٨، ٢١٩، ٢١٨
٢١٢	الاقطاع	٢٥٠، ٢٣٩، ٢٣٦، ٢٣١
١٨٤	إقليدس	٢٥٣، ٢٥٢
٢٢	الأكراد	الاسماعيلية : ١٤٩، ٢٢ — ٥٥
١٨٢	ألبورتز، سانشر	٢١٣، ١٩٩، ١٦١، ٥٩ — ٥٨
١٧٢	ألبيرة	٣٤ — ٢٣٣، ٢٢٠، ١٤ —
٢٣٢	الالتزام، نظام	الأسود، البحر : ٢٣٨، ٢٢٣، ١٢٥
١٣٣، ١١٨	ألف ليلة وليلة	إشبيلية ١٧١ — ١٧٩، ٧٢
١٨٤	ألفونسو الحكيم	١٨٥، ١٨٢
٢١٤	ألموت، قلعة	١٨٥
١٦٠	أمالفي	٢٢٦
١٢٨، ١٢٢، ٨٤	الامبراطورية الاسلامية	أشبونة
٦٥، ٤٠، ٣٨	الامبراطورية البيزنطية	الأشعري، ابو موسى
١٢٣، ٩١، ٦٦		الأشعري، أبو الحسن
٣٣، ٢٣	الامبراطورية الرومانية	الأشعري، مذهب
٢٠١، ١٤٥		أصفهان
١٢٣، ٦٦	الامبراطورية الساسانية	الأصنام
٢٥٠، ٢٣٧، ٢٣٠	الامبراطورية العثمانية	الأغالبية
٦٥، ٤٠، ٣٨	الامبراطورية الفارسية	القارو
١٢٣، ٩١، ٦٦		افريقية
٢٣٨	الامتيازات الأجنبية	٤٤، ٢٩، ٢١ — ٢٠، ١٣
١٢	أمرؤ القيس	١٧٠، ١٦٥، ١٤٦، ١٢٦
٩٩، ٩٤، ٩٣، ٨٩، ٥٢	الأمويون	١٨٢، ٨٠ — ١٧٩، ١٧٧
١٠٧، ٤٤ — ١٠٣، ٤٠٢ — ١٠١		٩ — ٢٠٨
١٣٥، ١٢٤، ١١٧، ١١٣، ١٠٩		افريقية، شمالي
١٩٤، ١٧٨، ١٧٧، ١٧٣، ١٤١		٩١، ٢٢، ٢٠، ١٧
٢١٠، ٩٥ —		١٥٨، ١٥٥، ١٣٧، ١٢٤
١٣٦	أمير الأحرار	١٧٦، ١٧٢، ١٦٧، ١٦٣
		٢١٥، ٩ — ٢٠٨
		٢١
		افريقية، الاستوائية
		الأقباط

٧٣	بالبليون ، حصن	١٣٤،١٣٣	الأميين
١٦٦	باري	٩٠	الأمة العربية
١٤٦	باريس	٢١١،١٦٣،٨١،٧٤،٦٥	الأناضول
١٧٢	باجة	٢٤٥،٢٣١،٢٢٤	
١٦٥	بانتالريا ، جزيرة	١١٦	الأنبار
٣٣	البتراء	٤٣،٤٠،٣٥،٣٣	الأنباط
١١٦،٩٩	البحرين	، ١٥٩،١٢٤،١٢٣	الأنداس
١٥٥	البحرين ، ولاية	، ١٨٠،١٧٧،١٧٣	
١٤٤،١٠٦،٩١	بخارى	٢٥١،٢٤٠	انجلترا
١٤١،١٣٣،١١٩	البرامكة	٢٥٠،٢٤٨،٢٣٨	الانجليز
١٨٨،١٧٠	البرانس (البرت)	١٨٩	الانجليزية ، اللغة
٧٩—١٧٦،١٧٢،١٧٠،٢٢	البربر ٢٢	٦٨،٥٥—٥٣	الأنصار
٢٣٠	البربر ، دول	٢١٨،١١٦،١٩٤،١٢٧	انطاكية
٢٢٦	البرتغاليون	١١٦	الأهواز
٢٢٥	برسباني	، ٢٠٨،١٨٢،١٦٢،١٦٠	أوزوبا
١١	بروميثيوس	٢٤١—٢٤٠ ، ٢٢٤،٢٠٩	
١٢٠،١١٩	البريد	، ١٢٦،٢٤٤،١٣	أوروبا ، غرب
١٨٠	بسطة	٢٤٠،٢٣٧،٢٣٥،١٨٢	
، ١٢٤،١١٦،٨٣،٧٤	البصرة	٣٤	أوريليان
٢٤٣،١٩٣،١٤٨،١٤٦		٥٢	الأوس
٧٥	بصرى	٣٣	أوغسطس
١٨٥	بطرس، الفونسي	١٠٦	إيبيرية ، شبه جزيرة
٤٣	بطليموس ، الجغرافي اليوناني	١١	أيسخولوس
١٨٤	بطليموس	، ١٦٧،١٦٦،١١١	إيطاليا
، ١٢٧، ١٢٤، ١١٧—١١٦	بغداد :	٢٥١،٢٤٦	
١٥٨،١٥٥،١٣٥—١٣٣،١٢٨		٢٢٢،٢٢١،٢١٨	الأيوبيون
٢٢٠،٢١٤،٢١١،١٩٥،١٦٣		٢٣٧	الباب العالي
١٥٢	البغدادي ، عبد القاهر	١٤٥،١٤٤	بابك

٣٧	تابوت العهد	١١٨	البلاط العباسي
٨٣٣، ٦١٠، ٢٣، ١٣	تاريخ الاسلام	٦٨—١٦٥	بلرم
١٦٠—١٤٩، ١٤—١١٣، ٩١		١٢٦	بلغار
٤٣، ٥، ٣	التاريخ العربي	٢٣٨	بلغقان
١٦	تاسو	١٨٠، ١٢٤	بلنسية
١٠٢، ٨٦	التحكيم	٢٤٢	بمباي
٧١، ٤٣، ٤٠، ٣٤	تدمر	٢٢٦	البنادقة
٣٣	تراجان	٢١٢	البينداري
٢٢١، ٢١٤، ١٨	تركيا	١٦٠	البنديقية
٢٥٠	تركيا، الفتاة	٢٠٩، ٢٠٨	بنو سليم
٢٢٨، ١٨٩	التركية، اللغة	٥٢	بنو عدي
١٩٣، ١٠٩	التشريع الاسلامي	٥٩، ٥٢	بنو قريظة
١٠٠—٩٩	التشيع	٥٢	بنو النضير
٥٢	التقويم الاسلامي	١١٠، ٤٩	بنو هاشم
١٩٤	التلمود	٢٠٩، ٢٠٨	بنو هلال
١٢٣	تنيس	١٤٢	البهاء، فريد
٢٦	تهامة	١٧١	بواتيه
١٧٥	التوراة	٣٣	بومي
١٥٦، ١٣٥، ٧٤، ٢١، ٢٠	تونس	٢١١، ٢٠٧، ٢٠٦، ١٣٦	البويهيون
٢٠٩، ٦٦—١٦٤، ١٦٠، ١٥٧		٢٤—٢٢٢	بيبرس
٦٦	تيطس	١٩	بيت المال
٢٤٤، ٢٠٦	تيمورلنك	١٩٥، ١٨٦	البيروني
١١٦	الثغر	١٦٠	بيرا
٣٥	ثمود	٧٣، ٧١، ٦٧، ٦٦، ٣٠	البيزنطيون
٩٠	ثيوفانيس، المؤرخ	٤١٦، ٣١٦، ١٦١، ٩٦، ٩٥، ٩١، ٨٩	
١٢٧	الجار	٢١٥، ٢١١، ١٦٦	
١٩٣، ١٢٩، ١١٤	الجاحظ	٩٢، ٧٩، ٤١، ٣٠، ١١	بيزنطة
٣٣	جالوس ايلبوس	١٩٥، ١٩٤، ١٧٧، ١١١	

٦٣	جيبون	١٩٥،١٨٤	جالينوس
٢١٩،١٠٦	جيجون	٣٤	جالينوس ، الامبراطور
١٨٢	جيرالدا ، برج	١٨٢	جامع قرطبة
١٧٢	جيان	٢٥١	الجامعة العربية
٤٠٠	الحارث الرابع	٨٤٥	جب
٥١،٣٠	الحبشة	٢٤٢،١٢٧،٤٣	جدة
٢٩	الحبشية ، اللغة :	١٢٣	جرجان
٥١	الحج	٢٤٨،٢٠	الجزائر
١٠٧،١٠٦	الحجاج	٢٤٢،١٢٤	جزر الهند الشرقية
٤٢٢،٣٩،٣٣،٢٦	الحجاز	٤٠،٣٩،٢٠،١٢	جزيرة العرب
٢٥٠،٢٤٩،٩٣		٧٢،٦٩،٦٢	
٢٤٤،٢٧	الحجاز ، سكة حديد	١٠٩،١٠٨،٧٨،٦٩	الجزيرة
١٩٣،١٩٠،٤٩،٤٨،٤٦	الحديث	٤٠	جستينان
٥٩	الحديبية	٧٢	الجسر ، موقعة
٢٤٥	الحرب العظمى	١٥٠	جعفر الصادق
٥٢-٢٥١	الحرب العظمى الثانية	١١٨	الجلاد
٢١٠،١٣١،١٢٠	الحرس الحراساني	٧٢	جلولاء
١٥	الحروب الصليبية	٢١٥،١٦٠	الجمهوريات الايطالية
٢٢٩	الحريري	١٩٥،١٩٤	جنديسابور
٢٤٩،١٥٥	الحسا	١٨٥	جنديسلافي ، دومنجو
٨٧	الحسن بن علي	٨٤	الجل ، موقعة
٩٩،٩٢	الحسين بن علي	٢١٩	جنكيزخان
١٤-٢١٣	الحشاشون	٢٦٦	جوار جليانو
١٧٩	حصن العقاب ، موقعة	١١٤	جويينو
١٧٧	الحكم الثاني	٢٧	الجوف
٢٤٤،١٣٥	حلب	١٩٨	الجوهر ، نظرية
٢٣٢	حلب ، ولاية	١٥٧	جوهر الصقلي
٢٥٠	الحلفاء	٢٨	جويدي ، اجناسيو

٢٤١،٢٢٦	داجاما ، فاسكو	٢٦	الحجاد ، صحراء
١٨٥	الدار البيضاء	١٣٥	الحمدانيون
١١٦	دار السلام	١٨٢،١٧٩،١٦٢	الحمراء ، قصر
١٥٩	داعي الدعاة	١٧٢،١٥٤	حمص
١٨٥	الدالمطي ، هيرمن	٣٠	حمير
٦٢	دانتي	٥٠	الحنفاء
١٢٧،١١٦	دجلة	٧٢،٤٢-٤٠	الحيرة
٢٢	الدروز	١١٩	الحاتم ، ديوان
١٧٢،٩٠،٧٤،٧١	دمشق	١١٩	خالد البرمكي
٢٤٤، ٢٢٤، ٢١٧	دمشق ، ولاية	٧٦،٧٢-٧٠،٥٩	خالد بن الوليد
٢٣٢	دمياط	١٠٩	خالد القسري
١٢٣	الدهاقين	٤٩	خديجة
١٤٤،١١٥	الدواسر ، وادي	١٠٩،١٠٨	الخراج
٢٧	الدولة الطاهرية	١١٢،١٠٩،٩٨،٧٤	خراسان
١٣٤	الدولة العثمانية	١٤٣، ١٣٤، ١١٧	الخراسانيون
٢٤١،٢٢٤،٢٠،١٧	ذات الصواري ، معركة	١٤١	الخزرج
٩٢	الذميون	١٢٦	الخزرج ، بحر
١٠٩-١٠٧،٩٧،٧٨	ذو النفس الزكية ، محمد	١٢٥	الخزرج
٢٣٨،١٣٢	ذو نواس	٦٨،٥٢	الخلافة
١٤٠	الرازي	٦٥،١٤، ١٣	الخليج الفارسي
٣٠	رأس الرجاء الصالح	١٥٠،١١٨،٨٣	
١٩٥،١٧٠	رامبو	١٢١،٤٣،٣٥،٢٥	
٢٤١،٢١٦	ربيعة	٢٢٦،١١٦،١٢٤	
١٣٨	رجار الأول	٢٤٣،٢٤٢	
١١٦	رجار الثاني	٣٣	خليج العقبة
١٦٧	الردة	١٠٢،٨٦،٧٨	الخوارج
١٦٨		١٤٧،١١٠،١٠٣	
٦٩		٥٩	خير

١٣٥	السامانيون	١٩٣	الرسائل
٧٥، ٢٩	الساميون	١٣٣، ١٢٤، ١١٩، ١١٣	الرشيد
١١	السامية ، اللغة	١٤٧، ١٤٥	الرق
٣٠	سبأ	١١٦	الرقعة
٢٤٣	ستيفنسون ، جورج	٢٧	الرمة ، وادي
٢٧	السرخان ، وادي	٢١٦	الرهاء
١٦٦، ١٦٥	سرقوسة	١٦٤	رودس
١٩٥، ١٩١	السيرانية ، اللغة	٢٣٨، ٢٠٧، ١٢٦، ١٢٥	الروسيا
١٢٣	سستان	١٢٧، ٧٩	الروم
١١٦، ١١٢	السفاح	٢: ٦، ١٦٦، ٣٤، ٣٣	روما
٢٤٥، ٢٠	السعودية ، المملكة العربية	٤٠	الرومان
٢٥١، ٢٤٩		٢١٦	ريمس
٢٣٢، ٢٢٨، ٢٢٠، ٢١١	السلاجقة	٤٦	رينان
٨٨	سلمان الفارسي	١١٢	الزاب الكبير ، موقعة
٢٩	سليمان ، الملك	٨٤-٨٢	الزبير
١١١، ١١٠	سليمان بن كثير	١٤٢	زرادشت
١٠٧	سليمان بن عبد الملك	١٧٦	زرياب
١٢٤، ١٠٦	سمرقند	٦٠	الزكاة
١٤٣	سنباذ	١٥٥، ١٤٥	الزنج
١٢٧	السند ، بلاد	١٤٩-١٤٧	الزنج ، صاحب
١٠٦	السند ، ولاية	٢١	الزواج
٢١٠	سنغ	٣٤	زنوبيا
٧٤	ستغافورة	٢١٧	زنكي ، عماد الدين
١٥٠، ١٠٠، ٩٩	السنة	٩٢، ٩١	زياد بن أبيه
١٦٩	السواوية ، الأسرة	٢٢	الزبيديون
٢٠٩، ١٦١، ١٢١	السودان	١٦٥	زيادة الله
٧٢-٦٩، ٣٤، ٣٢، ٢٥، ٢٠	سورية	١٤٢، ١١٩	الساسانيون
٩٥، ٩٣، ٩٢، ٨٤، ٨٠، ٧٧		٢٩	سام

٣١	شكسبير	١١٠، ١١٦، ١٢٤، ١٣٠،	
٢٤٩	شمر ، جبل	١٣١، ١٤٠، ١٥٤، ١٥٧،	
١١٠، ١٠٥، ٩٩، ٦٧، ٢٢	الشيعة	١٥٨، ١٦٠، ١٦٢، ١٦٣،	
١٥٢، ١٤٩، ١٤٠		٢١١، ٢١٤، ٢١٧، ٢٢١،	
١٥٠	الشيعة ، لإمام	٢٢٢، ٢٢٤، ٢٢٧، ٢٢٨،	
٢٠٧، ١٥٠	الشيعة الاثني عشرية	٢٣٠، ٣٢-، ٢٣٩، ٤٢،	
١٢٨	الصراف	٢٤٤، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٥٠،	
١٢٨	الصفاء ، إخوان		٢٥١
١٣٤	الصفاريون	١٢٥	السويد
١٠٢، ٨٦، ٨٥	صفين	٢٤٢-٤٣	السويس
١٧٧	الصقالبة	٢٤٣-٤٤	السويس ، قناة
١٢٦	الصقلبية ، اللغة	١٢٣	سيمون
٦٨-١٦٦، ١٥٨، ١٢١	صقلبية	١٢٤	سيراف
٢٣٥، ٢٠٨، ١٧٠		١٩٣	السيرة
٢١٤، ١٥٨	صلاح الدين	١٢٤	سيلان
٢٢٢، ١٩-٢١٧		١٠، ١٧، ٢٦، ٢٧،	الشام
٢٥٠، ٢٤٥	الصلح ، مؤتمر	٤٠، ٩٩، ١١٦،	
٢١٥، ٢٠٨	الصلبيون	٣٢، ٣٤	الشام ، بادية
٢٣٥، ٢١٨، ٢١٧		١٧٠	شارل الأول الأنجيفي
٢٢٩	الصلبية ، الحروب	١٧١	شارل مارتل
٢١٨	صور	١٨٠	شاطبة
٢٣٠، ٢٣٠، ٢٢٩	الصوفيون	١٧٢	شدونة
٥٤	صوم التكفير	٢٠، ٢٧، ٢٥٠، ٢٥١،	شرقى الأردن
٢٣٢	صيما ، ولاية	١١٨، ١٩٠، ١٩٩، ٢٢٦،	الشريعة
١٢٥، ١٢٤، ١٢٣، ١١١	الصين	١٩١	الشعر الجاهلي
٢١٠، ٢٠٧، ١٩٧، ١٤٢، ١٢٧		١٨٩	الشعر الفارسي
٥٢	الطائف	٣٨، ١٨٩،	الشعر العربي
١٧٠، ٧٤	طارق ، جبل	٣٧	الشعوب السامية

٢٣٣	العثمانيون ، الولاية	١٦٦	طارنت
٢٤٨،١٨٤	عدن	١٣٤	طاهر
٤٠،٢٦،٢٢-٢٠،١٧	العراق	١٢٣	طبرستان
٩١،٨٦،٨٤،٧٢،٧١،٦٩،٤١		١٤٦	الطبري ، المؤرخ
١١١،١٠٩،١٠٥،١٠٣،٩٩		١٦٠،١٢٤	طرابلس الشام
١٤٢،١٣٥،١٣٤،١٣١،١١٦		٢١٨،٢١٦	
٢١١،٢٠٦،١٦٢،١٥٩،١٤٨		٢٣٢	طرابلس ، ولاية
٢٣٠،٢٢٧،٢٢١،٢٣٠،٢١٧		١٣٣	الطراز
٢٥١،٢٥٠،٢٤٥،٢٤٣،٢٣١		١٧٠	طريف بن مالك
١٠٤،١٠٣،٣٢،١١	عرب الجنوب	١٧٠	طريف ، جزيرة
١٠٥،١٠٣	عرب الشمال	٢١١	طغرل بك
١٣١،٣٧،١٣،٨،٧	العربي	٨٤-٨٢	طلحة
٢١،١٩-١٢،٨،٧	العربية ، اللغة	١٧١،١٧٠	طليطلة
١٧٢-١٦٩،١٠٦،٢٩،٢٨		١٨٠،١٨٠،١٧٨	
٨٩-١٨٦، ١٨٠، ١٧٥		١٧٩،١٨٨	الطوائف ، ملوك
٢٩-٢٢٧، ٢٢٣، ١٩٥		٧٤	طوروس
١٠٢،٧٩،١٩،١٨،٧	العروبة	٨٤-٨٢	عائشة
١٠	العربي ، جنذب	١٣٠، ١١٤، ١١٣	العباسيون
٧٢	اعريش	١٥٦،١٤٩،١٤٢،١٤١،١٢٢	
١٠٨،٩٥،٧٨	العشر	١٩٥،١٩٢،١٧٣،١٦٣	
٧٠	عقرباء ، معركة	١٧٣	عبدالرحمن ، الداخل
٣١٨	عكا	١٨١،١٧٦	عبدالرحمن الثاني
٤٤	عكاظ ، سوق	١٧٧	عبدالرحمن الثالث
٩٣،٨٩،٨٦-٨٢، ٦٧	علي	٩٨،٩٣	عبد الملك بن مروان
١٥١،١٥٠،١٠٢،١٠١		١٠٦،١٠٥،١٠٣	
١٢٧،١١٦	عمان	٢٩،٢٨	العبرانيون
٨٢،٨٠،٧٨-٧٦،٥٢	عمر	١٩١	العربية ، اللغة
١٦٤،١٨٨،٨٥		١٦٤،٨٥،٨٣-٨٠،٥٢	عُمان

٦٦	القرتيون	١٩٥١٠٨٤١٠٧٤٨٩	عمر الثاني
١٧٠٠١٦٩	فردريك الثاني	٧٣-٧١٤٦٨٤٥٩	عمرو بن العاص
٤٦٧٠٤٤٢-٤٠٠٠٠٣١٤١٣	الفرس	٨٦٠٨٥٠٨٢	
١٣٣٠١١٤٠١١١٤٩٦٧٢		١٠	العهد القديم
١٩٢٠١٤١٠١٣٦٤١٣٤		١٦١	عذاب
٢٢٨٠١٩٥		١٨٢٠١٧٩	غرناطة
١٢٧٠٧٣	الفرما	٢٠٠٠٧٢٤٦٥	الاغريق
٢٥١٠١٧١٠١٢٦	فرنسا	٢١١	الغز
٧٤	القسطنطينية	٢٢٩٠٢١٥	الغزالي
١٦٣	القوقاز	٧٥	غزة
٤٩٥٠٦٦٤٢٧٠٢٥٠٢٠	فلسطين	٤١٤٠٠	الغساسنة
٢١١٠١٧٢٠١٥٧٠١٥٤٠١٤٠		٢٤٦	الغائبان
٢٥١٠٢٥٠٠٠٢٤٦٠٢٤٤		١٩٦	الغاريبي
٣٣	فلسطين الثالثة	٤١٠٠٠٧٢٤٤٢٤٣١٤١٨	فارس
٣٤	فيليب ، الامبراطور	١٤١٠١٤٠٠١٢١٠١١٦٤١٠٣	
١٩٧	الفن الاسلامي	٢١٩٠٢١٤٠١٨٨٠١٨٣٠١٤٨	
٢٨	الفينيقيون	٢٤٥٠٢٣٠٠٠٢٢١٠٢٢٠	
٦٢	فولتير	٢٢٨٠١٨٩٠١٢٦	الفارسية ، اللغة
١٢٦٠١٢٥	الفولغا	١٢٤	فاس
٢١٦	فولكر اوف شارتر	٤١٦٠٠١٥٧٠١٥٦	الفاطميون
٧٢	القادسية	٢١١٠١٧٦٠١٦٦٤١٦٣	
٢٢٥٠٢٢٣٠٢١٣٠٧٣	القاهرة	٢١٨٠٢١٥٠٢١٣	
٢٤٦٠٢٤٣٠٢٣٠		١٠١٠١٦٧	فاطمة الزهراء
٢١٥	القبر المقدس	٧٠٠٥٩٠٣١٠١٩	الفتوح الاسلامية
١٦٤	قبرس	١٧٧٠١٧١٠١٦٢٠١٢٦	
١٠٦	قتيبة بن مسلم	٢٥٢٠٢٠٩٠٢٠١	
٤٧١٠٦٦٠٥٥٠٥٤	القدس	١٢٧٠١١٦٠٨٥٠٤٣٠٣٥٠٤٩	الفرات
٢١٨٠٢١٦٠١٤٠			

١٦٦	كامبانيا	٤٥٠،٤٨،٤٦،٣٥،١٢	القرآن
٤٨٤٢٧	كايتاني ، ونكلر	١٩٩،١٩٣،١٩١،١٩٠،٨٥،٥٨	
٢٤٦	الكبوشيون ، الرهبان	١٥٧،١٥٥،١٥٤	القرامطة
٩٩،٩٢	كربلاء	١٧٠	قرطاجنة الجزيرة
١٨٥	كرد علي ، محمد	١٧٥،١٧٣،١٧٠	قرطبة
١٤٢	كسرى أنو شروان	١٨٥،١٨٠،١٧٩،١٧٦	
٤١	كسرى الثاني	٥٥،٥٣،٤٩،٤٥،٤٤	قريش
١٣٠،١٠٤	كلب ، قبيلة	١٢٩،٦٠،٥٨، ٥٦	
١٦٦	الكلي ، حسن بن علي	١٨٥	القرميوني ، جيرارد
١٩٦	الكندي	١٤٤	قروين
٦٣،٣٩،٣٨	كسندة	١٠٧،٩٢،٦٥	القسطنطينية
٢٨	الكنعانيون	٢٣٠، ١٨١، ١٦٤، ١٢٧	
١٣٢	الكنيسة الغربية	٢٤٦، ٢٣٣	
٥٨،٣٩	الكعبة	١٨٤، ١٧٩	قمتالة
٤١٠، ١٩٩، ١٨٤، ٧٤	الكوفة	١٦٦	قصرانة
١٥٣، ١١٦، ١٠٥		٩٥، ٧٧	القطائع
١٦٦	لا تيوم	٢١٤	قلب الأسد
٤٨، ٤٤	لامنس	١٢٧	القلزم
٢٥١، ٢٥٠، ٢٣١، ٢٢، ٢٠	لبنان	١٨٠	قلسانة
٣٥	لحيان	١٠٠	قم ، مدينة
٤١	لحم	١٧٢	قنسرين
٣٧	اللات	١٧٠	القوط الغربيون
١٨٩، ١٨٨، ١٧٠	اللاتينية ، اللغة	١٧	القومية
١٩٣	اللغة ، علم	٢٥٠، ٢٤٧	القومية العربية
١٦٩	لو كرا	٢٠٩، ٧٤	القيروان
٢٠٩، ١٦٤، ٢٠	ليبيا	١٣٠، ١٠٤	قيس ، قبيلة
١٨٤	ليون	٧١	قيسارية
٧٥، ٣٠	مأرب ، سد	٩١	كابيل
١٧١	ماردة		

١١٠	مروان الثاني	٢٠٦	مارلو
١٨٠	المرية	١٦٥	مازر
١٤٤	مزدك	١٩٥	ماسرجويه
٢١٣، ١٥٨	المستنصر	١٥٠	الماسونية
٢٣٦	المسعودي	٤٣	ما كورابا
١٦٦	مسينة	١٨٠، ١٧٢	مالقة
١٢٩، ١٢٨	المصارف	١٤١، ١٣٤، ١٣٣	المأمون
٤٣٥، ٢٧، ٢٢، ٢٠، ١٨، ١٧	مصر	١٩٦، ١٩٥، ١٤٥	
٨٢، ٧٧، ٧٤، ٧٢، ٦٩، ٤٣		١٩٣، ١٥٩	النتني
١٢٤، ١٢٣، ١١٦، ٩٣		١٢٧	المحتسب
١٦١، ١٥٨، ١٥٧، ١٣١		١١١، ١١٠	محمد بن علي بن العباس
١٨١، ١٧٢، ١٦٧، ٦٣		٤٣٩، ٢٣١	محمد علي باشا
٢٢٥، ٢٣، ٢١٧، ٢٠٨		٢٤٦، ٢٤٠	
٤٤٠ - ٢٣٨، ٢٣٣، ٣٠		١١٠، ١٠١	المختار
٢٥١، ٢٤٧، ٤٦، ٤٤، ٢٤٢		١٤٩، ١٤٨	المختارة
٨٤، ٨١، ٨٠، ٧٤	معاوية الأول	١١٦، ٧٢	المدائن
١٠٤، ١٠٢، ٩٤، ٨٨، ٨٦		٦٨، ٥٥ - ٥٣، ٤٠، ١٢	المدينة
	١٦٤	١٠٢، ٨٤، ٨٢، ٨٠، ٧٠	
٩٢	معاوية الثاني	٢٤٤، ٢٣١	
٢٣٢، ٢١٠، ١٤٥، ١٣٦	المعتصم	٢٢٥	المذاهب الاربعة، قضاة
١٥٩	المعري	١٧٩	المرايطون
١٥٧	المعز لدين الله	١٢٨، ١٢٤، ٢٠، ١٨	مراكش
٢٠٩، ١١٦	المغرب	١٨٥، ١٧٩، ١٧٤، ١٣٥	
٩٨	المغرب الأقصى	٢٣٠، ٢٠٨	
٢٢١، ٢٢٠، ٢١٩، ٢٠٦	المغول	٩٣	مرج راهط
٢٣٣، ٢٢٩، ٢٢٤		١٧٢	مرسية
١٢٥	المقديسي، الجغرافي	١٤٣، ١٣٤	مرو
١٤٣	المقنع	٩٣	مروان بن الحكم

١٤٩	الموفق	٥١٠٤٩٠٤٤٤٤٣٠٣٩٠١٢	مكة
١٨٥٠١٧٠	ميخائيل سكوت	٠٨٠-٨٢٠٦١٠٥٩٠٥٤	
١٦٦	نابل	٠٢٣٠٠١٠٢٠١٠١٠٩٣٠٨٨	
٢٤٦٠٢٤١٠٢٣٨٠٢٢٨	تابلون	٢٣١	
٠٤٩-٤٥٠٤٢٠١٣٠١٢٠٨	النبي	٣٩	الملاء
٠١٣٩٠١٢٩٠٦٩٠٦٧٠٦٤-٥٢		٣١	ملتن
٢٣١٠١٩٠٠١٨٩		٠٢٣٠٠٢٢٦٠٢٢٣٠٢٢١	الماليك
٢٣١٠٢٣٠٠٢٦	نجد	٢٣٣٠٢٣٢	
٤٠	نجران	٢٢٥	الماليك ، سلطنة
١٩٣	النحو ، علم	٥٣	المنافقون
٢١٣	تزار بن المستنصر	٤١	المنذر الثالث
١٣٠٠٤١١٠	الزراعات القبلية	٠١١٩٠٠١١٦	المنصور ، ابو جعفر
٤١	نسطوريوس ، مذهب	١٤٣٠١٤١٠١٣٣	
٢٠١٠٧٠٠٦٣٠٥٠٠٤٩	النصرانية	١٧٧	المنصور الأندلسي
٠١٧٥٠٠١٧٤٠١٣١٠٣٠	النصارى	٢١٩	منغوليا
٢٤٦٠٢١٦٠٢٠١٠١٨٤٠١٨٠		١٧٣	المنكب
٢١٥٠٢١٤٠٢١١	نظام الملك	٨٠٠٥٧٠٥٥٠٥٥٤	المهاجرون
٢١٤	النظامية ، المدرسة	٩٥٠٧٧	الموات ، الأرض
٢٦	النفود	٢٢	الموارنة
١٥٣	التقابات الاسلامية	٠١٠٧٠٠١٠٥٠٠١٠١-٩٧٠٧٩	الموالي
١٢	التجارة ، نقش	٠١١٤٠٠١١١٠١١٠٠٠٨	
٢٣٨	التمسا	١٤٩٠١١٥	
١٠٢	التهران	١٧٩	الموحدون
١٢١	التوبة	١٤٣	مور
٢١٨٠٢١٧	نور الدين محمود	٠١٠٥٠٠٩٢٠٠٨٩	المؤرخون العرب
٦٩-١٦٧	التورمان	١٣٠	
١٤٣٠١٤٢	تيسابور	١٥٠	موسى بن جعفر الصادق
١١	التيل	٢٤٤٠١٣٥٠١١٦	الموصل

٩٠٠٦١	الوفود	١١٦	الهاشمية
١٠٦	الوليد بن عبد الملك	١٥٢	هالكين ، أ.س. ،
١٦٩	وايم الثاني	٦٠٠٥٣٠٥٢	الهجرة
٢٣١	الوهايون	٩١	هراة
٢٤٩٠٢٣١	الوهاي ، المذهب	٧١٠٤١	هرقل
٣٤	وهب اللات	١١٩٠١٠-١٠٨	هشام بن عبد الملك
٢٢٩	ياقوت	٧٢٠٢٨٠٢٥٠٢٠	الجلال الحصيب
	يثرب : انظر المدينة	٩٦٠٧٥٠٧٤	
٧١٠٤١	اليرموك	٢٥٢٠٦٦	الهلينسية
٧٢	يزدجرد	٤٠	الهلينية
١٠٤٠١٠٣٠٩٢٠٩١	يزيد الأول	٠١٢٥٠١٢٤٠١٠٦٠٣٣٠٣٠	الهند
٢٢	اليزيديون	٠٦١-١٥٩٠١٥٦٠١٢٧	
٢٤٦	اليسوعيون	٢٤٢٠٢٤١٠١٨١	
١١٦	اليقوني	١٢١	هندوكوش
١٦٠٠١٥٧	يعقوب بن كلس	٢٣٥٠٣١	هوراس
٠٦٦٠٥٥٠٥٤٠٥٢٠٤٠٣٠	اليهود	٢٢٠٠٢١٩	هولاكو
٠١٧١٠١٣٦٠١٢٩٠١٢٦		٢٣٨	الهولنديون
٢٤٦٠٢٠١٠١٧٤		٣٧٠١١	هيرودس
٢٠١٠٦٣٠٥٠٠٠٤٩	اليهودية	١٣٦	الوائق
٧٨	يهوه	١٤٨٠١١٦	واسط
٢٢٦	يوسف ، الملك العزيز	٦١٠٥٣	الوثنية
١٦٥	يوفيموس	٥٠	الوحي
٠١٩١٠١٨٨٠١٢٦	اليونانية ، اللغة	١٣٣	الوزارة
١٩٥		١١٩	الوزير
		٢٥١	الوطن القومي

محتويات الكتاب

ص	
٤	كلمة المعربين
٥	تصدير
٧ - ٢٤	مقدمة
٢٥ - ٤٥	الفصل الاول : بلاد العرب قبل الاسلام
٤٦ - ٦٤	الفصل الثاني : محمد وظهور الاسلام
٦٥ - ٨٧	الفصل الثالث : عصر الفتوح
٨٨ - ١١٢	الفصل الرابع : الدولة العربية
١١٣ - ١٣٧	الفصل الخامس : الامبراطورية الاسلامية
١٣٨ - ١٦١	الفصل السادس : ثورة الاسلام
١٦٢ - ١٨٥	الفصل السابع : العرب في أوروبا
١٨٦ - ٢٠٥	الفصل الثامن : الحضارة الاسلامية
٢٠٦ - ٢٣٤	الفصل التاسع : العرب في دور التأخر
٢٣٥ - ٢٥٤	الفصل العاشر : تأثير الغرب
٢٥٥ - ٢٦٢	ثبت تواريخ
٢٦٣ - ٢٧٧	فهرست الاعلام

تصويب

ص	سطر	خطأ	صواب
٩	١٣	العربية	العبرية
٢٤	١	أو على مشابه	أو على الأقل مشابه
٤٠	١٧	صيغة	صبغة
١١٠	٧	العباس	بن العباس
١٥٠	٧	جعفر	اسماعيل
١٦٣	١٢	حجر	جهر
١٩٢	٦	النصرانية واليونانية واللاتينية	العالمين اليوناني واللاتيني النصرانيين
٢٠٣	١٨	تغيير	تعبير

F

أوسع المراجع في تاريخ الاسلام

الموسوعة التي وضعها
كبير المستشرقين الالمان

بارل بروكلمان

تاريخ الشعوب الاسلامية

في خمسة اجزاء

نقلها الى العربية

منير البعلبكي

نبيه امين فارس

الناشر

دار العلم للملايين

١٩٧ - ٣ - ٥٤ - ٢٠٠٠

- ٢٨٠ -







Elmer Holmes
Bobst Library

New York
University

NYU - BOBST



31142 02824 4492

DS223 .L42 1954

al-ʿArab